

﴿ كلمة المعرب ﴾

لم يعتد قراء المسامرات أن يروا لكتابها كلمات عامة ولكني أراهم يضنون بالقليل من صفحاتها والقصير من وقتهم على من اعايستمدون من أرواحهم وينحتون من قلوبهم ليكتبوا مافيه راحة النفوس وتهذيب للأخلاق بالعظات والامثال . فها أنا اكتب كلمتي هذه ورجائي أن تجد في الصدور متسعاً من أثر الكرم وأن تتقبلها العقول بالنظر والتمحيص فليس أولى بعناية الناظرين من نفثات اليراع ولا أخلق بالاكرام من الذين يرسلون أقلامهم فيسيلون في مدادها حبات القلوب وعصارة الاذهان

اكتبها وضحايا الاقدار بين يدى اجتلي فيها عاشق جهة ومزاياها هذه ... ظالماً الحقيقة جاحداً فضل مؤلفها اذ تركت أوابد الأفكار التي هاجتها في نفسي يراعته تذهب من الريح وتدفن في زوايا الترك والاهمال . وماتلك الافكار سوى شعوري الخاص ألتقي فيه مع البعض وأفترق مع البعض الآخر ولكل نظر ولكل وجهة وبقدر اختلاف مواقع الانظار تختلف الآراء والافهام

***

سيرى القراء في مايرونه من الحوادث في ضحايا الاقدار امرأة ابية النفس طيبة الارومة أولعت بالميسر فلما نهيت عنه انتهت الا أن شيطان الغواية عاودها مرة وما زال بها حتى أوقعها في براثن الحاجة . ومن ثم اندفعت تتقلب من حمأة الى حمأة تريد أن تتقي الخزى وتدفع حاجتها الأولى فلا تزداد الا خساراً وتكالاً وتحاول أن تنتشل نفسها فلا ترفع قدما حتى يهوى الاثنتان جميعاً الى أبعد غور في الهاوية . وما برحت على حالها تلك حتى قضت قضاءها فيها الايام فوردت المورد الذى سيقت اليه بالسلاسل والاغلال

هذه للمرأة ينظر اليها ذو النظر القصير الذى لايتكلف بحثا ولا عناء بل يمر

بها دنيا كما فيقول له زجرت فلم تزدجر وغوت ولم ترعو وسمت الى حتفها بظلفها وانحرفت الى الضياع فأضاعت نفسها وكانت من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وتلك عاقبة الباغين

أمثال هذه العظات يلقيها أستاذ على صبية يراد بهم أن يتمثلوا النفس أمارة بالسوء نزاعة الى الشهوات اذا أعطيت غايتها ولم تردع جرت الى ابعد شوط وادت الى البوار والدمار فلا واقي لهم منها الا أن يجاهدوا ضدها أشد الجهاد حتى تكسر شرتها ويكبح جماحها وتقلم منها أظفار الغواية والفساد

وهى عظات أن صح انها تؤدى الى الغاية المرومة وتنهض بالعبء الثقيل الذى يلقى على ظهرها فحبذا هى وما أجدرنا بأن ننسى ما تكلفه في سبيلها من الكذب والتمويه . ولكن هذا العالم لم يخلق كذبا ومن العبث أن يحاول أهلوه اصلاح أنفسهم بالمداجاة والتمويه . ولعمرى لقد آن للناس أن يتركوا العلل تتغلغل فيهم وآن أن يجانبوا الرياء والنفاق وينظروا فى أمراضهم نظرة صدق لا يحرفون الكلم ولا يألون عن الحق وحسبهم ماجنوا على أنفسهم بما كذبوا ونافقوا حتى وصفوا العلة بغير وصفها وطلبوا لها غير دوائها فلم يشفهم ماطلبوا وازدادوا خسراً وباؤا بخذلان مبين

منذ بدأ الناس يفكرون ويكتبون شعروا بأن فى النفس ميلاً الى الشهوات وأن هذا الميل علة العلل التى توزعت فى افراد المجتمع الانسانى، وأخذوا يصورون النفس شيطانا رجيما وجعلوا يذيبون أقلامهم تحذيراً منها ونصحاً برد شكيمتها. ثم جاءت على أثرهم الديانات سماوية وغير سماوية وما واحدة منها الا والنفس فيها منهية مزجورة موسومة بأنها اعدى مايجده الانسان على الأرض من الاعداء ثم توالت القرون وانتشر العلم فقيل ان التهذيب خير مايربى النفس ويطبعها على الفضيلة وان فتح مدرسة أغلاق لسجن من السجون فما معلم ولا كاتب الاوفى فمه امر الفاظ الحقد والضغينة عليها يحاربها بالكلام المسموم ويستعين عليها بزخارف العظات والامثال

وها نحن لم نقف عند هذا الحد من معاداتها والجناية عليها فقد فتكنا بها منذ العصور الاولى وسلطنا عليها سياط الارهاب والاذلال فأرصدنا لها الوانا من العذاب مازالت تتغير بتغير الازمان حتى قننت الشرائع الحالية بالحبس والنفي والاشغال الشاقة والاعدام

فعلنا كل ذلك كأنما نحن لم نخلق الا لنكون حربا لانفسنا ولنهدم بأيدينا النعيم القليل الذي أعد لنا في هذه الحياة القصيرة الآجال . فما الذي استفدناه من كل هذا الجهاد أو ما الذي كسرناه من شرة النفس بعد أن تألبنا عليها عصبة واحدة تقوى وتشتد كلما مرت العصور والاجيال ؟ ؟ ؟ ؟

اللهم اننا لم نستفد شيئا ولم يزل الناس ناسا بل كلما تقدم الزمان وكثرت الحاجات قويت الشهوات واشتدت الاطماع وانغمس الكل في تيار من الآثام رغم العلم ورغم الشرائع ورغم النصح والارشاد

انظر الى الناس واكشف عن صدورهم وتفحص بواطن نياتهم ودخائل اعمالهم سواء في ذلك المتعلم والجاهل والكبير والصغير والذكي والغبي تجدهم لارائد لهم جميعا الا الحاجة فمن العجزة طلبها بالرفق ركب في سبيلها كل مركب خشن من الحسد والمكر والسرقة وهم لا يتفاوتون الا في الوسيلة فالجاهل الغبي كالاعمى لا يعرف كيف يتقي العقاب فلا يكاد يمد يده حتى يؤخذ الى الاصفاد والمتعلم الذكي ذو الحيلة بصير قدير يصوغ فعلته ولا يمد يده الا في ظلام ثم يردها فلا تراها عين ولا يشعر بها انسان . ذلك شأن الناس جميعا جاهلهم والمتعلم فكلهم عند الحاجة لص وكلهم في الاثم سواء

تأمل هما أوروبا وأمريكا وبالاخص فرنسا وانكلترا والمانيا والولايات المتحدة اللواتي تضرب بيننا الامثال بمدنيتهن وانتشار العلوم في ربوعهن هل تجد لهن داء عضالا يخشى أن ينخر سوسه قوام حياتهن الا داء العمال وهل لهذا الداء معنى سوى تحكم أرباب الاموال بمالهم وجاههم في العمال الضعفاء كي يسلبوهم معظم عملهم ؟ فهم لا فرق بينهم وبين اللصوص الذين يسطون في غفلة الظلام

ليسرقوا ماتنال ايديهم من حطام الدنيا . لا بل هم أشد من هؤلاء خطراً واعظم جملا لانك قد تحتاط للسرقة وان فاتك الاحتياط نابت منابك الحكومة في مطاردة السارقين لتنزل بهم صارم العقاب ولكن العمال المساكين لايستطيعون ان يدفعوا شر المتحكمين فيهم مادامت لهم ولأهليهم بطون تطلب الغذاء ولا سبيل للحكومة على من يأبون ان يعطوا درهمهم الا اذا اشتروا به ارواح العباد

ثم ماهو المعنى الصحيح للمضاربات المالية والصناعية التى تزدحم بها أسواق تلك الممالك جملة واحدة وقد بدأت مصرنا تذوق من علقمها الصاب اليس معناها الصحيح الصريح أن ارباب الاموال الذين قعدت همتهم عن العمل يطلبون السعة من غير وجهها الحق فى سوق تأخذ بخناق الضعيف الساذج المغرور ثم لا تزال تدفعه وتجذبه حتى يقع بين شقى الرحى فلا يخرج الا منهوك الجسم والعظم ليأكل القوى ويشبع معدته من لحمه وعظمه ؟ وهل توجد سرقة ادنى من هذه السرقة أو هل يوجد داء حرب للعمل قتال للهمم أشد من المضاربات وهى تجرى بدرس الغنى بين أيدى المجدودين من المضاربين لالسبب سوى انهم جروا مع السوق صاعدين نازلين

وبماذا احدثك عن شركات الاحتكار تلك الشركات التى تسرق الاموال بالباطل حتى لقد ضجت منها الولايات المتحدة وأسمعت العالم صيحتها فلم يكن لحكومتها بد من الحملة عليها ولكنها لا تزال عاجزة عن ان تدفع بلاءها المحيط بالناس . او بماذا احدثك عن عصابات اللصوص وأهل الشر الذين يعيثون فى الارض فساداً وها نحن الجاهلون الاولى ريع أمهم واضطرب حمل سكينتهم لم نعرف فى لصوصنا الا الذين يسرقون ماشية او شبهها ولم نر فيهم أمثال هاتيك العصابات ذات القوانين والنظامات التى اذا سلبت فانما تسلب ثروة برمتها لا يصدهم عن غايتهم صياد ولا يحول دونها حائل ان اعترضتها الاقفال كسرتها او المخازن فلقتها أو الحراس أعدمتهم الانفاس . وليس العهد بعيدا بعدام همبرت ومسيو ليموان وكم لهما من الاشباه ممن لم يشع عنهم خبر ولم يشهر لمكرهم أثر

فأنت ترى من ذلك كله ان النفوس لم تزل كما هي وان العلم لم يهذبها ولكنها اذ وجدت الحرب التي اقيمت عليها تلفحها بنار محرقه ورأت ان الحاجة دافعة بها رغماً عنها ومهما اقيم فى سبيلها من الحوائل الى الشهوات مكرت واستخدمت العلم لغايتها فوقت نفسها بعض الشر والمكر سلاح العاجز المضطر

***

يقول بعضهم ان للانسان نفسين احداهما روحانية تسمو الى مستوى الملائكة الاطهار واخرى شهوانية او بهيمية او حيوانية هي النزاعة الى الشهوات وان هاتين النفسين لاتزالان تتنازعان دفعا وجذبا حتى تغلب احداهما الاخرى فالسعيد من غلبت فيه الأولى والشقى من غلبت فيه الثانية

ولست ادرى هل يريد القائلون بذلك مجازاً او حقيقة فأن ارادوا مجازاً فلهم ماأرادوا اذ المجاز لاتقفل له ابواب واما ان ارادوا حقيقة فأنا أقف متردداً بين الشك واليقين وابقى اعتقادى الى اليوم الذى يتأيد فيه قولهم ببرهان على متين ولكن مالا مجال للشك فيه ان على كل انسان وكل حيوان فى هذا العالم واجبين أساسيين بل غريزتين قهريتين لامحيص عنها لمخلوق وهما المحافظة على الذات والمحافظة على النسل . هذان الواجبان او هاتان الغريزتان هما اللتان يدور حولهما محور هذا الوجود فلو انعدمتا أو ضعفت احداهما لانقرض النوع ولشمل الأرض خراب فى قليل من الايام

انظر الى البهيم تجده اذا هوجم هاجم واذا جاع خرج يطلب الغذاء ثم هو لا يهتم بعد نفسه الا بنسله . وكذلك الانسان همه الاول حاجته التى لايعيش بدونها والثانى بنوه وأهله . فمن أراد ان يكلف الانسان غير هاتين الغريزتين فهو انما يطلب مالاينال ويعالج المحال

اذن فالانسان مدفوع بغريزة المحافظة على ذاته ـ تلك الغريزة التي هي اساس الوجود ـ الى طلب الحاجة التى لابد له منها ومتى تمت له وامن عليها كان السكون احب واهون لديه من ان يندفع الى مخاوف غير مأمونة العواقب لشيء هو فى

يده . فإن رأيت لصا يسرق او معتديا يظلم او غاويا يعبث فساداً فثق أن اساس ذلك كله الحاجة وانه لولاها ماسرق من يعرف انه يساق الى عقاب ولا اعتدى من يعلم ان مرتع الظلم وخيم ولا عاث من يوقن الى الفساد ندامة وخسار

لولا الحاجة ماذل مضطر وارتفع ذو سعة ولا تبسم سعد او نكى شقى . لولاها ماانكس طرف وعلا الى السماء طرف . لولاها ماقيل غنى وفقير عظيم وحقير ابى شريف ولص دنىء . فهى هى أساس الحياة وعلى قدرها تتوزع فى النفوس الصفات

دونك ارباب اليسار الذين توفرت لهم الحاجات فأصبحوا يخيل لهم لوهم ان نفوسهم تسكن بيوتا عالية للذرى من الشرف المتمد والمجد الصميم [illegible] بعصا الدهر وفرق شتات يسارهم ودعهم الى الحاجة [illegible] لك ان نفوسهم تلك التى كانت تحلق فى سماء الفضيلة الموهومة لا تلبث ان تهوى الى دركات الرذيلة حتى اذا عضها الجوع بناب من حديد ولمحت لقمة دونها جريمة لم تبال ان تفعل ماتفعل فى سبيل تلك اللقمة

هذا هو الحق فلا فارق بين انسان وآخر فى شرف نفس او اباء او رشاد الا الحاجة فمن اعوزته وارهقته فطلبها حيث وجدها [illegible] عنها ولم يمدد يده او مدها بقدر قيل شريف النفس ابى عارف طرق رشاده [illegible]

بل دونك القضاة الذين يجلسون للعدل بين الناس أو بعبارة اخرى الذين عهد اليهم ان يهذبوا النفوس ويردعوها عن الغواية هل [illegible] من سواهم او هل تحسبهم — الا قليلا منهم — يتنزهون عن المنهم الذى [illegible] فى الحديد؟

انهم قد يدفع بهم الوهم وتغرهم السلطة التى فى [illegible] ايسارهم لا تنعم على المتهم ولا تشعر به لكثرة مايجسمون من شأنهم ويصغرون من شأنه بل هم لايعبأون به ولا يبالون ان يصيبه ويصيب عشرة من امثاله حيف دام ان شأنهم حقير . من منا يستطيع ان يصل الى صدر بعضهم وهو متربع فى دست جبروته وعظمته وقد اشتد عليه الحر يوما فأوهن صبره او تذكر سره خلق امرأته اذ

نفرت منه وأشتد بينهما الحجاج واللجاج أو فكر فى طفله المريض الذى منع عنه السكرى سواد الليل أو اشتد به القلق لموعد بهواه قد حان أو او ... من منا يصل الى صدره فى تلك البرهة والمتهم أمامه يطلب اليه ان يتفرغ له بقلبه وسمعه وبصره والى جانبه عشرة أو عشرون يطلبون مثل مايطلب ولا يعلم ويتأكد أن من الناس من يسامون كالانعام وتضحى أرزاقهم وأرواحهم لمزاج شخص واحد فى ساعة واحدة يتقدم الى أحد هؤلاء القضاة سارق ماشية أو ناشل دراهم معدودة فيتعالى ويشمخ بأنفه ولعله لم يخرج من بيته الا وقد ظلم مستأجراً لأرضه أو أستبد بأمرأته او اخته او أخيه الصغير ليغتال حقاً لواحد منهم أو أكل مال يتيم توصى عليه وهو لايسمى شيئاً من ذلك سرقة ولا يراه عملا دنيئاً يستحق عقاباً ولكنه ينزل السخط كله والاحتقار بأوسع معانيه بسارق أضنته الفاقة فسرق ماشية او نشل دراهم معدودة

جيء الى عيسى عليه السلام بأمرأة زانية وقيل له : « هذه المرأة أمسكت وهى تزنى . . . . . . وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم فماذا تقول أنت . . . . . . فأنحنى الى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر ثم أنحنى أيضاً الى أسفل . . . . . . فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحداً واحداً . . . . فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة قال لها ياأمرأة اين هم اولئك المشتكون عليك اما دانك أحد فقالت لاأحد ياسيد فقال لها يسوع ولا انا ادينك اذهبى ولا تخطئى » (الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا)

وليس ابلغ من هذا واعظاً ولا ادل منه مثلا على ان الناس جميعا واقعون فى الآثام لايطهر منها صغير ولا كبير عالم ولا جاهل وفى قوله « ولا انا أدينك » من الاشارة مايغنى عن كل عبارة

***

ما بالنا اذن والحاجة داؤنا الذى لامناص منه نظلم النفس ونتهمها بالغواية

ونحمل عليها كلما طلبت حاجتها فنصليها من العذاب ناراً ؟

ما بالنا نقول زجرت فلم تزدجر وغوت ولم ترعو وسمت الى حتفها بظلفها وانخرطت فى مزالق الضياع فأضاعت نفسها وكانت من الاخسرين اعمالا ؟

وهل تستطيع نفسى ان لا تميل مع الحاجة او هل يستطيع غريق ان لا يبتل بالماء ؟ لعمرى اننا فى ما نفعل لعلى حد قول القائل

القاه فى اليم مكتوفا وقال له اياك اياك ان تبتلّ بالماء

هب ان رجلا نقى السريرة عف الضمير ساورته الحاجة حتى عصفت بلبها فلما هب يطلبها حيث وجدها جئته تعظه وتحذره ايما تحذير من غواية النفس واندفاعها وراء الشهوات . فهل ترى وعظك دافعا حاجته او قاعدا به عما يعده غواية وما هو الا حقه الطبيعى فى المحافظة على نفسه ؟

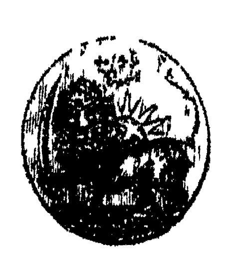
لقد طالما كذبنا على انفسنا فما أجدانا الكذب وظننا ان النفس داؤنا وما داؤنا العضال الا الحاجة فان أردنا اصلاحا فلنعط النفس حاجتها تمنع غوايتها ونستأصل اعظم جرثومة للجرائم والموبقات

هذا هو الاصلاح وهذا هو الدواء الحق وما عداه تمويه وكذب وان الكذب لا يغنى من الحق شيئاً

يقولون واية حاجة هى التى تمنع غواية النفس وتستأصل جرثومة الجرائم وهؤلاء هم الناس مهما غنوا وايسروا لا ينفكون يطلبون المزيد لما ركب فيهم من الطمع الذى لا يقف عند حد ولا ينتهى نهاية . وأقول ما كانت هذه الشراهة الا اثرا طبيعيا ونتيجة لازمة للنظام الفاسد الذى جرينا عليه . فهذا لما الجأنا فمنعنا عن بعض النفوس حاجتها وخصصنا بها بعضا آخر اشتدت الأولى فى الطلب وأشتدت الثانية فى التحفظ والادخار فآل الحال الى ماتراه الآن . ولا ولو اعتادت النفوس ان تجد الكفاف من الحاجة لما عرفت غير القناعة . ومن يظن من ان النفس ليست اسيرة عادتها وان صفة من الصفات او خلقا من الاخلاق او غريزة الغرائز سوى غريزتى المحافظة على النفس والنسل ركبت طبعا فى الانسان فهو فى خطأ عظيم

يقولون أيضا انك تطلب محالا وتتمنى خيالا اذ الناس لاتنقطع لهم حاجه ولا تسد لهم نهمة واين هو ذلك النظام الذى يعلم النفس القناعة ويسوى بين الغنى والفقير ولا يحمل لأحد على آخر ميزة الا بالفضائل الصحيحة فضائل العقل والعلم . فأقول ماأرادت الشريعة الاسلامية بالزكاة ولا أراد الاشتراكيون الذين يملأون الآن اوروبا الا هذا الذى اريد فحسبى ذلك دليلا على انى لااطلب محالا ولا اتمنى خيالا اذ لامحال الا ماتخيله الناس كذلك ومن دل على الداء فقد ارشد الى الدواء والله الهادى الى أقوم سبيل ؟

عبد القادر حمزه



الفصل الأول

عهود ومواثيق

قالت هل تمد معي يداً لاخراج هذه الحلوى من [illegible]
أجاب وأي أمر لك لا يطاع
[illegible] هما سونيا فرجوس وأوليفيه دي لو [illegible] أما الاولى فهي [illegible] العشرين أضفى الجمال والصبى عليها حلة من [illegible] والنضارة يتألق [illegible] وتسطع بهجتها وكأنما أطلعها الحسن واعتط على أقدامها الشباب حتى أصبحت يصح فيها قول الشاعر

[illegible] ما ردته نظرا
او كأنما [illegible] [illegible]
[illegible] تأخذه [illegible]
[illegible] ما تهب

أبوها [illegible] الذي طارت شهرته [illegible] انحاء اوروبا وكان اسمه فخراً [illegible] تشرف به [illegible] بعالمها اديسون المخترع الشهير

وأما الثاني فهو في غض الشباب [illegible] مشرق [illegible] أنشأه أبوه بين العزة والجاه والكرم [illegible] وحسن تربيته ولم [illegible] يتركه [illegible] التعليم حتى [illegible] في سلك [illegible]

[illegible] في ذلك اليوم الى [illegible] دعوة [illegible] من أصحابه للمائدة فلما انتهى الغداء [illegible] يقود الجمع الى [illegible]

الكيمياوي وانفرد اوليفييه بسونيا ثم صحبها الى الحديقة حيث نزلت تمد لضيوف أبيها الحلوى التي كانت قد وضعتها في السلال

شرع الاثنان يفرغان السلال بهمة وسرور تحت اشجار مورقة وسماء صافية وشمس ينفذ نورها الساطع من خلال الاوراق وكأنما هو يتراوح مع النسيم ويهتز مع الاغصان اهتزازاً فيديك الواقفين اللذين يمثلان للعيون الجمال في بهجته والصبي في دولته والانسان في غبطته والخالق في قدرته

وفي كل شيء له آية   تدل على انه الواحد

وكانت نظرات اوليفييه ترقب الحديقة حتى اذا وثق انهما وحيدان لا عين عليهما قال بصوت خافت :

أتسمحين لي بكلمة

أجابت: قل فاني مصغية

قال هل صحيح ان الامير اور[illegible]كو لوبا الذي تغدى معنا خطبك الى أبيك .

فاحمرت بحمرة في جبهتها [illegible] وأجابت :

أتدري انك تتعدى حد الحشمة بسؤالك هذا ؟ ولكن لك العذر فانك صديقي والصديق مطبوع على التطفل

قال: هي تطفل للصداقة الوثيقة التي ارتبطنا بها وارتبط بمثلها والدانا [illegible]

[illegible] الخجل واجابت: ان أبيت الا الحق فنعم انه خطبني الى أبي

[illegible]: وكيف كان جواب أبيك

قالت: لم يرد أن يبت [illegible] بل مشورة امي ومشورتي

قال: وهل استشيرت امك

أجابت: كتب اليها والدي في [illegible] منها الجواب

قال: وماذا رأيت

أجابت رأيت انها لا [illegible] بنفي او ايجاب حتى تأتي وتراه لانها

لم تعرفه ولم تنظره من قبل

قال وما رأيك انت ؟

فترددت قليلا وأجابت لست ارى الا ما يراه فيه كل من عرفه فهو أمير واسع اليد كريم المحتد جميل المنظر شهى الحديث ظريف شريف ثم هو يحب والدى حباً جماً ويظهر ميلا خاصاً لاعماله ومكتشفاته العلمية

قال : اذن فأنت تعجبين به

أجابت : وهل فى صفاته ما يحمل على غير الاعجاب به

قال: وهل ترتضينه قريناً

اجابت: أراك تذهب فى التطفل الى غير حد

ثم جعلت تتبسم وتأخذه بأنظارها فيه فرأته قد اضطرب واحمرت عيناه من الغضب وقال :

اريد منك كلمة ولا اريد غيرها فقولى بالله أترغبين فيه أم لا

فخفضت أجفانهـا ناظرة الى الارض ثم رفعت عينيها بغنة واجابت : ولم لا أرغب فيه

فهب كأنما لسعته أفعى واخرج فى الحال من ثوبه ورقة ومد بها يده وقال خذى واقرئى

واخذتها وقرأت :

« ادارة الشرطة »

« قلم السوابق »

« عدد ٨٢٣٢ »

« ولد اركول كوستامانيا من أب ايطالى هاجر الى مملكة بيروو وتزوج فيها بواحدة من نسائها . ثم فقد والديه يافعا وأرمضته الفاقة فتقلب فى كثير من المهن الوضيعه فكان فى أول أمره خادما فى نوادى الميسر حتى اذ جمع قليلا من المال ترك فى أعمال مالية معيبة ولكنه لم يلبث أن تركها وأوى الى المدن الكبيرة

يتظاهر بالغنى والشرف لينصب ويسرق وكلما حل فى مدينة جديدة انتحل لنفسه اسما جديداً من اسماء الشرف الجذابة وله فى ذلك وقائع عديدة معروفة . وهو لايزال يتردد على نوادى الميسر وقد حدث له أخيراً ان دخل الى ناديين شهيرين وشرع يلعب فرنى وهو يسرق فطرد منهما كليهما . ومن سوابقه ثلاثة أحكام جزاء شروعه فى النصب

« هذا الرجل يمتاز فى عمله بالشجاعة وسعة الحيلة والصبر والثبات والمكر وهو من أقدر الناس على التغرير والخداع ولذلك تهتم الشرطة بالمحاذرة منه وتبث حوله الرقباء »

فلما فرغت سونيا من قراءتها قالت: ومالى لايركول كوستامانيا وأى شأن لى معه وأنا لم أره ولم اسمع باسمه لليوم

أجاب : ولكنك لم تقرئى ثلاث سطور دقيقة فى الحاشية

فعادت الى الورقة وتلت فى حاشية منها :

« آخر مايعرف عن ايركول كوستامانيا انه وفد على باريس منتحلا لنفسه اسم الأمير اورسوكولونا فتوظف فى سفارة ايطاليا وسكن فى شارع لندره فى البيت نمرة ٢٢ »

فما كادت تفرغ حتى تولاها الذهول وأستولت عليها الدهشة ومستها رعدة من الخوف . ولبثت برهة تمعن النظر فى أوليفييه كأنما تتفرس فيه موضع الظنة التى جالت فى صدرها ثم قالت :

حاشا ان تصدق هذى النقائص على الامير أورسو وما أظن كاتب الورقة الاكاذبا او واهماً

فأجاب : انك تخطئين اذا شككت فى الورقة وكاتبها اذ هى رسمية وكاتبها مدير الشرطة . وان كنت تعجبين ان يكون اورسو على غير ماتحبين فكم فى الناس من خبث طويتهم وسر ظاهرهم وكم فى العذارى من تغرهن وتلعب بعقولهن الظواهر

ان تكشف الناس لم تجد أحداً تصح منه غداً سرائره

قالت: يكاد عقلي يختلط وقلبي يتهم عيني واذني في ما تقرآن وتسمعان . اذ كيف يكون ذلك اللص الافاق هو بعينه هذا الذي ارتضيناه فيناصاحباً وعشيراً

اجاب: بل قولي انكم ارتضيتموه خطيباً ولعمري ان ثلاثمائة الف فرنك مهراً لصيد جميل لرجل لايعيش الا من السرقة فلست اعجب ان اراه [illegible] ويتحبب اليك ويعمل ليله ونهاره لتشويه سمعتك بين الناس حتى اذا [illegible] ورضاه والديك لم يفته اضطرارك وترامبك عليه يوم لايكون الى غير امرانك به مناص . وهاانا قد جئت انقذك واصون شرفك من مخالبه فعسى ان اكون جئت وفي الوقت سعة

فملاها الخجل الشديد و[illegible] الغضب في عينها و[illegible]: تهمني وتقلني سواءاً وانت انت رفيقي من الصغر والعارف [illegible] انا [illegible]

أجاب: أرجوك صفحا عما حاجني فيك من [illegible] ولا زلت احتمل آلاماً تودي لعزم [illegible] الظاهر والحب الشديد [illegible] فانا احبك وأبغض لاجلك ذلك [illegible] الذي استطاع [illegible] ان [illegible] لي جانبك : بل انا اغار منه اذ [illegible] واستهوى [illegible] وفي [illegible] نيران لاتطفأ . فان رأيت [illegible] فما ذلك الاخوف ان تتلى في الغرور حتى [illegible] وان [illegible] الله بغايتي واستا [illegible] النفس ووقعا [illegible] في جوانحي من [illegible]

[illegible]: ولم [illegible]

[illegible] وقد [illegible] الرجل

[illegible]: لقد [illegible]

[illegible]: اذن فاذا [illegible]

[illegible] من الا [illegible]

وبماذا تهمك الظواهر ؟ أليس يكفيك ان تكون وحدك الذى يمكنك ذلك

فهب واضطرب كانما بعث الى حياة جديدة واجاب بربك ياسونيا أتقولين جدا

قالت وهل ترى فى قولى مسحة المزاح

اجاب ولكنى لم ألمح فيك قط عواطف الميل الىّ

قال ذلك لان من القلوب من يساورها الهوى ولكن الحياء غالب عليها .

ومن الفتيات من يسؤها سكوت الذى احبته وتخاذله اعراضاً فتنقم عليه فى نفسها وتندفع مكرهة الى التقرب من غيره لتجزيه اعراضاً باعراض

اجاب كانك اذاً لم تريدى بما فعلت الا ان تذكى فى صدرى نار الغيرة حتى تجذبينى اليك وتدفعينى لان اطلعك على غرامى

فسكتت وازداد بها الاحمرار فعاد الى الكلام قائلا

سونيا . . انى اكاد اجن من الفرح . . أتحبينى كما احبك ؟ أاذا سموت بآمالى الى خطبتك ترضينى وتتركين ذلك الذى ابغضته من اجلك

فاهتزت اهتزاز العصفور بلله القطر وجرت الدموع فى ما قيها ولم تجد فى نفسها قدرة على الكلام فاكتفت بأن رفعت بصرها اليه ومدت يدها ولسان حالها يقول

هذى يدى ووثاق الحب يربطها وذا فؤادى وعضب الشوق يقطعه
وذى دموعى وخوف الهتك يمسحها وذاك « عهدى » وآذن « الله » تسمعه

فتناولها بيمناه وشد عليها ثم ادنى منها شفتيه ولثم بنانها فاسكرته خمرة السرور وجعل يتمايل تمايل النشوان وقال :

يالله ما أسعدنى هذا اليوم وهل أعيش حتى يتحقق عهدك هذا وأراك زوجالى

وما قال ذلك حتى جذبت كفها من كفه فنظر فرأى عن بعد أباها باسكال فرجوس يمشى بين الاشجار والى جانبه الامير اورسو كولونا جميلا مهيب النظر قويماً رشيقاً انيقاً فأحس بالنار نار الحقد والغيرة تتأجج فى ضلوعه وقال :

لعلى لا أرى هذا الرجل هنا بعد اليوم

فاجابت همساً : لن تراه . . . بحق الهوى لن تراه

الفصل الثاني

جريمة في بيت فرجوس

برّت سونيا بوعدها لاوليفييه فأخبرت أباها بكل ماعلمته عن الامير كولونا وطلبت اليه ان يبعده ويحظر عليه الدخول الى البيت ثم كاشفته بميلها الى أوليفييه والميثاق الذي أخذه عليها فاصغى اليها وأطاعها وطرد الامير كولونا بعد ان قطع كل أمنية له في الزواج وكتب الى امرأته في مونت كارلو يسألها رأيها في زواج سونيا بأوليفييه فجاء جوابها بالسرور والرضى وتم للحبيبين مايشتهيان هوى متبادل وقران مرضى منتظر

وحدث ان الحكومة الفرنساوية اهدت الى باسكال فرجوس في تلك الاثناء نيشان شرف جزاء أعماله ومكتشفاته العلمية فرأت سونيا ان تحتفل بأبيها احتفالا يليق بقدره وقدر النيشان المهدى اليه ورأى هو أن يكون ذلك الاحتفال لقدوم أمها وأخيها الصغير بوريس من مونت كارلو وان تنتهز فرصته لتكذيب ما أشيع من قبل عن خطبة الامير كولونا ولاعلان خطبتها الى حبيبها اوليفييه . ثم وقع اتفاقهما على الجمع بين هذه الاغراض كلها وجعل الاحتفال مساء اليوم الخامس من شهر أبريل سنة ١٩٠٦ فكتب باسكال الى امرأته يخبرها ويستحثها للقدوم قبل الموعد المضروب واسرعت سونيا فنقلت الخبر الى أوليفييه حتى ينقله الى ابويه ويتأهب معها للحضور

ولكن الاقدار لم تجر بما أراد فعاقت (واندا) أم سونيا عن المجيء اذ مرض ابنها بوريس في الطريق واشتد به المرض حتى التزمت ان تقف في ليون وتمضي

ليلة الاحتفال فى فندق بلكور وان تخاطب زوجها فى ذلك بالتليفون. ثم منعت أوليفييه من شهود الاحتفال لان نبأ برقيا جاء فى ظهر اليوم ذاته ناعيا عمته فى مدينة نانت اضطره الى السفر فى المساء . غير انهما كانا قد بثا الدعوة فى المدينة واستعدا للحفلة الراقصة الفخيمة التى عزما عليها فلم يسعهما ان يعدلا عنها. وهكذا طلع الليل على البيت وهو فى زينة تأخذ بالابصار وتنير ثرياته نجوم السماء فتغار

. . . .

السماء غائصة فى قلب الديجور والبيت غارق فى بحر من النور فكأنها غطاء انكفأ او جفن أطبق أو شيخ متزمل برداء مرخى الاذيال وكأنه لؤلؤة تتوهج أو سنا برق يلمع او كوكب ضل عنه الظلام فاضاءت حوله الشموس والاقمار . . . .

هناك فى قلب هذا البيت تموج الغرف بالجمع المحشود موج البحر الزاخر وقد نابت البراقع عن الوجوه وتنكرت الاجسام تحت أزياء مختلفة الانواع وسالت الخمر حتى ملكت نشوتها الرؤوس فاختلط الحابل بالنابل واطلق العقل من عقاله فذهب كل مذهب من الطيش والخفة والسرور

ثم اخذت آلات الطرب تردد الانغام فثارت كوامن الاشواق واغارت على العقول تثير مااغارت الخمر واكثر فاهتزت قلوب واحترقت جوانح ومالت رؤوس وترنحت أعطاف

ثم بدىء الرقص فازدحمت الاقدام ودارت السواعد واختالت قدود الغيد الحسان وتصاعدت الانفاس وقامت وقعدت الصدور واحمرت الخدود حتى لو انها ازاحت البراقع لما تخيلها الناظر الا باقات من الورد تتنقل لتنشر ازكى وأطيب الروائح

ثم هدأت الجلبة ساعة ليستريح الناس ولكن الخمر والسرور كانا قد فعلا فعلهما فى النفوس وجعلاها لاتشعر بالكلال فلما وقف الرقص وسكتت آلات الطرب اندفعت الجموع الى مماشى البيت فسالوا فى جوانبه وزواياه يتهامسون ويتسارون وهم لكثرتهم يتسابقون ويتزاحمون . ومالبث فريق منهم ان تطوحوا

وهم لايشعرون الى ممشى ضيق قليل النور فتدافعوا فيه تدافع اللج يقذف بعضه بعضاً الى ان قام فى وجههم باب به مفتاح فقال قائل هذه غرفة الاستقبال وأدار المفتاح فما كاد ينفتح الباب حتى هجموا على الغرفة أفواجاً افواجاً فدخلوها وليس فيها من النور الا بصيص ضئيل من أشعة القمر . وكان فيهم الطبيب بيرال فقال :

لقد أخطأنا وهذا هو المعمل

ثم مال الى يمينه وغمز زراً صغيراً فسطعت انوار الكهرباء وأضاءت جوانب المعمل فتراجع الجمع الى الخلف وقد علت الوجوه رهبة وأخذت الابدان رعدة وجمدت النواظر فى الاجفان وامتنع على الالسنة البيان . . . . .

. . . .

ذلك لانهم رأوا جثة بلا روح لرجل منقب بنقاب من الحرير الأسود ملقاة على الارض بين كثير من الاوانى المبعثره والى جانبه فتاة مقنعة غائبة عن الصواب وفى اناملها زجاجة تشد عليها .

اما الرجل فهو الامير اورسوكولونا واما الفتاة فهى سونيا فرجوس

الفصل الثالث

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

لم يدرك اوليفييه ممته فى نانت الا وهى تجود بالنفس الاخير فقضى ليلته لم ينم وما زال يبكيها بالدموع السخينة حتى ووريت فى الصباح التراب فخلفها ورجع يكفكف الدمع ويستمين على الحزن بالصبر وجموع لاتحصى من معارفه ومعارفها يشاركونه فى الضراء ويجملون له العزاء

وفيما هو فى اليوم الثالث موزع الفكر بين الشواغل والاحزان اذا برسالة

برقية جاءته من ابيه يقول فيها :

« عد حالا لشؤون هامة جدت فى بيت فرجوس »

« جان دى لورا »

فأضطرب وشحب لونه وشعر كأن سهما اصمى فؤاده فقام والقلق يساوره الى احد المنتديات العامة وطلب الصحف الباريسية فجىء اليه بصحف المساء والصباح فوقعت عينه على صحيفة الترميدور وفيها هذه الكلمات بحروف كبيرة:

(مقتل الامير كولونا)

فارتاع واقشعر بدنه ونشرها وأخذ يتلو :

(سر فى بيت فرجوس ـ أكتشاف محزن)

(جثة فى مرقص ـ قتل أو انتحار ؟)

« يقوم الآن أهل باريس ويقعدون لحادث محزن تكتنفه الاسرار من كل جانب وقع فى بيت الكيماوى المعروف باسكال فرجوس . وذلك ان حفلة راقصة أعدت فى ذلك البيت امس احتفالا بوسام الشرف الذى اهدته الحكومة قريباً الى الاستاذ فبينما الناس فى سرورهم يرقصون ويطربون اذا ببعضهم اكتشفوا اتفاقا جسدين ممددين فى ارض المعمل الكيماوى احدهما جثة بلا روح وهو الامير الاجنبى الذى وفد على باريس من زمن قليل وعرف فيها باسم اورسو كولونا والثانى سونيا ابنة الاستاذ فرجوس وهى غائبة عن الصواب وفى يدها زجاجة صغيرة فارغة

« وعلى مقربة من الاثنين وجدت اوان كثيرة زجاجية وخشبية مبعثرة ومكسرة دلت على معركة فظيعة نشبت فى المعمل قبل موت الامير »

« ومن حسن حظنا اننا كنا فى تلك الحفلة فأستطعنا ان ندخل المعمل ونرى الجسدين لنكون اول من نشر الخبر الى القراء

« الا اننا وان فهمنا من الاوانى المكسورة المبعثرة ان كفاحا هائلا نشب فى المعمل لم نفهم كيف مات الامير لاننا لم نجد سلاحا ناريا ولا سكينا كما لم نجد

فى جسد الامير جرحا ولا اثراً للاختناق حتى بهتنا ووقفنا نتساءل هل قتل أو انتحر وبأى سلاح قتل ؟

« ثم ان الزجاجة الفارغة التى وجدت فى يد سونيا تشعر بأن هناك قتلا ربما كان بالسم ولكن تكسير الاوانى وضعف الفتاة عن أن تقتل بالسم الامير وهى تعاركه — اذا قلنا انها القاتلة — يشعران بضد ذلك ويميلان بنا الى ترجيح ان القتل كان بالعنف والقوة

« وعلى كل حال فانا ننتظر أن يسفر التحقيق عن وجه الحقيقة ويرشد التشريح الطبى الى سبب الوفاة فينكشف السر الغامض الذى يحيط بهذا الحادث. وليس لنا الآن الا ان نذكر المحققين بالمثل القائل « فتش عن المرأة » ليجعلوه نصب اعينهم سيما وهاهى المراة قد وجدت بجانب القتيل. والناس جميعاً يتناقلون ان الامير كان كثير التودد والميل الى سونيا وانها تقبلت منه ميله بالرضى والارتياح ثم هم يتحدثون بأن فى اخلاقها حدة وقساوة وانها ورثت ذلك من امها وجديها

« ولا بدع فاخصاء استاذنا العالم فرجوس يعلمون ان امرأته روسية الاصل وان جدها كان فى روسيا من زعماء جمعية النهايست فلما ثار مع الثائرين فى الحوادث الاخيرة طلبت رأسه الحكومة حتى فازت بها . واما ابوها فجاء الى هذه البلاد وهو فى ثروة جسيمة ولكنه كان ذا ولع بالميسر فلم يزل منكباً عليه ملازماً لموائده حتى أضاع ثروته كلها فى ليلة من ليالى الشؤم فلم يقم حتى قتل نفسه وهو على مقعده

« هذا ما يعرف عن جدى سونيا الذين يقال انها ورثت عنهم الحدة والقساوة وهو تاريخ محزن تتردد فيه حوادث الثورة والقتل فان صح انها ورثت هذه العواطف فلا شك انها احدى اللواتى قضى عليهن نكد الطالع بالطيش والشقاء فى الحياة

« وهى لم تفق من اغمائها الى ساعة تحرير هذه السطور لان حمى شديدة انتابتها . وقد قرر الاطباء أن ليس فى جسدها اثر من آثار العنف والعراك وهو مما يزيد الامر تعقيداً ويجعل سر موت الامير غويصاً لا يجلوه الا صبر المحققين وفطنتهم الشديدة

«أماجثة الامير فنقلت الى المستشفى والناس فى شغف شديد لمعرفة نتيجة التشريح

« وما كاد الخبر يصل الى مسامع النائب العمومى فى هذا الصباح حتى انتدب القاضى جابيل وعهد اليه تحقيق الحادث فانتقل القاضى فى الحال الى بيت الاستاذ فرجوس مصحوباً بمأمور الشرطة ديلامار فشاهد المعمل وسمع شهادة الذين كانوا فى الحفلة وهو الآن ينتظر ان تفيق سونيا من اغمائها حتى يسألها فمساها متى أفاقت ان تفسر لنا مالم نهتد الى فهمه فتظهر الحقيقة بجلاء ووضوح »

« مورتير »

ثم قرأ فى صحيفة البتى جورنال ما يأتى :

« مقتل الامير كولونا »

« وافينا القراء أمس بما عرف الى الآن عن مقتل الامير أورسو كولونا فى بيت استاذ الكيميا والكهرباء باسكال فرجوس . واليوم نوافيهم بان القاضى جابيل الذى انتدب لتحقيق الحادث انتقل امس الى بيت الاستاذ ومعمله ولكن انتقاله لم يجل عن فائدة تذكر »

وقرأ فيها ايضا فى الصحيفة الرابعة تحت عنوان (الاخبار الاخيرة) هذه الكلمات

« خبر محزن »

« ذكرنا فى غير هذا المكان شيئاً عن القاضى جابيل ولقد علمنا والجريدة ماثلة للطبع ان قد أصابته فى هذا الصباح نوبة قلبية توفى على أثرها فحزنا أشد الحزن وأسفنا ان يفقد القضاء ذكاءه وعلمه ونزاهته »

قرأ كل ذلك فجزع أشد الجزع وشعر كأن فؤاده يتمزق ولبث برهة ذاهب العقل غائب الرشد ثم ناب اليه رشده رويداً رويداً فطوى الصحف وأخذ يتدبر الأمر فى نفسه ويتروى فيه ناظراً اليه من جميع وجوهه

رأى بادىء بدء ان يد الموت أراحته من خصمه فى سونيا ذلك الخصم الذى طالما نغص عليه عيشه وألهب جوانحه بنار الحقد والغيرة وأوشك ان يظفر عليه ويأخذها منه لولا عناية من الاقدار فتنفس نفس الراحة كأنما زحزح عن صدره

عبء ثقيل

ثم نظر فى موته ووجود سونيا مغمى عليها بجانبه فلم يردان يصدق ان لها يداً فى موته وحاول ان يعلل وجودها معه بعلة مقبولة فلم ينجح واسودت الدنيافى عينيه . وكانت صحيفة الترميدور لاتزال امامه فنشرها مرة أخرى وعادالىمقالها فقرأه مرتين ورأى بين سطوره مالم يفطن له من قبل اذشعر انالكاتب لا يقف فى تهمة حبيبته سونيا عند حد الظواهر بل هو يشير من طرف خفى الى رميها بالسوء حتى كأنما الحدة والقسوة اللتين ورثتها عن جديها هيجتاها على كولونا ساعة من ساعات التندم فقضت عليه انتقاماً لنفسها وصوناً لكرامتها . فازدرى الصحيفة وكاتب المقال وامتلأ صدره عليهما حقداً وضغينة ووددلو يرى مورتير ذلك البذىء اللسان الفاحش القول ليعلمه بالسيف كيف يصون لسانه عن الحرائر المصونات

وفى الحال تخيلها اذ كانت معه فى حديقة أبيها وكأنها ملك مطهر ينطق محياها بالصون والعفاف ويدرأ لسانها التهمة قائلا : « أتتهمنى وتظن بى سوأ وانت انت رفيق من الصغر والعارف بما أنا عليه » ثم تذكر قولها « وبماذا تهمك الظواهر؟ أليس يكفيك أن تكون وحدك الذى سكنت الى قلبى ؟ » وقولها : « من الفتيات من يسؤها سكوت الذى أحبته وتخاله أعراضاً فتنتقم عليه فى نفسها وتندفع مكرهة الى التقرب من غيره لتجزيه أعراضاً باعراض » فكاد أن يسمع لكلماتها هذه رنيناً فى صدره وسحراً فى قلبه وصح فى اعتقاده انها نقية الجيب طاهرة الذيل أرفع منزلة وادباً من أن تشترى بكرامتها فى سوق الطيش ثمناً قليلا

ولكن لماذا وجدت معه ساعة موته ؟ وماتلك الزجاجة الفارغة التى وجدت فى يدها ؟ وان كان لها يد فى موته فلأى شأن هام رغبت فى قتله؟ واى سر أرادت أن لا يذاع واختارت ان يدفن فى صدره ؟ ؟ ؟ ؟

ثم أين ظنون أوليفييه قبل بضعة أيام ؟ ألم يخالجه فيها الشك وينزع الى الظن والريبة ؟ ألم يكن فى ريبته كغيره من المحيطين بها ؟ ألم يخاطبها فى ذلك ؟ وهل كان ينتظر منها أن لاتدرأ التهمة عن نفسها ؟

ساورته هذه الوساوس فانخلع فؤاده وتلهب صدره ورجفت يداه فلم يستطع صبراً فرمى الصحيفة بعيداً وقام يمشي وهو من الغيظ والحزن لاترى عيناه الا سواداً فى سواد . وما وصل الى البيت حتى وجد رسالة برقية من كاتبه فى باريس ففضها وقرأ فيها :

« انتدبك اليوم النائب العمومى بدلا من القاضى جابيل ألذى توفى أمس لتحقيق قضية كولونا فاقدم حالا »

« كلوت »

فلو ان النار لذعته أو الصاعقة أحرقته ما كان وقعها أشد على نفسه من وقع هذه الرسالة . ومضت عليه برهة أحس فيها بذهول فى عقله فكذب عينيه وتوهم انه أصيب بمس أو ان كاتبه يمزح معه . ولكنه مالبث ان استعاد صوابه وأعاد قراءة الرسالة بهدو وثبات جاش فأدرك الى أين تريد ان تطوح به الاقدار

عجباً وألف مرة عجباً ! ! ! أتكون سونيا حبيبته التى يفديها بروحه وخطيبته التى عاهدته على الزواج ثم تقف أمامه موقف الاتهام ليسألها عن دم مسفوك ؟ وهل يطيق صبراً ان يراها ضعيفة الحجة مضطربة لاتعرف كيف تبرىء نفسها والدموع منهملة على خدها ؟ وعن أى دم يسألها ويحرجها ؟ عن دم عدوه فيها ؟ عن دم لعلها لم تسفكه الا لاجله اذ اعطته ميثاقاً بالحب والزواج ؟ ؟ ؟

نعم هكذا يرادبه وتلك هى الرسالة تتجسم حروفها أمام عينيه وتنطق بما لا مجال للشك فيه

ولكن كلا ثم كلا. انه ليطير فؤاده جذاذاً ولينوء ظهره ويعدم القوة والصبر . ومن فى الناس خلق من الصخر قلبه أو من الثلج دمه أو صيغ من سواد الليل صدره يستطيع ان يتناسى حباً كحبه لسونيا هو الحياة كلها أو ينزع من فكره بغضاً كبغضه لكولونا هو الحقد والعقيقة بأوسع معانيهما . لئن اخطأ النائب فى انتخابه لانه ليس من أبناء باريس ولا يعرف ارتباطه بأسرة فرجوس ولا يعلم شيئاً عن حبه لسونيا فأن القانون وذمته وضميره كلها تحتم عليه ان يرد نفسه عن التحقيق

وفى الرد مخلص له مما تريد أن تدفعه اليه المقادير فسيذهب توآ الى النائب العمومى ويطلب اليه أن يعفيه من المهمة التى أنتخبه لها

لا بل أنه سيفعل أكثر مما ذلك . اذ يحدثه قلبه أن سونيا طاهرة اليد نقية الذيل بريئة من الاثم فمتى رد نفسه أصبح حر اليد واللسان وأستطاع أن يؤدب مورتير ا تهجمه بالبذاءة على حبيبته وأن يعمل ما استطاع لاثبات براءتها واظهار الحقيقة

نعم ان الظواهر تهمها وسوء الظن محيط بها ولكنه هو وحده يثق بطهارتها ويعتقد أن دم القتيل فى غير عنقها وحسبه ان الحب مرشده الى هذا الاعتقاد وما الحب الانور يرسله الرحمن الى القلوب فترى فيه غير ماتراه العيون

الفصل الرابع

« رهان »

نترك أوليفييه تتقاسمه الوساوس فيقيمه حب ويقعده حزن ونعود الى حيث تركنا الطبيب ميرال والجمع الذى معه فى المعمل أمام الجسدين الممددين

قال قائل لقد قتلت سونيا وقتل بجانبها أحد المدعوين . فسرت كلماته سريان البرق وانتشرت كانما حملتها الريح أو كانما القاها قائلها الى كل اذن . وفى الحال هاج الناس وماجوا وازدحموا على باب المعمل تتطاول أعناقهم وتتشوف عيونهم وتتسع آذانهم وقد هالهم الامر وشملهم الرعب وأستولت عليهم الدهشة وجعلوا يتساءلون هل قتلت سونيا ؟ وكيف وقد كانت بيننا من برهة ؟ وبأى سلاح قتلت ؟

وكان الطبيب ميرال يسمع هذا اللغط فقال وما يدريكم انها قتلت وأنتم لاترون هنا سلاحا ولا دما .

فخف اللغط وساد السكون وفى الحال شرع الطبيب يحمل سونيا فحملها يعاونه مورتير محرر صحيفة الترميدور الى مقعد مستطيل من الجلد ثم أزاح القناع

عن وجهها ونزع الثياب عن صدرها فرأى الحياة لاتزال تدب فيها وقلبها ينبض نبضاً خفيفاً

وبينا هو كذلك والناس حوله سكوت ينتظرون كلمته ليستبشروا بحياتها اذا بصارخ يرن صوته ويقول : ابنتى ؟ ابنتى ؟ سونيا ؟

واذا برجل يخترق الزحام والناس كلهم يوسعون له الطريق وينظرون اليه نظرة الحزن مشفوعا بالاحترام وما بلغ الباب حتى بادر اليه ميرال قائلا :

اطمئن ولا تخف فانها لم تصب بسوء ولا خوف على حياتها فاحملها الى سريرها وأنشقها قليلا من الايتير حتى آتى بعد ان افرغ من فحص زميلها

فخف جزعه ومال الى ابنته فحملها بين يديه وسار بها فلم يكد يخرج من الباب حتى كان ميرال قد كشف عن وجه الآخر وقال : ماذا ارى ؟ الامير كولونا !!!

فدنا بعض الذين يعرفونه وتحققوا من وجهه وقالوا نعم هو بعينه .ثم رفعه ميرال الى نفس المقعد الذى رفع اليه سونيا من قبل وشرع يفحصه فنزع عنه ثيابا حريرية كان متنكرا بها وجعل يصغى الى نبض قلبه ويبحث عن تنفسه بمرآة صغيرة يضعها على شفتيه فلما لم يجد فيه أثر للحياة قال بصوت خافت : لقد مات

وما نطق بهاتين الكلمتين الصغيرتين حتى وجمت الوجوه وارتاعت القلوب وهلعت النساء وأوشك بعضهن ان يغمى عليهن . وهكذا انقلب البيت كله فى قليل من الزمن الى حزن عام وخوف شامل بعد ان كان مجلى اللهو ومرسح السرور والانغام ترن فى جوانبه فتطرب الاسماع وتجلى الصدور

وكان اول ماخطر للمجتمعين بعد سماعهم كلمة الموت ان يخرجوا ويتركوا ذلك البيت الذى قتلت فيه نفس فاتجهوا الى الحديقة واخذوا يفرون ولكن الطبيب ميرال منعهم وشدد عليهم ان لا يفارقوا اماكنهم ثم امر الخدم ان يغلقوا الابواب ويقفوا عليها حراساً حتى ياتى مأمور الشرطة .فتذمر المجتمعون وازداد بالنساء الخوف وقالت احداهن للطبيب

كيف نبقى هنا مع القتيل وانت ترى الرعب آخذا منا كل مأخذ

فاجابها يجب ان لا يبارح المكان احد منا لان القاتل ـ ان كان ثمت قتل ـ قد يكون بيننا وبقاؤنا جميعاً يساعد الشرطة على معرفته

وبذلك امتنع على الجميع الخروج فاخذوا يتسللون الى القاعات والماشى زرافات زرافات والنساء يكدن يذبن رعبا وكل فكرهن فى القاتل يرينه فى كل مار بهن او قادم عليهن فترتجف منهن السواعد والاكتاف

واذ ذاك كان الطبيب ميرال قد أغلق على الجثة باب المعمل ووكل الى اثنين ان يقفا عليه ثم ارسل فى طلب مأمور الشرطة وتوجه الى سونيا ليساعدها بعلمه حتى تفيق من اغمائها

وفى بضع ثوان خلت الردهة المؤدية الى المعمل من الناس وسادفيها السكون والسكوت واصبحت يخيم عليها علم الموت ولا يرى فيها الانور ضئيل يتردد خفاقا كما تخفق اجنحة الطائر ساعة النزع اوكما يتردد نفس المحتضر والا ذانك الحارسان اللذان أقامهما ميرال جالسين بجانب الباب

جلس ذانك الحارسان وأحدهما متزى بزى هنرى الثالث ووجهه مقنع بقناع صغير ينبىء عن فتى لا يتجاوز الخامسة والعشرين شديد الذكاء سريع الحركة جم النشاط ذى نظر ينفذ الى بواطن الامور وولع شديد بمباراة رجال الشرطة فى مهنتهم وسبقهم الى اكتشاف الجرائم الغامضة سيما ما كان منها دائرا حول الغرام. ذلك هو مورتير المحرر القضائى لصحيفة التريبدور

واما الثانى فهو رجل فى سن الاربعين اسمه ماكس فيدلين اسرف فى الملاذ والميسر حتى اضاع فى قليل من الزمن ثلاث ثروات ورثها من ثلاث أعمام ولم يبق له الا ميراث عمته فهو ينثره يمينا وشمالا حتى يأتى عليه ويستريح منه

ولا ريب انهما فى ذلك الوقت كانا يفكران فى الجريمة التى ارتكبت فيرى فيدلين انها كغيرها مما يكثر وقوعه فى باريس ويرى مورتير انها حرية بالعناية وان باريس ستقوم لها وتقعد وتذهب فى تأويلها كل مذهب فيتلهب شوقا الى اكتشاف سرها ويظن ان العناية الالهية هى التى قدرت لرئيسه ان يغيب عن المدينة ليتمنى

له أن ينوب عنه ويكون اول من شهد الجريمة ورأى آثارها رأى العين فيهون عليه أن يستجلى غوامضها ويصل الى حقيقتها ليدهش باريس بما ينشره من غوالى الاخبار ودرر الاقوال فى الترميدور

ولم يطل سكوتهما اذ بدأ فيدلين الكلام قائلا :

جئنا لنلهو ونطرب فأنقلب اللهو موتاً والطرب حزناً وخوفاً فلا كانت الليلة ولا كان اللهو

فاجاب مورتير وهل تريد لهواً أكثر من هذا ؟ انى، أرى ليلتنا جامعة بين السرور والفكاهة ولو خيرت ان اشترى مثلها لاعطيت خمسين ديناراً

قال ماعرفتك الا كثير الهزل والهذر

أجاب لانك لاتعرف مهنة الصحافة ولا تستطيع أن تدرك لذة الصحافى اذا وقع على حادث غريب كالذى نشهده الآن وكان من حظه أن يسبق الى نشر اسراره على قرائه

فتبسم فيدلين وقال أراك تذهب فى حب مهنتك الى غير حد حتى لاحسبك اذا عرض لك أمر جاعلا همك ان تحوله الى حادث غريب ولو أضعته لتكون السابق الى نشر اسراره على قرائك

فتبسم مورتير ايضاً واجاب ماظننى فاعلا ذلك ولكنى على كل حال اجد فى تصيد الحوادث الغريبة مايجده صائد الظبى من اللذة فى تتبعه واقتفاء اثره

قال أنك اذن لاتعرف الهموم ولا تشعر بثقل الحياة لان من يجد فى نفسه لذة وشغفاً بكل مايحدث فهو السعيد الذى لايشعر بالهموم

أجاب ربما كنت مصيباً

قال أما انا فلقد بلوت الدهر وعركت الايام وذقت الحلو والمر حتى مللت وسئمت نفسى وأصبحت أجد الحوادث كلها متشابهة لالذة ولا سرور فيها الا المقامرة فانها اللذة الكبرى التى يستحيل أن لاتهتز لها النفوس

قال مهما تكن المقامرة فأين هى من دخولنا الليلة فى المعمل ورؤيتنا فجأة

جسدين مقنعين ممدين على الارض بلا حراك

أجاب ولـكنه منظر يحزن مخيف

قال بل هو مدهش

أجاب انني لاأدهش لمنظر الموت

فتبسم مورتير وقال لعلك تحزن له اذ تفكر فى آخرتك وما أعددت لها

فامتعض فيدلين وأجاب كلا ولكنه يرينى الدنيا زائلة والحياة قصيرة فأجد من العبث والظلم ان امنع عن نفسى ملذاتها

قال دعنا من هذا وقل لى اتعرف الامير كولونا

أجاب اعرفه شبهاً لانى رأيته مراراً فى لونشان وأوتيل وشانتيلى وبالجملة فى جميع الاماكن التى تتردد اليها الموسرون من أهل باريس .

قال وكيف هو

أجاب انه جم الشباب رائق النضارة رشيق القد محكم الهندام لم تطلع عين النساء على أجمل منه فى باريس قال ألم تعرف عنه شيئاً

أجاب كلا وانت هل تعرف عنه شيئاً

قال علمت انه جاء الى باريس قريباً فظهر فيها بمظهر الغنى الوافر والابهة الخلابة وسمعت انه كان يقامر كثيراً ! . .

اجاب صدقت فلقد رأيته غير مرة فى النادى ينثر الذهب نثراً ولـكنه كان موفقاً سعيد الحظ لايكاد يخسر حتى يسترد ماخسره ويكسب

فسأله مورتير ومن أين له ذلك الغنى الوافر الذى ظهر به

قال ومن يدرى

قال مورتير ان فى حياته لسراً غامضا

أجاب فيدلين وأغمض منه سر موته

ثم سكت الاثنان برهة الى ان عاد مورتير الى الـكلام قائلا :

يبين لى ان كولونا كان كثير التردد على هذا البيت ؟

فتبسم فيدلين هازئاً وأجاب واين خبرتك وعلمك باخبار الناس حتى تسألنى هذا
قال وكيف تريد منى ان ألم باسرار قوم لم اعرفهم ولم اختلط باحد منهم فسأله ولما ذا انت هنا اذن
قال لست هنا كصديق بل كصحافى أنوب عن رئيسى لانه غائب
أجاب اما انا فمدعو كصديق
قال اذن فأنت تعرف اسرة فرجوس
أجاب لى بها من المودة صلة وثيقة العرى وليس من سرها الا وأنا مطلع عليه
قال أاذا سألتك أن تكشف لى شيئاً منها تضن به علىّ ؟
أجاب انت ممن لا يرد لهم سؤل فلك ماتشاء على ان لا تشير الىّ فى جريدتك أذا أردت ان تنشر الحديث
قال ولماذا تكره أن اشير اليك
أجاب لانى لا أحب ان أذكر بالخيانة
قال وآية خيانة تراها وانت انما تجود على صحافى قضائى باخبار قد تكون للقضاء خير معوان لاظهار الحقيقة .
آجاب لا تحاول ان تلعب بلبى فان وعدتنى أن تكتم اسمى حدثتك بما تريد والا فدعنى
قال مادمت تأبى الى الكتمان فأنى أعدك به
أجاب اذن فسل ماتريد
قال أريد قبل كل شيء ان أعرف هل كان كولونا مختلطا باسرة فرجوس
أجاب نعم
قال وهل مضت على معرفته مدة طويلة
اجاب مضى شهران تقريباً
قال وكيف عرفهم
اجاب اتفق ان الاستاذ باسكال دعى الى سفارة أيطاليا مع ابنته سونيا فرآها

كولونا وعرفها وانتهز هذا الاخير فرصة غياب واندا امرأة الاستاذ فتحبب الى سونيا واوثق معها روابط المودة

قال وأين هي مدام فرجوس

اجاب ذهبت بأبنها الصغير بوريس منذ خمسة أشهر الى الجنوب لمرض اعترى الولد وقرر الاطباء انه لا يشفيه الا هواء البلاد المعتدلة . أما سونيا فبقيت هنا مع ابيها الذى لم يرض ان يترك ابحاثه العلمية

قال وهل تظنها كانت تهوى كولونا

أجاب كل الذين يعرفونها رأوه اتبع لها من ظلها ورأوها لاتبالى ان تظهر بجانبه اينما يكون حتى لقد ظنوا فيه وفيها الظنون والله أعلم بما تكن به القلوب

قال واين كان ابوها وهي تفعل ذلك

اجاب ان اكرم الناس خلقاً واطيبهم سريرة واكثرهم علما اسلسهم قياداً واسهلهم انخداعا سيما اذا جاءته الخديعة من بنته التى يحبها ويكاد يعبدها وبسكال ذلك الرجل فهو لايريد ابنته الا راضية مسرورة ويكاد يسترخص الدنيا فى سبيل ابتسامة منها

قال فى أى السنين هو من عمره

أجاب فى الخامسة والاربعين

قال أتعرف منشأه

أجاب هو ابن المربى لوربن الذى كان استاذاً فى احدى مدارس الحكومة وقد نشأ فى معاهد العلم فمال الى الكيمياء والكهرباء وبرز فيهما ثم خرج من المدارس فجال فى انحاء أوروبا واكتسب شهرة واسعة ولما كان فى البلاد الروسية عرف واندا دالانوف . وهى فى السابعة عشرة من عمرها فأحبها وتزوجها

قال وماذا تعرف عن واندا

اجاب اعرف انها من اسرة غنية وان جدها كان كثير الاعجاب بالفيلسوف تولستوى فلم يلبث ان كره الحكومة وانضم الى جمعية النهليست وثار مع الثائرين فطاردته الحكومة حتى ظفرت به واعدمته الحياة . ومن ذلك الحين اضطهد ابوها وصودر فى ثروته فاضطر ان يفر وحده الى باريس وكان مولعاً بالميسر فخسر كل مايملكه فى ليلة واحدة وقضى على نفسه بالرصاص

قال انها اذن تزوجت الاستاذ فقيرة

اجاب : بعد ان اضاع ابوها البقية الباقية من ثروة الأجداد لبست ثياب الحزن والبؤس معاً وعانت شقاء كثيراً حتى رآها باسكال واخذ جمالها بمجامع قلبه فتزوجها وهو الى الآن لايحب من الدنيا الا ثلاثة ابحاثه العلمية وامرأته وابنته

قال أتراها أهلا لهذا الاكرام

أجاب:اراها من فضليات النساء بل هى افضل امرأة وقعت عليها عينى وما رأيت فى حياتى حباً واخلاصاً وأمانة كحبها وأمانتها لزوجها ولعمرى انها لتكافئه على صنيعه اذ بادر ومد اليها يده فانتشلها قبل أن تسقط الى الحضيض

قال : ولكنهم يقولون انها تحب اللهو وتكثر من الملاذ

أجاب : صدقت فانها من ذلك الجنس السلافى الميال الى الملاهى ولكنها مهما اكثرت من الحفلات والموائد ومهما شغفت بالتمثيل والغناء والتصوير فانها لاتهمل بيتها ولا تنسى زوجها وابنتها . ولقد عرف لها زوجها هذه الفضيلة فترك لها أن تفعل ماتريد وأصبح الاثنان خير مثال لصفاء العشرة وهناء العيش وكرم الاخلاق

قال سمعت انهما لم يرزقا سوى ولدين

أجاب نعم وهما بوريس وسونيا

قال وكيف ترى اخلاق سونيا

أجاب من الصعب أن تكيف أخلاقها ويخيل لى انها مزيج من شمم الروسيين ورقة الفرنساويين ولا بدع فانها وارثة الجنسين

قال وما هى صفاتها كفتاة

أجاب : انها من أجمل الفتيات وجها وأرقهن قلباً وأشدهن شغفا بالحديث العذب ولكنها سريعة الغضب ومتى غضبت لم تقف عند حد ولم تبال بما تفعل ولقد اتفق لى اكثر من مرة ان رأيتها وحدها على ظهر جوادها فى غابة بولونيا فكنت كلما حييتها ردت تحيتى باحسن منها وجاءت تسوق جوادها بجانب جوادى فاحدثها طويلا وهى مصغية راضية مسرورة تستزيدنى من أحاديث اللهو والفكاهة حتى اذا اطمأنها وطمعت ان ادخل السرور على نفسها فخرجت بالكلام الى غير حده رأيتها نفرت واشمأزت ولكزت جوادها فطارت تحملها الريح وهى تنظر الىّ وتغرق فى الضحك

قال : لكأنى بها يجرى دم القوزاق فى عروقها

أجاب: صدقت ولعل أصلها راجع اليهم

قال : يقولون كذلك انها شديدة الذكاء

أجاب : نعم وهى تحب من العلوم مايحب أبوها وتساعده فى اعماله حتى لا يضطر الى مساعد أجنبى يطلع على أسراره ومكتشفاته

قال : نبهتنى الى مكتشفات الاستاذ باسكال فهل تراها تستحق الشهره التى ذاعت عنها

أجاب : اما علمه وواسع اطلاعه فلا نظير لهما فيه واما مكتشفاته فمنها ماظهر وعلمه الخاص والعام ومنها وهو الاهم ما يحفظه للآن ولا يريد أن يظهره الا اذا سيم فيه ثمنا كثيراً

قال : أتعرف شيئاً عن هذا المكتشف الذى يريد فيه الثمن الكثير

اجاب : اعرف انه اخترع مدفعا كهربائيا وان الحكومة الفرنساوية تساومه فيه فان تم الاتفاق بينهما فلا شك انه يربح بضعة ملايين

قال : كنت أحسبه استاذاً فى الكيميا والكهرباء فاذا هو رياضى ايضاً

أجاب : انه ما اشتغل فى شىء الا وبرز فيه فلقد أراد أن يستخدم الكهرباء فى علم الابعاد فنجح واخترع مدفعه الذى يقال ان واحداً منه يعدل جيشاً برمته وان الامة التى تحتكره تكون ذات ميزة على بقيـة الامم . ومما يوجب المديح والفخر لباسكال انه أراد ان يخص به امته فعرض اختراعه على الحكومة الفرنساوية فلما جربته وارضتها التجربة أخذت تساومه الثمن وهى الى الآن لاتزال تفاوضه

قال : هب انهما لا يتفقان على الثمن وان الحكومة الفرنساوية تعرض عنه فماذا هو فاعل ؟ أتراه يبيعه الى حكومة اخرى

أجاب : لا أظنه يفعل ذلك قط فانى أعلم عن ثقة ان حكومتين أجنبيتين طلبتا أن يبيعهما اختراعه وحكمتاه فى الثمن فأبى لانه يكره أن تنتفع به غير امته

قال : أليس هو مخترع الآلة الكهربائية المعروفة باسم محرك فرجوس

اجاب : نعم وهى آلة تفيد الصناعـة كثيراً بقوتها وسرعتها وقلة نفقاتها وصغر حجمها وفى المعمل انموذج منها

قال : سوف أراها وأنقل صورتها لاكتب عنها

أجاب : ولكن فرجوس لن يسمح لك بذلك وان تستطيع ان تدخل المعمل بغير علمه لانه حريص على المفتاح والباب دائماً مغلق

قال : ولماذا لم يحرص على المفتاح الليلة

أجاب : لست ادرى ولعمرى انى لفى حيرة أتساءل عمـا كان فلا أهتدى الى جواب

قال : ولمـاذا الحيرة والمثل يقول « فتش عن المرأة » وها هى المرأة قد وجدت عند اقدام كولونا

اجاب : أراك تتهم سونيا

قال : لست اتهمها ولكني علمت منك انها غريبة الاطوار وان فى أخلاقها شيئا من الحدة وها نحن نراها مغمى عليها بجانبه أفلا يدل ذلك على ان لها يداً فى الحادث العظيم الذى وقع الليلة

أجاب : صدقت

قال : ومن يدرى فلعلها قد غلب عليها طيش الشباب ودفعها النزق والغرام ولم تجد من يردعها فثلمت شرفها مع كولونا

أجاب : لا أستطيع ان اجيب على شيء كهذا ولكني اعرفها شديدة الصون بعيدة عن الطيش والله أعلم بالسرائر

قال : ألم يكن لها من خاطب أو محب سواه

أجاب : أحبها كثيرون منهم الفيكونت فيرجى والمركيز رينى والغنى الشهير أميل وانزو وجاؤوها خاطبين ولكنها لم ترض بأحد منهم وردتهم خائبين

قال : ألا ترى فى تزاحم جملة من الشبان حول فتاة واحدة هادياً ومرشداً الى ما وقع الليلة للامير كولونا

اجاب : ربما صح ظنك ولكن ان سلمنا به لزمنا ان نسلم بأن كولونا مات قتلا

قال : ألا تسلم بقتله

أجاب : انى اشك فى ذلك كثيراً

قال : وما قولك فى تكسير الاوانى وتمزيق ثياب كولونا ؟ ألا يدل هذا وذاك على معركة وكفاح ؟

اجاب : نعم ولكن لم يوجد سلاح ولا دم ولو كان للمعركة والكفاح دخل فى موته لما خلا جسمه من الجراح والدماء

قال : الا يكون القتل الا بالسلاح والجروح أو لم لا تقول انه قتل بالسم أو بالاختناق او بمادة من المواد الكيمياوية القاتلة والزجاجة التى وجدت فى

يدسمونيا تشير الى شىء كهذا

اجاب : ولم لاتقول ايضا انه انتحر اومات موتا طبيعيا او اصابته سكتة قلبية قضت على حياته

قال : أما الانتحار فلا اصدق ان رجلا واسع الغنى عظيم الابهة محبوبآمن النساء كالامير اورسو كولونا يقدم عليه واما الموت الطبيعى او السكتة القلبية فان تكسير الاوانى وتمزيق ثيابه والزجاجة كلها تشير الى غيرها ولذلك فلا زلت اعتقد وأؤكد انه مات قتيلا

اجاب : وانا اعتقد وأؤكد انه لم يقتل

قال : ستريك الايام انى اصدق منك رأياً وأصح فراسة

اجاب : انى أراهن على صحة اعتقادى فهل تقبل الرهان

قال : وبأى شىء تراهن

اجاب : بعشرة آلاف فرنك مودعة لى فى مصرف الكريدى ليونيه

قال : أتقول جدا ام هزلا

اجاب : انى لاامزح فى رهان قط فان قرر الاطباء انه قتل فانى ادفع لك عشرة آلاف فرنك

قال : وان اثبت التشريح انه انتحر أو مات بعارض طبيعى

اجاب : اذن يكون عليك ان تدفع لى عشرة آلاف فرنك من الميراث الذى آل اليك اخيراً

فحدق مورتير انظاره فيه برهة وقال : دعنى اتروى فى الامر بضع دقائق

اجاب : لك عشر بدل الخمس

ثم سكتا فأخذ مورتير يفكر فى الرهان ويرى ان عشرة آلاف فرنك صيد جميل اذاضمه على ماورثه من عمته اصبحت له ثروة يستطيع ان يعيش بهافى سعة ورغد ولكنه ان خسر الرهان واضطر الى دفعها لم يبق له من الميراث شىء يذكر وعاش فى ضنك وشظف . ولبث برهة على تلك الحال يتردد بين الاقدام والاحجام

الى ان خطر له ان يدخل المعمل مرة اخرى ليرى الجثة وما حولها حتى يستطيع ان يجزم برأيه ويرضى بالرهان فنظر الى فيدلين وهم ان يكلمه فى ذلك لولا ان كلبا نبح فى الحديقة نباحا عاليا فخنق فيدلين وقال :

قاتل الله الكلاب فانى لااكره فى حياتى مثل منظرها ونباحها

فابرقت اسرة مورتير واجاب لاريب انك تستوحش بالنباح فى ساعة كهذه يرفرف فيها طائر الموت ويزيدها الظلام رهبة ورعبا

وما قال ذلك حتى اشتد النباح ودنا فوقف فيدلين مغضبا وقال يجب ان أخفت هذا الصوت المنكر

ثم اسرع الى باب الردهة المطل على الحديقة ففتحه وخرج . وفى الحال انسل مورتير الى المعمل فغاب برهة وعاد الى مكانه يتثاءب ويتناوم فلما عاد فيدلين وجده مستغرقا فى النوم فأيقظه قائلا :

مالك تنام وتغفل عن الحراسة

فافاق وقال معذرة فقد غلبنى التعب

فسأله فيدلين او فكرت فى الرهان

قال كم هو

اجاب: قلت لك انه عشرة آلاف فرنك

قال : الا تعدل عنه

اجاب : كلا وايم الله

قال : فقد رضيت

الفصل الخامس

بين الهوى والضمير

رجع اوليفييه الى باريس فكان ابوه اول من قابله اذاً تنظره على المحطة اتباعا لمشورة أمرأته التى ارادت اليه ان يخفف لوعته ويأسو بحنانه وعطفه جراح قلبه

ولقد كان جان دى لورا يحب ولده حباً جما ويكرم ما يراه فيه من مخائل الذكاء وشمو النفس ومنتهى الاكرام سيما وهو لم يرزق غيره من البنين فكانت كل اماله متجهة الية منحصرة فيه . نشأ من ابوين موسرين طيبى العنصر واشتغل بالمحاماة من صغره فنبغ فيها واشتهر بذلاقة اللسان وقوة العارضة وقول الصدق وبعد النظر ورجاحة العقل ثم انتقل الى القضاء فكان فيه مثالا عديم النظير للعدل وحب الخير واستقامة الضمير والذكاء والنشاط ومواساة الضعيف ونصرة المظلوم فلم تمض عليه سنين قليلة حتى جعل رئيساً لمحكمتى الجنايات والنقض والابرام وبقى فيهما حتى اقعده الكبر أو الضعف فتخلى عن العمل جاعلا قصارى همه انشاء ولده أوليفييه على مثاله

وسهل له النجاح فى مهمته أنه وجد من ابنه تربة خصبة جيدة الغراس فنشأ كانما هو صنع يد أبيه أو صورة منه وبدأ الناس يثقون بحسن مستقبله ويؤملون فيه أعظم الآمال

ولم يكن جان دى لورا يجهل حب ولده لسونيا فرجوس وخطبته اياها فلما علم بالحادث الفظيع الذى وقع لها اغتم وا كتأب وبادر بأستقدامه ثم خف الى لقائه عملا برأى امرأته

رأى أوليفييه اباه الشيخ الذى بيضت رأسه السنون ينتظره فأكبر منه هذه

العناية وأسرع الى مصافحته ثم ركب الاثنان السيارة فأخذا فى الحديث عن العمة المتوفاة فشرح أوليفييه كيف وجدها والعلة التى ماتت بها وكل مافعله بعد دفنها وبعد ذلك انتقل بهما الحديث الى سونيا ومقتل كولونا فقال جان دى لورا :

لقد أسفت واغتممت للحادث المحزن الذى وقع فى بيت فرجوس فهل قرأت الجرائد وعلمت ماهو

أجاب أوليفييه نعم قرأتها وعلمت ان كولونا وجد ميتاً فى المعمل

قال ووجدت معه سونيا مغمى عليها وفى يدها زجاجة فارغة

أجاب علمت ذلك أيضاً

قال لم يكد يذيع الخبر ويصل الى علمى حتى ذهبت اتقصاه بنفسى فقابلت باسكال فرجوس ودخلت المعمل وأردت ان أقابل سونيا فوجدتها لاتزال فاقدة صوابها . ولقد سألت عنها بالتلفون أمس واليوم فقيل لى انها وان كانت مريضة الا ان صحتها تحسنت عن قبل حتى أصبحت يرجى لها الشفاء العاجل

فسأله اوليفييه : وهل سئلت

اجاب : كلا لان جابيل المسكين لم يكد يشرع فى التحقيق حتى جاءه الاجل المحتوم

قال : ألم تأت امها من مونت كارلو

اجاب : أتت منذ يومين

قال : اذن فهى لم تشهد ليلة الحادث

اجاب : انها اضطرت ان تبيت تلك الليلة فى مدينة ليون لمرض طرأ على ولدها الصغير بوريس

قال : وهل سمعت شيئاً عن رأى الطبيب الشرعى فى موت كولونا

اجاب : لم يستطع الطبيب الآن أن يبت برأى جازم ولعله يفعل بعد يوم او اثنين والناس ينتظرون كلمته ليعلموا كيف قتل كولونا وهو لم يجرح ولم تظهر فيه علامات الاختناق او التسمم مع ان الاوانى المبعثرة والزجاجة التى

وجدت فى يد سونيا تشعر بالموت الجنائى . ولا ريب ان كلمته ستجلو احدى النقط الغامضة ولكنها لن تكفى لجلاء الحقيقـة برمتها وسيبقى الحادث مكتنفاً بأسرار كثيرة يعانى فيهـا القاضى الذى ينصبه النائب العمومى بدلا من جابيل تعباً ونصبا

قال : ألا تعرف من هو الذى خلف جابيل

اجاب : ربما اعرفه غداً

قال : ولـكن انا اعرفه

فسأله : من هو ومن أين لك ان تعلم به وأنت فى نافت

فأخرج اوليفييه الرسالة البرقية التى اتته من كاتبه وقدمها الى أبيه قائلا : اتل هذه الرسالة

فتناولها وما كاد يقرأها حتى تملكته الدهشة وقال : ألم يجد النائب سواك خلفاً لجابيل ؟ انه يجهل ولا ريب الصلة التى تربطك بالحادث والا فلو علم انك كنت تريد الزواج بسونيا لما وقع انتخابه عليك

فاستاء اوليفييه لـكلمة أبيـه الاخيرة واجاب : بل قل اننى لا زلت اريد الزواج بها

فغشيت وجه ابيه سـحابة ونظر اليه نظرة عطف وحنو وقال وايم الله انه ليحزننى ان أقف فى وجهك وأمنع عنك غاية تهواها ولـكنك لا تجهل ان سونيا قد ساءت سمعتها بهذا الحادث وتلطخت سـيرتها حتى أصبحت تلوك اسمها الالسنة فليس من الصواب ان تبقى متعلقاً بها وثق بأنك ان فعلت قضيت على والدتك كدراً وغماً

فامتقع لونه وشعر كأن سهماً أدمى فؤاده ومزق احشاءه ولـكنه لم يتزعزع وظل ثابتاً حازما على الجهاد الى النهاية فأجاب دع الناس يا أبت يتقولون ماشاؤا فليس عليهم حسيب ولا رقيب وهم فى ظنونهم ورجومهم أقرب الى الطيش والخطأ منهم الى التثبت والصواب ولننظر نحن فى الأمر بعين صادقة غير شوساء فان صح

شيء مما يرمي الناس به سونيا فنحن وذاك وان لم يصح فما ضرنا لو سعينا حتى رددنا السنة السوء والبذاءة وجهرنا بالحقيقة للعيان

قال : خل يابنيّ عنك هذه الآمال فانها أحلام المحب الذي يجعل من هواه مرشداً لاعتقاده

فبهت أوليفييه وصمت برهة يفكر ويتروى ثم قال : أتراها ياأبت آثمة ؟

فأجاب : كل الظواهر تتهمها وتأخذ بخناقها

قال : بأي اثم تتهمها بزلة القدم أم بسفك الدم

أجاب . انهما لايتنافيان ولعل أحدهما يستتبع الآخر

قال : ماذا تريد بذلك

أجاب : أريد انها لاتبرأ منهما كليهما وانت تعرف الى اى حد واية سرعة مدهشة كانت قد اندفعت مع كولونا مغرورة فيه فليس كبيراً ان تزل قدمها حتى اذا تنبهت بعد ذلك وشعرت بزلتها ثم رأتك تتقدم اليها خاطباً اودت بحياة الذي خدعها لتنتقم منه وتدفن سرها في صدره .

قال: ولكن الا يجوز ان تخطيء هذه الظنون وتكون سونيا بريئه من كل ماتتهمها به الظواهر ؟ أمن البعيد ان تكون سيقت الى حيث جثة كولونا عفواً او مدفوعة بحيلة من خائن مخادع ؟ انى لااعترضك ولا اذهب الى غير مذهبك ولكني ارجو بل اثق انه سيأتي يوم تظهر فيه براءتها وان سيمزق نور الحقيقة سحب الظواهر والاوهام التي تحيط بها فماذا علينا لو انتظرنا ذلك اليوم حتى اذا جاء كان من العدل أن لا يقضى عليّ وعليها بفراق ربما سلب مني ومنها كل نعيم في الحياة

اجاب : صدقت ولكن لا بد لاقناعي واقناع والدتك من دلائل قاطعة

قال : واذا طهرها التحقيق وأثبت براءتها بالادلة القاطعة فهل يبقى لديكما ما تعترضان به امنيتي

اجاب : كلا

قال : اذن فسأتحول عن عزمى

فسأله : وما هو عزمك

قال : ستعلمه بعد قليل

واذ ذاك كانت السيارة قد وقفت بهما امام البيت فدخلاه ولما استقر بهما المقام أراد جان دى لورا ان يعلم من ابنه عزمه الذى وعد ان يخبره به فانتظر حتى اختلى به وسأله :

قل ما هو عزمك الذى تحولت عنه

اجاب : كنت أنوى أن أذهب اليوم الى النائب العمومى أسأله ان ينتدب للتحقيق قاضياً غيرى ولكنى حينما وجدتك تطالب سونيا بالدليل القاطع على طهارتها من الاثم كله لتسمح لى بزواجها عدلت ورأيت ان اكتم عن النائب علاقتى بها لاكون اقرب من سواى الى معرفة الحقيقة فأطلعك عليها يوماً فيوماً. ولست اجهل انى سأتعرض لعمل شاق وتعب جم ولكننى لا أعبأ بالمشاق والمتاعب فى سبيل امنية لا أجد الراحة والهناء الا فيها .

فقطب جان دى لورا حاجبيه وقال : ولكنك لا تستطيع أن تقوم بأعباء التحقيق ويجب ان يقوم بها غيرك

فسأله : ولماذا ؟

قال : لانك مهما تكن من النزاهة وحب الحق لا تقدر ان تنسى ما بينك وبينها فتميل بالرغم عنك اليها وتصبح لا ترى الا بعين الهوى وتعمى الا عن ادلة براءتهـا وفى الامثال السائرة عين الهوى لا تصدق والغرض مرض والحب يعمى ويصم

اجاب : ولكنك تنسى ان موقفى معها وان يكن موقف المحب فهو كذلك موقف الغيور ولقد علمت وتأكدت من قبل انى طالما غرت عليها من كولونا لظنى ان لها به صلة انها يوم كشفت لها صدرى وبحت بما يكنه قلبى من الحب والغيرة صرحت لى انها لا تربطها بكولونا ادنى صلة وتبرأت من كل ما ترميها به ظنون

السوء وعاهدتني على الحب والاخلاص والزواج واقسمت جهد ايمانها ان تطرد غريمي فيها وتجتنبه وها انا الآن اراها مشتبكة مع هذا الغرام في حادث يطبق ذكره انحاء باريس والظواهر تتهمها والسنة الناس والصحف تقضي على سمعتها وسيرتها فما مبلغ غيرتي وظني فيها الخيانة والخديعة ونكث العهد وما مبلغ شغفي بالوقوف على الحقيقة الخالصة في ذلك كله ؟ لئن كانت متهمة في اعين الناس بان لها يداً في موت كولونا فانها متهمة امام عيني في شرفها وفي الكذب علي والتغرير بي واخلاف ما وعدتني به فانا ان سألتها عن دم كولونا فانما أسألها عن خيانتها واحمل عليها مدفوعا بالغيظ فلا تستطيع ان تخدع نظري او ترجعني عنها الا اذا اقنعتني بالحجة الناطقة التي تطفئ نيران الغيرة وترضي الذمة والعدل. وليس اقسى على حبيبة من محبها اذا غار ولا اشد في الحق من قاضي يطلبه لغاية في نفسه

أجاب : انك يا بني، تثق وتعتقد بطهارتها من الاثم كله ثم أنت تريدها بريئة لحبك اياها ورغبتك في الزواج بها فلسوف تدفع بالتحقيق في هذه الطريق وحدها دون ان تشعر او ان تستفزك الغيرة لانك لا تستطيع ان تغار وانت معتقد بطهارتها واخلاصها لك في ما عاهدتك به . وليس اضر على القضاء ولا اذهب لمعنى العدل ولا اضيع الذمة والشرف من قاض يقضي بشعوره وميله ومحقق يشرع في التحقيق وله فيه اعتقاد

قال : انني وان اعتقدت بطهارتها فليس معنى ذلك انني اضرب صفحا عن وجود كولونا في البيت وهي قد اقسمت لي ان لا يدخله ولا عن موته في المعمل لسبب لم ينكشف للان ولا عن وجودها مغمى عليها بجانب جثته وزجاجة فارغة في يدها ولا عن تكسير الاواني وتمزيق ثياب كولونا التي على صدره . هذا كله لا أستطيع ان اتناساه ولا يستطيع قلبي معه ان لا يغار . غير انني أنتظر منها يوم تتكلم ان تثبت براءتها بالحجة الرافعة واعتقادي انها فاعلة فان لم تفعل وعجزت أو قصرت زال ولا شك اعتقادي وهبت في قلبي نار الحقد والغيرة

أجاب : أراك غير شاعر بالعمل الخطير الذي تريد ان تقدم عليه فانت لا تهيب

تحمل اعباء التحقيق والدخول فى غماره لاعتقادك انها سوف تبرىء نفسها وتمزق سحب الظنون التى تكتنفها ولكن ماذا يكون منك اذا خاب هذا الاعتقاد وشرعت تسألها فارتبكت واضطربت وعجزت عن رد الدلائل التى تتهمها ؟ تخيلها أمامك وانت تحمل عليها مرة بعد مرة وهى تزداد ارتباكا واصفراراً وكلما حاججتها تلعثمت وخار عزمها وبكت وظهر الاثم فى عينيها وقل لى ماذا يكون منك انت الذى تحبها وتغار عليها ؟ بل كيف تكون حالك يوم تقضى عليها بيمينك فتلقيها فى غيابة السجن مع الائمة القتلة أو يوم تقذف بها الى مهالك محكمة الجنايات فلا تخرج الا مقضياً عليها بالاعدام؟

انى لاأخشى عليك أحد هذين اليومين فترو وتدبر واعلم بانك ان تلعب بالنار اليوم لاتنج من لذعها غداً

فظهرت أمارات القلق على وجه أوليفييه ولكن أباه استمر فى الكلام قائلا:

لست . أريد ان اقف فى وجهك أو اصدك عن نيتك بل أريد ان انبهك الى العمل الذى انت مقبل عليه لتتبصر فى أو اخره قبل بوادره فان ابيت الا ان تكون المحقق فكن الرجل الحازم الرزين الذى لاتحجبه الاهواء ولا تعبث بضميره الغايات وتناس ماضيك كله مع سونيا فلا تمل معها الحب ولا تحمل عليها الغيرة واجعل الحق نصب عينيك فاطلبه انى وجدته ولا تقعد عن طلبه لرغبة أو رهبة . ان فعلت ذلك فانت انت ابنى وخليفتى ووارث اجدادك الامجاد وان لم تفعل وزغت مع الهوى فانك تجنى على نفسك وتخون واجبك وقد لاتعدم من يشعر بك ويعلم انك تريد ان تطمس وجه الحق فيسد مسدك ويقيمه بدلا عنك فلا تجنى غير التشهير والخسار وتندم يوم لايجدى نفع ولا استغفار

فغشيت وجه اوليفييه سحابة وأخذ يفكر ويتروى وبان فى عينيه ان عاملين قويين يتنازعانه عامل الخوف من خيانة الواجب وعامل الرغبة فى اكتشاف الحقيقة بنفسه فلما لمح أبوه منه ذلك نظر اليه وقال :

تدبر وتمعن جيداً وانظر هل ترى فيك قوة تصادم بها عواطفك وهل تحس

من نفسك ضميراً يقوى على هواك

فأخذته الحماسة ورفع رأسه ولوائح العزم وثبات الجأش ظاهرة على جبينه واجاب :

نعم لي من القوة والضمير الحي ماأصادم به عواطفي فلاحتملن أعباء التحقيق ولتعلمن ان ولدك ارفع نفساً وأعف ذمة من ان يميل مع الهوى او ان يجعل سلطاناً لغير الحق

قال : اتدرى ان هذا ميثاق بيني وبينك

اجاب : خذه علي وخذ كذلك قسما بك وبكل ما اورثتنيه من المعزة والشرف

قال : اذن فافعل ماتشاء وها انا منتظر ان تحقق آمالي التي اودعتها فيك . ولا تظن انه يكفيك لارضائي ان تقنع الناس ببراءتها وتزيل ما يحيط بها من غياهب الظنون . كلا فلست ارضى الا بحجة قاطعة وبراءة ساطعة لا تحتمل شكا ولا جدالا لانني اربأ باسرتي ان تندمج فيها فتاة على غير ما اريد من الشرف وسمو الآداب

اجاب : ان هذه الاسرة التي تذود عنها هي اسرتي ودمي بعض ذلك الدم الحر الذي يجري في عروقك فثق واعتقد انني غير مخلف آمالك في وان قلبي مهما احب فشرفي الذي ورثته غالب عليه ولأن اموت كمداً اولى واهون عندي من ان يشان او ينال بسوء

قال : خذ اذن في عملك ولا تن عن خدمة الحق

ثم قام اليه فطوقه بذراعيه وضمه الى صدره وقبله في جبينه ودمعتان صغيرتان تسيلان بين جفنيه

الفصل السادس

أول التحقيق

بعد ان ترك اوليفييه اباه وذهبت من رأسه سورة الحماس اخذ يفكر فى العمل الذى عزم عليه وما يعترضه فيه من المشاق والموانع فخشى ان يشى واش الى النائب العمومى بما بينه وبين سونيا فيصبح فى مركز حرج وتفوته أمنيته. ولكنه لم يلبث ان اطمأن لعلمه بأن الذين يعرفون حبه وخطبته لها هم اقاربه الاقربون الذين لا يخشى منهم وان المطلعين على ما بين الاسرتين من صلة المعرفة لا يستطيعون ان يذهبوا الى مظنة الوداد المحكم العرى لندرة ما بينهما من التزاور والاجتماع

وحقيقته فأن الاسرتين كانتا قد نشأت بينهما المعرفة فى تروفيل ولكنهما وقفتا عن هذا الحد لان أبوى أوليفييه الطاعنين فى السن كانا يحبان العزلة ولا يروقها ان يظهروا كل ان فى الحفلات التى تقيمها من يوم لآخر اسرة فرجوس. ثم انتقلتا الى باريس فأزدادت واندا وسونيا شغفاً بالابهة واكثرتا فى بيتها من دواعى السرور وتعد ابو اوليفييه عن احكام عرى الصداقة لهذا السبب فظن الناس ان الاسرتين يتجافيان لبعد ما بينهما من الصفات والاخلاق.

اما أوليفييه فقد كان وحده يتردد على بيت فرجوس ولكنه اذ كان على مذهب ابويه من كراهة الحفلات والمجتمعات لم يكن يزوره الا حين يعلم انه خال من الزائرين فلم يستطع أحد من الذين رغبوا فى سونيا وأحبوها ان يشعر به وبما يجول فى صدره كما لم يشعر هو بأحد سوى كولونا الذى لم يكن يفارق البيت ولا يرضى ان يكون لسونيا اقل متابعة من ظلها

ولقد علمنا كيف اهاج كولونا فى قلبه عوامل الغيرة والبغضاء وداخلته فى امره ريبة فسمى حتى عثر على اسمه فى قلم السوابق واتى الى سونيا بمجمل تاريخه

وما ينسب اليه من الاعمال . ثم علمنا ماكان لهذا التاريخ من الوقع على سونيا وما تبعه من تبادل الاثنين عبارات الغرام .

تبادلا عبارات الغرام وصرحت له سونيا انه وحده الذى وصل الى قلبها واعتذرت عن صلتها بكولونا واحتفالها وعنايتها بشأنه قبل شأن أوليفييه بأن سكوته قد ساءها حتى خالته اعراضاً فنقمت عليه واندفعت مكرهة الى غيره لتجزيه اعراضاً باعراض ثم لتذكى فى قلبه نيران الغيرة فتدفعه بالرغم عنه الى الاباحة فهل صدقت فى قولها أو كذبت ؟ هل كانت وهى تقول طفلة ساذجة طاهرة القلب ينطق لسانها بما فى فؤادها او امرأة خبرت الايام وانطوت جوانحها على المكر وبرعت فى اللعب بالقلوب فمثلت احدى روايات الخداع ؟ ؟

انه لخير لاوليفييه ان تكون طفلة من ان تكون امرأة فمن يخبره انها كانت هذه أو تلك ويبين له الحقيقة ولو بعشر سنوات من عمره ؟ نعم ان أمارات الصدق والطهارة كانت تلوح على وجهها وتظهر له واضحة فى عينيها ولكن من يدريه انه لم يكن مخدوعا مغروراً والمحب العاشق فى يد معشوقته كالمسحور كلمة تميته واخرى تحييه ! ثم نعم انها برت بقسمها وأبعدت كولونا عن بيتها ولكن ماباله بعد ان طرد قد عاد ليلة الاحتفال وما بالها وافته الى المعمل حتى شهدت موته وأغمى عليها بجانبها

تلك كانت هواجس أوليفييه يقوم بها ويقعد ويسهر لها الليل يرعى النجوم وترعاه السموم وكانما مضجعه شوك القتاد أو مجامر النار الى ان اصبح ولم يغمض له جفن ولم يذق للكرى طعما . وكان من رأيه ان يأخذ فى عمله بالتؤدة والفطنة والحكمة وان يبدأ فيزور سونيا فى بيتها قبل ان تعلم انه قاضيها فلا تجد فى زيارته لها الا واجباً يقوم به بعد عودته من نانت ولا فى سؤاله عن وجود كولونا ووجودها معه فى المعمل الاحق الحبيب على حبيبته والخطيب على خطيبته فان كانت آثمة تعملت بالكذب والخداع ظهر الكذب على وجهها وان كانت بريئة اندفع لسانها بالحق الصريح شارحا كل ماوقع بلا مواربة ولا مداجاة

وكان مما لا بد له منـه ان يقوم بهذه الزيارة قبل ان يعلم النائب العمومى برجوعه ويبلغه انتـدابه للتحقيق فارتدى ثيابه وخرج والساعة الثامنة يريد بيت فرجوس فلما وصل اليه لمح عن بعد شرطيين يعرفهما ويعرفانه حق المعرفة فعلم انهما يرقبان البيت ووقف برهة يقول فى نفسه :

كيف السبيل الى مغافلتهما ولو أبصرنى أحدهما داخلا لامكن ان يفسد علىّ ما تعبت فى تدبيره الى اليوم

ولـكنه لم يقل ذلك حتى رآهما اجتمعا يتحدثان ومشيا يدوران معاً خلف الحديقة فانتهز هذه الفرصة ومال بقبعته على عينيه ورفع المثنى من ردائه حول عنقه وانطلق انطلاق السهم الى الباب فـلم يكد يدق الجرس حتى فتح فدخل مسرعاً دون ان يراه أحد . والخادم اول من قابله فسأله قائلا :

كيف حال سيدتك سونيا ؟

فاجاب الخادم أنهـا اليوم خير منها امس ولـكنها لا تزال ملازمة سريرها وامها الى جانبها

قال : واين الاستاذ باسكال فرجوس

اجاب : خرج من برهة

قال : اذن فبلغ سيدتك خبر قدومى وسأنتظر فى قاعة الاستقبال

فدخل الخـادم وبقى اوليفييه وحده يرجع به الفكر الى ثلاث ليال مضت فيتخيل نفسـه واقفاً على باب المعمل يرى سونيا وكولونا ممددين والناس من حولهما يروحون ويجيئون يعجبون للخطب المفاجىء ويتساءلون عن سره فلا يعرفون له كنهاً ولا تقع ظنونهم على شىء من حقيقته . تلك الحقيقة التى انتدب لكشفها وما جاء فى هذه الساعة الا لانه ضاق ذرعاً عن الصبر على ما يساوره من القلق فأراد أن يباغت سونيا بزيارته لها كحبيب وخطيب عسى ان تفضى اليـه بسرها وتطلعه على جلية الامر بلا تحفظ ولا مواربة . ثم انتقل به الفكر الى سونيا وهى فى سريرها على خطوات قليلة منه فتمثلها راقدة وقد خلع الجمال

عليها حلة نضرة وكساها التعب ثوب الدلال وهو قائم عند قدميها يضرع اليها ان تخبره الحقيقة ويترقب كلماتها كما يترقب العليل الشفاء

وبينا هو غارق فى افكاره دخلت عليه واندا فى قدسونياواعتدالهاوسحر عينيها وغضارة جمالها وابتسام ثغرها ورشاقتها وابهتها . ولولا ان هذه اكبر سناً وان الصبي اظهر فى تلك لقيل هى هى أو توأمان خلقتا على مثال واحد

تقدمت واندا الى أوليفييه تبسم وتمد يدها بالتحية قائلة :

مرحباً بك وبقدومك أيها الصديق الصادق

فتلقى يدها بيمينه وشد عليها بهدو واحترام وقال :

لقد رجعت الى باريس مساء امس وكان حقاً على ان ازوركم فجئت وعسى ان لاتزعجكم هذه الزيارة

اجابت : انت تعلم ان بيتنا مفتوحة ابوابه لك في كل آن وانك تحل بيننا انى شئت على الرحب والكرامة فثق بانى اشكر لك هذه الزيارة واعدها صداقة ثمينة جئت تقدمها لنا فى خلال هذه الحوادث

قال : لقد طالعت الصحف فى نانت وعلمت منها انسونيالاتزال تعبة منهوكه القوى فعسى ان تكون قد تحسنت صحتها

اجابت :انهااليوم بخير

ثم اذ شعرت انه يريد ان يسأل عن اشياء اخرى اندفعت فى الكلام اندفاع السيل قائلة :

مسكينة سونيا . لقد راعتها الاقدار وهدت من قوتها وانت تعلمها ضعيفة القلب كثيرة الخوف سريعة التأثر . ولو حدث لها ماحدث وانابجانبهالانست بى وزال شيء من خوفها ولكنها شعرت بالوحدة فتمكن الرعب من قلبهاومرضت حتى خيف على حياتها

قال : علمت انك كنت فى مدينة ليون

اجابت : نعم ولقد كان احب شيء الى ان آتى فاشهد الحفلة ولو قدر اللهلى

ان اجىء لوجدت سونيا منى خير معز ولوقيتها شرالحادث المؤلم ولكن ولدى بوريس مرض منى فى الطريق واخذته نوبه شديدة فلم اجد بدا من البقاء به فى ليون وتمضية الليل فى فندق بلكور حتى تزول النوبة

قال : وكيف وصل الحادث الى علمك

اجابت : اخبرنى به زوجى صباحاً بالتلفون فحملت خادمتى اولجا بوريس بعد أن تحفظنا عليه من البرد وجئنا فى أول قطار . وفى الطريق قرأت الجرائد فوجدت بعضاً منها تذهب فى البذاءة الى غير حد وتتهم ابنتى سونيا فلا كان هؤلاء الصحافيون الذين انما يتشدقون بالمثالب ويتفكهون بالاعراض ليبذروا بين الناس بذور الحقد والغيرة والخصام

وحينما قالت ذلك بان الغضب فى وجهها واحمرت عيناها وخيل لاوليفييه أن كلماتها صادرة من فؤاد جريح فقال :

صدقت وأرجو ان تكون سونيا قد منعت عن قراءة هذه الصحف

أجابت : لم يكن لها ان تقرأ وهى محمومة لم تفارق السرير ولم يفارقها الطبيب الا اليوم وسأحرص جهدى لئلا تصل الى يدها هذه الصحف البذيئة الدنيئة ولكن لا أدرى ماذا اصنع لا كتم عنها مايفعله رجال الشرطة والقضاء الذين ينتهكون حرمة بيتنا كل يوم ولا اكتمك الحق فان زملاءك أساؤا الينا كثيراً ولم يراعوا لنا كرامة ففتشوا البيت وسألوا الخدم وعرضوا كثيراً بسونيا دون ان يردعهم أدب او يزدجرهم حزن ابوين ارادت الاقدار لابنتهما ماهى فيه فاقاما حولها الليل والنهار يرعيانها بقلب واجف ونفس لهفة وعين دامعة .

فوقعت كلماتها فى قلبه كالسيف وشعر بالاضطراب والخجل واراد ان يحول مجرى الحديث فقال :

علم الله انى قاسمتكم الهموم وحزنت لسونيا اذ أصابها المرض . ويسرنى انها استطاعت ان تترك سريرها وبودى ان تسمح لى برؤيتها الآن

فظنت واندا انه يريد برؤيتها قضاء واجب الشوق ورأت فيه شاهداً صريحا

على الحب والاخلاص فأبرقت اسرتها وابتسم ثغرها وأرادت ان تكون السابقة الى التصريح بما ظنته يجول فى فهمـه فقالت :

ومن سواك يدخل اليها ويداوى جراح قلبها ؟ انهـا لم تنسك بالرغم مما وقع لها وما زالت منـذ أقامت تذكرك وتحدثنى بشأنك . ومنـذ ساعة كانت تكلمنى عنك وتعجب لطول غيابك فى نانت وتتساءل عن وقع الحادث فى نفسك . ولقد باحت لى بسرها فعلمت انها كانت تحبك من زمن طويل وان الحياء كان يغلبها ويضطرها الى الكتمان حتى فاتحتها انت بحبك فاطلعتك على مكنون قلبها وتعاهدتما على الزواج فلما كتب الىّ باسكال سررت كل السرور ورأيتك اكفأ الناس واحقهم بها ولا غرو فانتما تتعادلان حسباً وثروة وسناً ثم انتما تتبادلان اطهر عواطف الحب فما اسعدكما وما اغبط عيشى اذ أرى ابنتى فى نعيم وراحة وهناء

فازداد اضطراب أوليفييه حتى احمرت وجنتاه ورأى انها تبعد به عن الغاية التى جاء لأجلها فأراد أن يتكلم ولـكنها كانت كالسيل الدافق فمنعته واستمرت تقول:

ولا تسل عن فرحها حينما علمت بمجيئك فهى تنتظرك الآن بشوق وشغف ولعلها ضجرت لحديثنا هذا ورأته طويلا فهيا بنا اليها

ثم مشت فتبعها وبعد قليل كانا بباب حجرة سونيا فرآها اوليفييه ممددة على مقعد طويل شاحبة اللون ناحلة الجسم ساهية الطرف ملفوفة فى رداء من الحرير الخفيف والى جانبها أخوها بوريس يلعب وترعاه مربيته أولجا . وفى الحال اضاء وجهها وتبددت سحب من الحزن كانت متراكمة على جبينها ونهضت متثاقلة ومدت يدها اليه فلم يتمالك أن سحر وبادر فقبل بنانها ثم اجلسها حيث كانت وجلس قريبـاً منهـا وقال :

لو علمت كم جزعت لاجلك !!

فتنهدت وأجابت : ولو علمت انت ايضاً كم أصابنى من الرعب وكم شعرت بحاجتى اليك والى أمى !! ولـكن هاقد جئتما وأصبح الخوف بعيداً عنى

قال : مازلت الى الآن أقلب هذا الحادث فى فـكرى فـلا أقر على قرار

وبودى لو اخبرتني بجليته

فاعترضت واندا قائلة دع الحديث فى هذا فأنها لاتزال ضعيفة وذكره يؤلمها كثيراً وما فاتحها فيه أحد الا وتملكها الخوف وأخذتها الرجفة

فأجابها : انني اهتم كما تهتمين لراحتها ورد السكينة الى قلبها غير انى أراها والحمد لله فى حال تستطيع معها ذكرى الماضى دون أن يمسها أذى فأسمحي لى بسؤالها لان فى قلبى ناراً تتأجج لهذا الحادث . . . .

ثم نظر الى سونيا نظرة حنو وضراعة وقال : هاانت ياسونيا تريني قلقاً مضطربا أنتظر الكلمة التى تقولينها بصبر نافد فأجهدى نفسك قليلا وتذكرى تلك الليلة المشؤومة واخبريني ماذا كان بينك وبين ذلك الرجل . لاتكتميني شيئاً فانت تعلمين مقدار مالك فى قلبى من الحب وتعرفين انى احتملت من قبل آلاماً شديدة فلا يضرنى ان احتمل اليوم آخر الآلام . تذكرى وقولى فانك لاتحدثين الا محباً وخاطباً من حقه وواجبه ان يعلم كل ماوقع ويقع لك من خير او شر . قولى ماذا حدث ؟

فرأته سونيا وهو يقول ذلك تكاد نار الغيرة تضطرم فى عينيه فاعتراها الخجل وارتبكت ودارت نظراتها فى الفضاء وقالت بصوت خافت كانما تسأل نفسها :

ماذا حدث !!!

فقال : وهو يشد على الكلمات ؟ نعم ماذا حدث :

فازداد بها الاضطراب وبان عليها شيء من الذهول وأجابت بصوت متقطع : لم يحدث شيء .. نعم لم يحدث شى قط

قال : هدئي روعك وثبتي جنانك وتذكرى يوم كشفت لك حقيقة كولونا واظهرت لك انه يخدعك ويغرر بك ثم فاتحتك بحبي وفاتحتني بحبك وتعاهدنا معاً على الاخلاص والزواج . تذكرى كذلك انك بعدئذ اقصيتيه براً بقسمك وانك اعددت مع أبيك ليلة راقصة احتفالا بوسام الشرف الذى أهدى اليه وكنا جميعاً على اتفاق ان نعلن خطبتنا فى تلك الليلة ولكن الاقدار حالت بيننا

وبين ذلك اذ أتاني نعي عمّي فاضطررت ان أسافر . وها قد مضت ثلاثة أيام لم أعلم فيها الا ماقرأته في الصحف ...

فأسرعت واندا وغمزته بيدها مشيرة اليه ان يعدل عن ذكر الصحف ولكن سونيا كانت قد تنبهت فرفعت رأسها كانما أصاب قلبها سهم وقالت :

هل نشر الخبر في الصحف ؟

— فأطرق أوليفييه متظاهراً بالندم على الكلمة التي فرطت منه ولم يجب . فقالت : سونيا :

— صدقت فانها لاتغفل خبراً كهذا ولعلها اطالت في وصفه وذهبت في تأويله الى غير مذهب

ثم تأوهت وترقرقت الدموع في عينيها وقالت أية داهية اصابتني وأي خطب نزل بوالدي فجعلنا أحدوثة في الافواه ؟؟

وسكتت برهة تفكر ويداها ترتجفان ثم عادت الى أوليفييه فقالت :

اخبرني ماذا قرأت في الصحف ؟

فاعترضت أمها قائلة خلّ ياسونيا الصحف الآن ولا تعنَ بأمرها وانت في حاجة الى راحتي الفكر والجسم

فاجابت : بصوت جاف : كلا اذ يجب ان أعرف مايقال عني . قل ياصديقي قل كل مانشرته الصحف ولا تخف عني شيئاً

قال أوليفييه : انها لم تفعل سوى ان وصفت الحادث كما شاهده الذين رأوه فذكرت وجود كولونا ميتا في المعمل ووجودك مغمى عليك بجانب جثته

فقالت واندا : استحلفك بالله ان تدع الكلام في هذا

فاجابها : ولم أخفيه عنها وهي ان تعلمه اليوم فستعلمه غداً وخير لنا جميعاً أن تعرف اليوم كل مايقال ويروى لتبدد الظلم الذي تكتنف الحادث وتدرأ عن نفسها التهم ...

ثم التفت الى سونيا واستمر يقول . اسمعي ياسونيا : ان باريس الآن قائمة

قاعدة لهذا الحادث والصحف باسرها تتناوله كل يوم شرحا وتأويلا . ويزيد الأمر خطورة والمركز حرجا ان امرأة اسمها ليونا كاستامانيا ظهرت مع عالم الخفاء وادعت أنها عمة كولونا وشرعت تطالب بدمه وديته فالرأى العام والقضاء اللذين كانا الى اليوم فى انتظار افاقتك وشفائك يطلبان منك ان تتكلمى وترفعى ذلك الحجاب الكثيف الذى يحجب الانظار عن رؤية الحقيقة . انك كنت مع كولونا ووجدت بجانب جثته فانت تعرفين ولاشك سبب موته بل من الناس من يذهبون الى ان لك يداً فى ازهاق روحه وليس لمن يريد الدفاع عنك حجة يستطيع ان يدافع بها فاخرجى من السكوت الى الافصاح قبل أن تطغى الالسنة فيصيبنا منها شر داهم

وما قال ذلك حتى احس بشيء من السرور لوصوله الى الغاية التى يريدها وحدق فى سونيا بانظاره يتفرس فيها ويأخذ عليها كل حركة من حركاتها ويعد الكلمات التى تفوه بها فرآها لاتزال على ماهى عليه من تشرد الفكر والنظر دون أن يطرق الى وهمها انها امام قاضيها الذى سوف يحاسبها على ماتنطق به ثم قالت :

وماذا يراد منى ان اقول ؟ .. ثم مالى وللقضاء والرأى العام ؟ ... لقد قلت لك انى لاأعرف شيئاً ... فانا وانت وكل انسان امام هذا الحادث سواء

فاخذته الدهشة وقال ولكنك تعرفين على الاقل كيف ساقتك الاقدار الى حيث كنت مع الجثة وكيف اغلق عليك الباب

اجابت : نعم اعرف ذلك حق المعرفة .... ولكنه حلم مرعب لم افهمه ولم اكشف له سبباً

قال : قصى علىّ هذا الحلم

أجابت : دونك فاسمع : كان من غمومى فى بدء تلك الليلة اشتداد المرض على أخى بوريس وبقاء والدتى فى ليون ورحيلك الى نانت وفوات الغرض الذى كنت اعلقه على تلك الليلة فشعرت بهم ناصب وداخلنى انقباض وكآبة وكدت ان أسترضى والدى لتأجيل الاحتفال لولا ان مجال الوقت لم يكن يسمح برد

المدعوات . ثم لزمني ان اقابل المدعوين وأقوم على رضاهم وسرورهم طول الليل فتجلدت لذلك وتحملت فوق المستطاع . ولم أرد ان يفطن أحد الى تعبي وانقباض صدري خوف أن تشوب الاحتفال شائبة من الكدر فاجهدت نفسي وحملتها فوق مابها ورقصت مع كثيرين منهم الفيكونت دى فيرجي والغني الشهير داتز وأخيراً طلبني الطبيب ميرال فلبيت طلبه وما كدت اعطيه يدي واندفع معه فى ميدان الرقص حتى شعرت بضيق فى تنفسي وضعف شديد فى قدمي وخيل لي ان عيني لا تبصران وان قلبي يكاد يطير فتركته وخرجت فارة الى الحديقة حيث جلست استريح واستنشق النسيم الخالص بينما ضوضاء الرقص والالحان تصل الى اذني فاشعر بها كما يشعر بالحلم النائم

قال : وماذا كان بعد ذلك ؟

أجابت : كان ان الراحة والنسيم لم يذهبا ما بي من الالم فأردت ان استنشق قليلا من الايتير . واذ كنت أعلم ان فى المعمل زجاجة منه وضعتها بنفسي فى أحد الادراج حين كنت اعاون والدي فى احدى التجارب الكيماوية قبل ذلك بيوم واحد عولت على دخول المعمل فقمت الى حيث اعلم ان والدي يضع المفتاح فتناولته وفتحت الباب فوجدت المعمل قليل الظلمة ينفذ اليه من الشرفة نور ضئيل من القمر المختبيء خلف السحب فاكتفيت بهذا النور وتقدمت محاذرة متعثرة الى الدرج الذي أعلم ان فيه زجاجة الايتير . . .

فقطع عليها الكلام واعترض قائلا : كان أولى لو اضأت الكهرباء وزرها بجانب الباب

فأجابت : صدقت ولكنني خشيت ان يشعر بالنور بعض المدعوين فيدفعهم التطفل وحب الاستطلاع وعلى وجوههم البراقع وفى رؤوسهم نشوة الطرب والخمر الى دخول المعمل فلا يلبثون أن يعلموا ما بي من الضيق والتعب ولا يلبث والدي ان يعلم كذلك فيغتم وتشوب الليلة شائبة هي التي كنت أحاذر جهدي أن تكون

قال : وهل استطعت فى الظلام ان تهتدى الى زجاجة الايتير بين الاوانى الزجاجية العديدة التى تملأ المعمل

أجابت : كنت أعلم ان بجانب الدرج كبريتاً يستعمله والدى فى تجاربه فتجسست بيدى حتى عثرت عليه فأشعلته وعينى فى الدرج حتى أخذت زجاجة الايتير ثم انطفأ فجلست فى الظلام على مقعد قريب منى وجعلت استنشق الايتير واشعر بان الضيق يذهب عنى وان صوابى يعود رويداً رويداً . اخيراً اردت ان اخرج فانتصبت وما كدت انقل قدمى حتى تبددت السحب التى كانت تحجب القمر فسطع النور ونظرت أمامى فاذا أنا بشبح مقنع الوجه ممدد على الارض ويداه على صدره ولا أثر للحركة فيه فجمدت فى مكانى وتملكنى الرعب ووقفت أتساءل من هذا وكيف دخل والباب مقفل . ولا سبيل لأجنبى الى مفتاحه فظننت انه أحد المدعوين افرط فى الشراب حتى سكر وذهب عقله فجعلت أناديه واصرخ فيه فلم يرد ولم يتحرك فتبدل خوفى غضباً وسخطا وجئته أهزه وأدفعه دون ان ارفع قناعه فما لمست يده حتى شعرت بها كالثلج تحت يدى وعلمت انه ميت ففزعت واقشعر بدنى واصطكت اسنانى وجريت الى الباب اريد الفرار فسد فى وجهى ولم يفتح فازداد بى الهلع ولم ادر كيف اغلق الباب وظننت انى لذهولى من شدة الالم اخطأت ورددته بيدى حين دخولى ناسية أن المفتاح لايزال فيه من الخارج او ان الهواء دفعه فأغلقه بغير ان اشعر او ان احداً رآنى داخلة فتعمد حبسى مع الجثة . ولا تسل عما اصابنى وانا واقفة ارتجف كالقصبة فى الريح وذلك الشبح امامى يخيم فوقه علم الموت والقمر يتوارى فيتقلص نوره وينسحب رويداً رويداً حتى ينتشر الظلام فلكم جرت امام عينى الخيالات السوداء تصور لى من الليت آخذاً بتلابيبى ومن الانابيب شياطين تجرى حولى وتطلب روحى فأكاد اسمع لها فى اذنى طنيناً

وعندئذ تملكها الخوف فارتعشت واصفرت وجرى العرق البارد على وجنتيها والقت رأسها على الوسادة وسكتت . فلما رأتها امها كذلك اشفقت عليها وقالت :

بحياتى كفاك ياسونيا . وانت يا اوليفييه الا ترى كيف يضنيها التعب فتشفق عليها قليلا

فاعتدلت سونيا كانما استمدت من ضعفها قوة ومن خوفها ثباتاً او كأنما بعثت فيها روح جديدة وقالت :

كلا فلأذهبن للنهاية . . . . لم اجد لى بعد ذلك مخلصاً من تلك الجحيم الا ان أصرخ على المدعوين عساهم يسمعون صوتى فيأتون لانقاذى فجعلت انادى وأضرب الباب بيدى حتى بح صوتى وفت فى عضدى ووهنت يداى وليس من سميع ولامجيب لان ضوضاء الموسيقى وضجيج الرقص وجلبة السرور كلها تأكل صوتى وتذهب به فلا يصل الى الاذان . فلما استولى اليأس على قلبى ازداد بى الخوف وخلت انى دفنت فى قبر لاسبيل منه الى عالم الحياة . ومازلت تروح وتجيء بى الافكار المخيفة والضعف يأخذ منى شيئاً فشيئاً واعصابى تشتد و تتصلب حتى سقطت لاأعى وفقدت الصواب . . . ثم افقت فاذا انا على سريرى بين أيدى والدى والطبيب ميرال . ويبين لى انى اصبت بالحمى فهذيت و بقيت غائبة عن الرشد يومين كاملين . هذا هو كل ماعرف فان سألتنى ماعداه فانى لست ادرى . . . . نعم لست ادرى . .

ثم القت رأسها على الوسادة وهى من التعب والاجهاد تكاد يغمى عليها فبادرت امها تضع حولها الوسائد وتنشقها المنبهات حتى استعادت قوتها وصوابها . اما أوليفييه فبقى جامدا ينظر فى القصه التى سمعها فتأخذه الحيرة و يراها لاتكشف عن شيء من دخول كولونا الى المعمل وموته فيه والآثار التى وجدت بل تزيد الامر ابهاما وغموضاً فلا يعلم هل صدقت فى قولها او نطقت بالحق أولفقت وكذبت لتغرر به الى النهاية . ثم رأى ان يستزيدها بياناً فانتظر حتى فارقها التعب وقال :

لكأنى انظر اليك وأنت تعالجين الباب وتستغيثين والرعب حال بك فينالنى من الحزن أمره ومن الكدر أشده . ولكن اخبرينى كيف تؤولين هذا الحادث وماذا قام فى ظنك حين رأيت الجثة ؟ هل عرفت رغما عن القناع وثياب التنكر

انهـا جثة كولونا ؟

فأجابت : بغير تردد : نعم عرفت انها جثته ولو لم أكشف القناع

قال : ومن أدراك بذلك

فأجابتة : واندا أراك تمعن فى الدقة والتشديد : على انك تعلم ان كولونا يوم طرده باسكال ارغى وازبد وسخط سخطاشديداً ثم خرج وهويتوعد بكلمات ايطالية لم يفهمها أحد . فهى لم تنس بعد هذا التوعد ولم يبرح من ذهنها فلمـا رأت الشبح ذكرته وظنت فى طرح جثته فى المعمل معنى من معانى توعده وانتقامه

وقالت: سونيا نعم وهذاهو الذى جعلنى فى غنى عن التحقق من وجهه فقال أوليفييه لى اليك ياسونيا سؤال آخر أرجو ان لايكون فيه شيء من التشديد كيف تؤولين موت كولونا اتظنينه انتحر ؟

فلم تجب سونيا وأسرعت واندا مجيبة . لاشك ولا جدال فى ذلك فانه لم يكن يطمع الا فى مهرها فأفرغ جهده وواصل الليل بالنهار ليتقرب منها فلـقى من باسكال تأهيلا وترحيباً ومنها اكراماً ورعاية وقرب ان يفوز بأمنيته ويلمس بيديه الاحلام التى تتردد فى صدره فجئت أنت وفضحته وكشفت عن سره وهدمت فى ساعة مابناه فى شهور فطرد أشنع طرد وافلتت من يده القنيصة التى كان يعلق عليها آمالا كباراً وحياة رغيدة . ومن يدرى فلعله كان غارقاً فى بحر من الدين وكان دائنوه ممسكين بخناقه وهو ينتظر المهر ليفرج الـكرب عن نفسه فلما وجد قد ضاع ضاع معه صبره ورأى الحياة نـكداً وشقاء فخرج منها بالانتحار

قال : وماذا أراد بتنكره وانتحاره هنا ليلة الاحتفال ؟

أجابت : واندا أراد بلا ريب ان ينتقم لنفسه جزاء خيبته وضياع آماله ليرى الناس جثته هنا فلا تتجه انظارهم ولا تأخذ السنتهم سوى سونيا التى يعلمون انها كانت توشك ان تخطب اليه . ولـكن ساء فأله وطاش سهمه فانها ارفع واسمى من ان تنال كرامتها بالسوء لحقير دنيء مثله

قال ان صح ذلك فهو من اغرب ماسمعت

أجابت وهل على ايطالى غريب

فى هنا بدا الريب يداخل أوليفييه فى سكوت سونيا وتعرض واندا للاجابة كانما هذه تشعر أو تعلم بخطأ ابنتها وتحاول ان تدرأ عنها الظنون بما اعطيت من الذكاء والمهارة وطلاقة اللسان فأراد ان يزيد من الاعتراض ليرى ماذا يكون فقال :

وما تلك الزجاجة التى كانت سونيا تشد عليها فى يدها ؟

فاجابت سونيا تلك زجاجة الايتير بقيت فى يدى لانى كنت اريد الخروج بها

فنظر اليهما كليهما وقال انى وان صدقت ماتقولان ولكنى اذهب الى غير رأيكما فى موت كولونا

فسألته واندا اتشك فى انتحاره

فأجابها نعم كل الشك

فحدجته بانظارها وقالت لأى سبب

أجاب لانى اذا ضربت صفحاً عن تكسير الاوانى وتمزيق ثيابه لا أصدق ان شخصاً مثله لم يعرف فى حياته غير الميسر والسرقة والنصب وعاش عيشة الادنياء السفلة يرزقه من الحب والشجاعة وقوة الارادة والأنفة والاباء ما يدفعه الى الانتحار

قالت ان لم يكن للحب دخل فى موته فلا شك انه انتحر يأساً اذ رأى افلات مهر سونيا بعد ان ظنه فى يده ولا شيء احب للنفوس الوضيعة من صيد المال ولا اقتل لها من اليأس بعد الرجاء

أجاب بل ان النفوس الوضيعة لاتعرف اليأس ورجل كهذا كابد الشقاء وعرف الحلو والمر اصبح مثله فى الحياة كمثل الصائد يرمى شباكا ذات اليمين وأخرى ذات الشمال فان لم تصب هذه أصابت تلك وان لم تصب الاثنتان ومضى يومه لم يصد عاد فى اليوم الثانى . فهو قد ألف الفشل حتى اصبح لا يعبأ به لانه لايفشل فى غنيمة الا لينجح فى أخرى . ومن تكون هذه حياته لايعرف يأسا

وان عرفه لم يذهب فيه الى حد الانتحار

قالت وما ظنك اذن ؟ وكيف تؤول موته ؟

أجاب لست أدري وليس لى أن أؤول بل على سونيا ان تقنع الناس

فقالت سونيا وباى شيء أقنعهم أأقول غير الحق ؟

فرفع بصره اليها وأجاب كلا ولكنهم سينظرون فى أقوالك فيرونها لاتشفى عليلا ولا تكشف عن سر الجريمة . وتالله لوددت ان اشترى هذا السر بنصف حياتى لتكف الافواه والصحف عن أن تعرض بكرامتك وشرفك

فهبت سونيا من مرقدها فزعة كانما لسعتها افعى او لدعتها نار وقالت كرامتى وشرفى !! وهل أنا متهمة فى كرامتى وشرفى ؟؟

فاحمرت عينا واندا من الغضب وأشارت لاوليفييه أن يترك هذا الحديث فأطاعها وأطرق برأسه فى الارض مظهرا الندم وهو فى الحقيقة قد سره أن يستفز سونيا ويثير عواطفها ليدفعها الى قول الحق . وماكان اطراقه بمجد نفعا بعد ان رمى السهم ادمى به كبدها فلما لم يجبها عادت تسأله بالحاح والحاف تقول :

مالى أراك انت ووالدتى تحاولان ان تحجبا عينى وتكتما عنى الحقيقة ؟ واية فائدة فى كتمها اليوم وأنا ولا بد عالمة بها غداً ؟ قل قل من الذى يتهمنى فى كرامتى وشرفى ؟

فاجاب بصوت خافت لم اقل ان أحدا اتهمك

فانتصبت بالرغم عن أمها التى كانت تمنعها وقالت بصوت أجش بل لقد قلت فبحياتى عليك اصدقنى باى اثم يتهمونني ؟

فقالت واندا تالله انك لمجنونة وما اخال الحمى الا قد اذهبت عقلك ورشادك

فلم تلتفت اليها سونيا واستمرت تخاطب اوليفييه قائلة : اتقسم انى غير متهمة

فسكت وكان سكونه افصح من كل عبارة وابلغ من كل جواب . وعندئذ اشتعلت النار فيها واحتدمت من الغضب وقالت :

يالمدناءة !! يالفضيحة !! يالسوء ماطوحتنى اليه المقادير !! اصحيح متهمة ؟؟ بماذا ؟ ومن ذا يتهمنى ؟ وما الذى يقولونه ؟ بالله يااوليفييه ها انت ترى الضجر يكاد يقتلنى وها انا لم اكتمك شيئاً فتكلم ولا تكتمنى شيئاً . فرفع رأسه ناظراً اليها وقال اتريدين ان اتكلم

قالت نعم واستحلفك بكل مغلظة فى الايمان ان لا تحجب عنى طرفا من الحقيقة . فقل من ذا يعرض بى ويتهمنى ؟

اجاب اما وقد اردت الا الحقيقة فاسمعى ... لم تطلع شمس اليوم الذى وقع فيه الحادث حتى تلقفت الصحف الخبر فنشرته وجعلت تذهب فى تأويله مذاهب كلها راجعة اليك وبعيدة عن القصة التى سمعتها الآن منك . وماقرأه الناس حتى جعلت تلوكه الافواه فاتسعت مذاهب التأويل وكثر القال والقيل . ولعثرة الجد ونكد الطالع جاءت الظواهر مؤيدة لظنون السوء فصح فى اعتقاد الذين يؤخذ بقولهم ويهتدى بهديهم انك متهمة وان التبعة كلها تلقى عليك . ومن هؤلاء والدى الذى تعلمين انه مكث يزاول القضاء نصف عمره حتى اصبح ممن يعتمد بنظرهم فى الحوادث فلقد كان بالامس يكلمنى فطوحت به طوائح الظنون الى تهم فظيعة لا اجد فى نفسى لسانا ناطقا ولا بيانا كافيا لأذكرها واصفها

فقالت : بحدة وماهى تلك التهم ؟

أجاب : ان الخجل والحزن يقعدان بى ويعقدان لسانى

قالت : بل يجب أن تقولها

أجاب : أخشى أن أسيء الى نفسى اساءة لاتبرح من قلبك

قالت : وكيف تريد منى أن أدافع عن نفسى وأنت تكتمنى التهم التى تلقى على فتردد قليلا ثم أجاب : عند ماوصلت أمس بدأت تعرف أخبارك من والدى فانبأنى أنه سعى ليراك فلم يستطع وعلم انت مريضة فاكتفى بمقابلة والدك واستمر يسأل عنك حتى أمس . ثم جاء ذكر كولونا وموته فذهب فى التأويل الى الجزم بشيء والظن باشياء فأما الذى جزم به فهو قتل كولونا .

فقطعت واندا عليه الكلام قائلة ومابرهانه على القتل .

اجاب : له على ذلك براهين مادية يأخذ بها كل ذى نظر سليم . منها تكسير الاوانى وتمزيق ما على صدره من الثياب وعدم وجود اثر من آثار الانتحار فى جسمه كجراح أو تسمم أوغيرها ومنها أيضاً على رأيه تلك الزجاجة الفارغة التى وجدت فى يدسونيا . . .

فقالت : سونيا بلهفة وخوف ولكنى اخبرتك انها كانت فى يدى لاستنشق منها الايتير

أجاب : انى اومن بك وأثق بكل ما تقولين اما هو فلست ادرى ان كان يصدقك مثلى او يمنعه من التصديق مانع وأغلب ظنى انه سيلبث فى جانب الشك حتى يأتيه البرهان الكيماوى المقنع اذا تيسر للكيماويين ان يهتدوا الى حقيقة المادة التى كانت فى الزجاجة

فقالت واندا واذا جاءه هذا البرهان من جانب الكيمياء فهل يعدل عن اعتقاده بقتل كولونا

اجاب : كلا لان الزجاجة ليست الا شبهة من شبهاته الاربعة وسقوط واحدة لا يستلزم سقوط الثلاثة

قالت واندا انه ليدهشنى ان يتعلق والدك فى رأيه بشبهات أوهى من العنكبوت اذ ما معنى تكسير الاوانى وتمزيق الثياب وخلو الجثة من الجراح والتسمم وكيف يستطيع منصف غير متعنت ان يستنتج من شبهات كهذى موتا جنائيا . على ان تكسير الاوانى قد يوجد فى القتل كما يوجد فى الانتحار اذ يعرف أبوك كما تعرف انت ان المعمل مزدحم بالانابيب والاوانى الزجاجية وان رجلا غريباً مثل كولونا يدخله فى الظلام لينتحر فيه لاتسلم الاوانى من أقدامه ويديه ان لم يكن وقت دخوله ففى ساعة احتضاره . أما تمزيق الثياب فلا أراه يشعر الا بأن كولونا بعد ان تجرع المادة التى انتحر بها أحس بالم شديد فى صدره فمزق ثيابه فى موضع الألم وهولايعى لنفسه . بقى خلو الجثة من آثار الجراح والتسمم فهذا مما يقال فى الانتحار كما

يقال فى الموت الجنائى سواء بسواء . فانت ترى من كل ذلك ان شبهات أبيك ظنون ورجوم غير صحيحة والذى يؤكد فسادها وفساد مابنى عليها من النتائج انك لو أخذت بها وأردت ان تبحث عن الباعث لسونيا على الايقاع به لم تجد سبباً لانها بعد ان طردته وتفرغ قلبها للخطيب الجديد لم تعد فى حاجة الى التفكر فيه حتى لو لم تطرده لما كان عليها الا ان تعرض عنه . أما لو نبذت شبهات أبيك وأخذت بالرأى القويم وصدقت بأنتحاره فالسبب واضح جلى وهو الذى ناقشتنى فيه من قبل بغير حق

أجاب : أراك تجادليني وتحاولين اقناعى وليس الموضع موضع مجادلة واقناع بل موضع رواية للتهم التى ترمى بها سونيا فى نظر والدى ونظر الذين يرون رأيه فى الحادث . ولو تأنيت ولم تتعجلى لعلمت أن والدى يرى لقتل كولونا باعثاً هو الذى أخشى وأحاذر ان يعلق بسونيا شىء منه ولولاه مارأيتنى استفزها لتذود عن كرامتها وشرفها من شره

فوثبت سونيا وقالت . ماهو ذلك الباعث

أجاب : يرى والدى ان كولونا كان ما كراً خداعاً استطاع ان يغرر بك ويلعب بلبك . . . . .

ثم سكت مرتبكا مضطربا لايعرف ماذا يقول فدلها اضطرابه على مايجول فى نفسه فجزعت احر الجزع وصرخت تقول :

لا تسكت بل قل للنهاية . . . .لقد فهمت . . . انه يرمينى فى عرضى مع ذلك اللص الدنىء ويظن ان خوفى من الفضيحة هو الذى بعثنى على قتله . . . واويلاه وواخجلتاه . . . .

وكانت فى أشد حالات الغضب والدهشة والحزن معاً فأخذتها رعدة شديدة ثم هوت على المقعد تبكى وتنتحب وأمها تبكى معها وتستمين باوليفيه لترفعها الى السرير فما بلغته حتى اغمى عليها

الفصل السابع

« سونيا فى التحقيق »

خرج أوليفيه وقد تشعبته الهموم وتوزعته الفكر ينظر بعين بصيرته فى القصة التى سمعها فيراها كالنسيج الذى خيط ولم تحكم عراه او الجدار على شفا جرف هار تهب عليه الريح فينهار . ثم يعرضها على قلبه فيملك زمام عواطفه ذلك الدمع الذى تساقط من عينى سونيا تساقط حبات اللؤلؤ اذا أنفرطت من العقد ويسد عليه منافذ الريب والاعتراض . وكانت الساعة الحادية عشرة فعول على مقابلة النائب العمومى فركب عربة وسار اليه فلم تمض بضع دقائق حتى دخل عليه فلما رآه النائب قام له محيياً ودعاه للجلوس بجانبه ثم دار بينهما الحديث فقال النائب:

لعلك قد علمت وفاة زميلك جابيل

فاجاب اوليفيه نعم علمتها من كاتبى وأنا فى نانت وعلمت ايضا انك انتدبتنى بدلا عنه لتحقيق قضية كولونا

قال لقد اخترتك لما أعرفه فيك من الكفاءة التامة ويقينى انك خير من يعهد اليه تحقيق قضية كهذه ثار لها الرأى العام واهتمت بها السفارة الايطالية

فسأله اوليفيه وما شأن السفارة الايطالية فى الاهتمام بها

فأجاب النائب ليس لها شأن رسمى ولكن كولونا كان موظفاً فيها فهى تهتم لقتله لهذا السبب ولا يسعنا ان ننكر عليها فعلها ونعاملها بالجفوة خوف ان تشوب العلائق الحسنة التى بين البلادين شائبة . على أنها لا تطلب الا التدقيق فى التحقيق ليظهر القاتل وهو ما يطلبه منا الرأى العام ونطلبه نحن ايضاً

قال اوليفييه ألم يجل تحقيق جابيل عن شىء

اجاب : كلا لانه لم يتسع له الاجل لغير معاينة مكان الجريمة وسؤال بعض الذين

كانوا فى بيت الاستاذ فرجوس

قال : وما الذى يؤخذ من هذا وذاك

أجاب : لا يمكن الجزم بشىء قبل سؤال سونيا التى لم يتمكن جابيل من سماع اقوالها للمرض الشديد الذى اعتراها

قال : وما رأى الطبيب الشرعى فى موت كولونا

أجاب:لم يستطع للآن ان يقطع برأى صريح

قال : وهل كان جابيل يميل الى الظن بانه مات مقتولا او منتحراً

أجاب : لم يخبرنى برأيه فى ذلك ولكن يظهر ان الدلائل كلها تشير الى انه مات قتيلا وان لقتله سراً غامضا فعليك ان تكشف لنا ذلك السر

قال : واين اوراق التحقيق

أجاب : بعد وفاة جابيل أمرت قلم الكتاب باستلامها فاستلمها أمس وهى الآن فيه رهينة أمرك

فوقف أوليفيه وقال اذن فاسمح لى بان اذهب لاستلامها

ثم خرج فقابل كاتبه وأمره ان يأخذ الاوراق ويبقيها عنده حتى يعود بعد الظهر

فلما عاد شرع يطالع الاوراق راجياً ان يجد فيها شيئا جديدا فلم يجد ورأى السطور تكاد تنم بأن جابيل كان يعتقد ان لسونيا يدا فى قتل كولونا وان لقتله سراً غراميا حتى لقد فتش البيت وفحص كل ما عثر عليه من رسائلها عسى أن يهتدى الى أثر لكولونا يشرح سر الجريمة او يشير اليه ولكنه لم يهتد وعاد بخفى حنين . وبعد ذلك امر كاتبه أن يكتب الى الطبيب الشرعى يستعجله رأيه والى سونيا يستقدمها للتحقيق ثم طوى الاوراق وقام

وفى اليوم التالى جاءت سونيا الى دار القضاء ومعها ابوها فادخلا غرفة وجلسا فيها بضع دقائق ثم جاء حاجب يدعوها للتحقيق فقامت واراد ابوها ان يتقدم معها فمنعه الحاجب فسارت وحدها واجتازت ردهة طويلة حتى وصلت الى

باب غرفة فوقفت بالباب برهة الى ان اذن لها بالدخول فما كادت تدخل حتى وقعت عينها على اوليفييه جالسا على كرسى القضاء مطرقا يتشاغل بالنظر فى الاوراق ولا يستطيع أن يرفع بصره اليها . فوقفت جامدة واعترتها رهبة الموقف فخفق قلبها واصفر وجهها وجعلت تجيل انظارها تارة فى اوليفييه وطوراً فى كاتبة كلوت واخرى فى انحاء الغرفة كأنما هى حيرى لاتفهم اين هى ولا ماالذى يراد منها . إخيراً رفع اوليفييه رأسه وهو شديد اضطراب وامرها بالجلوس امامه فجلست ثم اخذ يسألها عن اسمها وعمرها والكاتب يكتب الى ان قال :

انك من غير شك تعرفين الامير كولونا

فاجابت : نعم

قال : كيف كانت معرفتك به

اجابت: عرفته منذ شهرين او ثلاثة اذ كنت مع والدى ذات يوم فى السفارة الايطالية بدعوة منها لحفلة راقصة

قال : وماذا كان منه بعد ذلك

اجابت كان يتردد على والدى فى البيت مظهراً شغفا كبيراً بابحاثه ومكتشفاته العلمية فاتخذناه صديقا ثم علمنا انه غير اهل لصداقتنا فطرده والدى منذ بضع عشرة يوماً وحرم عليه الدخول الى البيت

فشعر بالاضطراب وخشى ان يطيل معها فى هذا الموضوع فيجرى لسانها باسم الذى كشف لها عن حقيقة كولونا فقال :

الم تنظريه بعد ان طرد

أجابت: كلا

قال : الم يكن بين المدعوين ليلة الاحتفال

أجابت: لم انظره وما كنت استطيع ان اعرفه لأن المدعوين جميعاً كانوا يخفون وجوههم تحت البراقع

قال : وكيف وجدت بجانب جثته فى المعمل ؟ وما الذى تعرفينه من اسباب

موته ولماذا اغمى عليك : وما تلك الزجاجة الفارغة التى وجدت فى يدك ؟

فقصت عليه القصة التى مرت فى الفصل السابق ثم قالت : اما اسباب وجوده فى المعمل وموته فيه فلست اعرف منها شيئاً

قال : الا تشعرين من نفسك بأن فى الامر بعض الغرابة

اجابت : بلى

قال : وكيف تؤولينه

فعراها الخجل وترددت برهة وأجابت : لعله انتحر اذ يئس من مهرى الذى كان يمنى نفسه به واوشك ان يناله

قال واذا أثبت الطبيب الشرعى انه قتل غيلة فكيف تؤولين قتله

فبان عليها انها لم تكن تنتظر اعتراضاً كهذا وسكتت قليلا ثم قالت وبماذا يثبت الطبيب الشرعى انه قتل غيلة

قال : لم يأتنى تقريره للان وانما اسألك عن تأويلك لقتله متى ثبت انه قتل

اجابت لست ادرى وعليكم ان تبحثوا عن قاتله

قال من من الخدم كان قريبا الى المعمل تلك الليلة

اجابت : لم يكن احد منهم عنده لانهم كانوا جميعاً يخدمون المدعوين فى غرفة الرقص

قال هل فى الخدم من يعرف المكان الذى يضع فيه ابوك مفتاح المعمل

اجابت : كلا

قال هل كان كولونا يعرفه

اجابت : ومن اين له ان يعرفه وهو من اسرار والدى التى لا يطلع عليها احداً

قال اذن لم يكن بين الذين كانوا فى البيت تلك الليلة من يعرف مكان المفتاح سوى اثنين انت ووالدك

اجابت : نعم . قال وقد ثبت ان والدك لم يفارق المدعوين من اول الليل الى الساعة التى وجدت فيها جثة كولونا

اجابت لو سألت المدعوين لشهدوا جميعاً بذلك

قال فمن سواك ارشد كولونا الى المفتاح وادخله فى المعمل ؟ وكيف السبيل الى اتهام غيرك وانت قد وجدت بجانب جثته ؟

فبهتت وسكتت حيرى ثم اجابت

. لست ادرى من الذى ارشـده الى المفتاح ولـكنى اقسم اننى لا علم لى بوجوده وموته الا ما اخبرتك به

قال شهد احد المدعوين ان خادما له كان فى حوالى الساعة الثانية بعد نصف الليل ينتظره فى الحديقة قريباً من المعمل فهل رأيته او شعرت به حين نزولك الى الحديقة او دخولك فى المعمل

اجابت لم ار انسانا قط ولا علم لى بوجود هذا الخادم

وحينئذ رأى اوليفييه ان يؤجـل التحقيق حتى يسأل هذا الخـادم فأمر الـكاتب أن يعيد على سمعها شهادتها ثم امرها بالامضاء فلما امضت قال :

لك الآن ان تذهبى وانما يجب ان تكونى هنا غدا فى الساعة التاسعة

فاحنت رأسها مطيعة وقامت فقابلت والدها الذى كان ينتظرها على نار من القلق احر من الجمر

الفصل الثامن

شهادة تيتار

جيء فى اليوم التالى بتيتار للتحقيق فشرع اوليفييه يسأله قائلا :

شهد مولاك انك كنت فى بيت فرجوس مساء اليوم الخامس من هذا الشهر فهل تذكر تلك الليلة

أجاب : نعم اذكرها كانى أراها امام عينى . وكيف لا وقد ختمت بذلك الحادث المحزن الغريب الذى ملأ ذكره كل انحاء باريس

قال: فى اى مكان من البيت كنت تلك الليلة

اجاب : كنت انتظر سيدى المركيز مع الحوذى فى العربة

قال : واين كانت العربة

اجاب فى الشارع وعلى مقربة من باب البيت

قال الم تدخل الحديقة

اجاب : دخلتها حينما دعيت من سيدى ليبلغنى امره باعداد العربة للرواح

قال وكم كانت الساعة اذ ذاك

اجاب : كانت الثانية بعد نصف الليل

قال : هل مكثت فى الحديقة طويلا

اجاب : لم امكث فيها اول مرة الا بقدر مرورى منها ولكننى حينما عدت من لدن سيدى المركيز بلغت امره للحوذى وبقيت فى الحديقة انتظره فمكثت حتى سمعت خبر الجريمة وعلمت ان اميرا ايطاليا قتل فى المعمل

قال : هل كنت حين انتظارك لسيدك قريبا من المعمل

اجاب . كنت بحيث ارى بابه واشرفه على الحديقة. قال الم تشعر فيه او فى

الحديقة بشيء استرعى نظرك . اجاب بلى رأيت اول مرة وانا اجتاز الحديقة شخصين مقنعين رجلا وامرأة يمشيان الهوينا حتى اذا قربا من التمثال مدت المرأة يدها كانما اخذت شيئاً ثم اتجها الى المعمل ففتحت المرأة الباب ودخلا ..

فنظر اليه أوليفييه باهتمام شديد وقال ثم ماذا

فاجاب تيتار لبثت مايقرب من ربع الساعة حتى استطعت ان اقابل سيدى ويبلغنى امره بالرواح فلما وقفت انتظره فى الحديقة رأيت المرأة نفسها بوجه سافر

قال وماذا فعلت

اجاب : وقفت امام التمثال قليلا ففعلت مافعلته من قبل ثم دخلت المعمل مرة اخرى

قال اتؤكد انك رأيتها دخلت المعمل مع شخص آخر اجاب لاريب عندى فى ذلك

قال وكيف عرفت انها هى بعينها التى رأيتها مرة ثانية بوجه سافر

اجاب عرفتها بثوبها فانها كانت تلبس ثوباً ازرق هو الذى رأيته عليها وهى مقنعة فى المرة الاولى

قال الم ترها خرجت من المعمل بعد دخولها فيه اول مرة

اجاب : كلا

قال: وكيف استطاعت ان تكون فى الحديقة مرة اخرى

اجاب لانها قد خرجت ولابد أثناء غيابى فى مقابلة سيدى

قال الم ترها خرجت بعد دخولها فى المرة الثانية

اجاب : كلا

قال الم يطرق سمعك صوت حركة او نداء فى المعمل

أجاب لم اسمع سوى اصوات الموسيقى التى كانت شديدة غالبة على كل مايحدث فى المعمل من حركة او نداء

قال وما الذى توسمته فى المرأة والرجل حينما رايتهما يدخلان المعمل

اجاب فهمت قبل كل شيء ان المرأة من البيت والا لما وجد المفتاح معها ثم ظننت انهما لا يتركان غرفة الرقص وينفردان فى مكان مظلم بعيد كالمعمل الا ليتبادلا رشقات الغرام فى مأمن من الانظار

قال الم يدفعك هذا الظن الى استطلاع مايفعلان فى الخفاء

اجاب لو انك مثلى تخدم العظماء وارباب اليسار وتعرف اسرار بيوتهم لما رأيت فى ذلك شيئا يستحق استطلاع . فلقد اعتدت ان ارى امثال هذه المناظر حتى اصبحت اعجب ان يمر على يوم لا ارى فيه شيئاً منها

قال : انك من غير شك كنت فى الحديقة حين دخول المدعوين الى المعمل واكتشافهم للجريمة

اجاب : نعم كنت لاازال انتظر المركيز

قال ولقد سمعت انهم وجدوا جسدين ممددين لرجل وامرأة وان الرجل ميت والمرأة مغمي عليها

اجاب : نعم

قال : وفهمت بالطبع انهما اللذان رأيتهما يدخلان خفية

أجاب لم يداخلنى فى ذلك ريب

قال فلماذا لم تتقدم من نفسك للشهادة بذلك أمام المأمور أو أمام القاضى بل بقيت الى اليوم حتى طلبناك بعد ان علمنا من سيدك انك كنت فى الحديقة ؟

أجاب : لانني لم أرجثه الرجل ولا المرأة التى وجدت بجانبه حتى أجزم انهما بعينهما اللذين ابصرتهما داخلين . على انني لو رأيتهما وعرفت انهما اللذان دخلا أمامى فما الذى تفيده شهادتى غير كونهما دخلا ووجودهما معاً فى المعمل مغن عن كل شهادة بهذا المعنى

قال : لقد اخطأ ظنك فان لشهادتك ان صحت شأناً عظيما قد يؤدى الى اكتشاف سر الجريمة فراجع نفسك وحاسب ضميرك واعلم بانك بشهادتك هذه تقضى على أسرة باسرها وان من النذالة والجبن ان تقضى عليها ظلماً وكذبا فان كنت قد

شهدت بغير الحق فمن الشهامة ان تحاسب ذمتك وتقول الحق .

أجاب : لاحق الا ماقلته وتالله لقطع لسانى وبتر ساعدى أهون علىّ من كلمة كذب تخرج من فمى

فقال اوليفييه الى كاتبه واسر اليه بضع كلمات فخرج الكاتب وعاد بعد قليل ومعه سونيا وعلى وجهها نقاب خفيف فنظر اليها أوليفييه وقال :

أرجو ان ترفعى النقاب عن وجهك وتتجهى بنظرك الى هذا الرجل

فتولتها دهشة وقالت : ولم ذلك وأى شأن لى برجل لاأعرفه

قال : ستعلمين أى شأن لك به فأطيعى

فأزاحت النقاب واتجهت الى تيتارفدنا منها وجعل يحدق فيها النظر حتى اعتراها الخجل وغضبت وحينئذ قال : أوليفييه

ماذا رأيت ياتيتار

فأجاب : تيتار رأيت انها هى بعينها التى دخلت أمامى المعمل مرتين

فشعر أوليفييه كان سيفاً يمزق قلبه وذهل عن ان يأذن لسونيا بالجلوس والتفت الى الكاتب وقال : بصوت مضطرب يكاد يتقطع حزناً :

أتل على المتهمة شهادة الشاهد

فشرع كلوت يتلو شهادة تيتار وسونيا مصغية تسمع وكأنها لاتفهم وتنظر وكانها لاترى تقيم وجهها مرة فى تيتار واخرى فى أوليفييه وحيناً فى كلوت وآنا فى ارجاء الغرفة كأنما تبحث عن ضائع مفقود وكلما أعياها البحث ثار ثائرها فزفرت زفرة المتألم المكلوم وما أتى كلوت على آخر الشهادة حتى ساد السكوت وجعل الاربعة يتراشقون بالنظرات كأنهم لايطيقون الكلام فانقضت برهة كانت على أوليفييه وسونيا اطول من الدهر واشد من عذاب الحشر ولا غرو فمن السكوت مايقتل ومن عذاب القلوب ماتهون فى سبيله الارواح . ثم رأى أوليفييه ان يقطع السكوت فقال :

أسمعت ياسونيا شهادة تيتار وعلمت انه يكذبك ويؤكد انه رآك دخلت

المعمل مرتين لا مرة واحدة وانك فى الأولى كنت مع رجل مقنع هو ولا شك كولونا؟

فلم تجبه وخطت خطوة نحو تيتار وقالت : اتقسم انك رأيتنى مع رجل مقنع

فاجاب تيتار نعم اقسم والله على ماأقول شهيد

فازدادت بها الدهشة وقالت : اتق الله وحاسب ضميرك ان كنت ذا ضمير حى فربما قد اخطأ نظرك او طاشت ذاكرتك او تجسم وهمك او لعب الغرور بلبك فقلت ماقلت والله يعلم انك كاذب وانى لم اكن مع الرجل الذى تعنيه . هاانذا أمامك فأقم عينك فى وجهى وانظر الىّ وراجع نفسك وقل الحق ولا تكذب . . . قل أرأيتنى مع ذلك الرجل ؟

أجاب تيتار : لست ممن يعرفون الكذب او تخدعهم انظارهم . وكيف لاأعرفك وقد رأيتك مقنعة ثم سافرة الوجه وكنت منك فى المرتين على قيد رمح فتحققت من وجهك وقامتك وثوبك الازرق

فقال : أوليفييه ومما لايدع سبيلا للشك فى تحققه منك انه رآك فى المرتين اقتربت من التمثال وأخذت مفتاح المعمل من مخبئه وانت قد قلت انه لايعرف هذا المخبأ الا انت وأبوك .

فاستولى عليها شيء من الذهول وقالت : حقاً ان عقلى لايكاد يختلط وان صوابى ليوشك ان يطير فانكر نفسى واتهم سمعى واعتقد ان الحياة كلها كذب فى كذب وزور فى زور . انى اعلم من نفسى مالا تعلم انت ولا هذا الشاهد ولا أحد فى العالم وتالله لقد اصدقتك الخبر ولم اكذبك منه حرفاً . وما لاحد على آخر سلطان فليمعن تيتار فى بهتانه فانى ارفع نفساً من ان ينطق لسانى بغير الصدق ومعاذ الله ان يعلق بى شيء من اكاذيبه

فاحتد اوليفييه واحتدمت عيناه وضرب الاوراق بيده وقال : ولكن هذه الاوراق تنطق بغير ماتقولين

فنظرت اليه سونيا مستشيطة غضباً وقد نسيت أنها أمام قاضيها وقالت : اتكذبنى يا اوليفييه ؟ ؟ اتكذبنى وتصدق هذا الخادم ؟ ؟ ألا يحدثك قلبك انه

مزور عديم الشهامة والمروءة ؟ ؟

فادرك اوليفييه حرج المركز وأراد أن يصرف عنها ثورة الغضب ويردهاالى الرشد حتى يناقشها بعقل وروية فقال : بتؤدة وصوت هادىء :

هبيه كاذبا فكيف علم أن المفتاح يؤخذ من جانب التمثال

فاجابت : عله ولا ريب حينما رآنى آخذته ودخلت المعمل . فلستأنكرانى دخلت ولكنى انكر أشد الانكار انىدخلتمرتين او ان أحداً كانمعى.ولقد كنت سافرة الوجه فاستطاع ان يعرفنى ويتحقق منى وجاء اليوم يلفقماشاء من كذب وبهتان . ولو كنت التى دخلت أول مرة مقنعة وارتكبت وزراً وقتلت نفساً ثم خرجت ولم يشعر بها احد لما طوحت بنفسى ورجعت بوجه سافرآخذ المفتاح وادخل مرة اخرى

فقال : اوليفييه ولم يكذب عليك ويتهمك زوراً

فاجابت : ليقال انه وحده مكتشف السر الذى يقيم ويقعد باريسفيكسب شهرة وفخراً . وهو فى جهله وحمقه لايدرى انه بما يفعل يقضى شرقضاءعلى فتاة مثلى يعلم الله انها بريئة من الاثم ولمنها ان مسها من شهادته اذى فلسوف تقضى شهيدة الظلم وتروح ضحية الافتراء

نهب تيتار قائلا معذرة ايها الملك الكريم فو الله لست بذى ثار فاثأرمنك ولا أنا ممن يطمعون فى فخر وانا ذلك الصعلوك الحقير . واى فخر اطمع فيه وأنا لم آت محمدة ولا نلت مجداً بل اتفق لى اذ رأيت شيئا فشهدت به دونان اعرف انك المعنية او ان منه اذى يصيبك . على انى وربى لو علمتان فى شهادتىقضاء على ملك كريم مثلك مارضيت ان اشهد ولاخترت السكوت حتى لاأوذى هذا الحسن الرائع

فاحمرت وجنتا سونيا خجلا وخيل لها ان صدرها يلتهب ناراً وأوشكت ان تذرف الدمع اذ رأت نفسها أمام صعلوك لم يكن من قبل يستطيع ان يدنو منها فاصبح امامها يتهمها باشنع التهم ويتهجم عليها بأقبح الالفاظ ويدها قاصرة

عن تأديبه ولسانها عاجز عن الجواب . ولم يكن غيظها باقل من غيظ اوليفييه اذ اوجعته كلمات تيتار وحركت فى قلبه نيران الغيرة فكاد ان ينزل به السخط والغضب لولا أن تمالك نفسه خيفة ان يخرج عن الحد فتفوته معرفة الحقيقة . غير انه اذ رأى الدموع تتلألأ فى عيني سونيا لم يرض ان يراها تيتار وهى تبكى فنظر اليه وقال : بصوت جاف :

لم يبق لى بك حاجة فاخرج

وما كاد تيتار يرد الباب حتى توجهت سونيا بعينيها الى اوليفييه والدموع تنهل من مآقيها كالمطر الغزير وقد ذهلت عن موقفها فلم تعد ترى فيه سوى ذلك الحبيب الذى يعبدها ويشترى رضاءها وراحتها بالدنيا وما فيها وقالت : معاتبة بين التنهد والزفير :

هكذا انت يا اوليفييه ؟ ؟ تدع ذلك اللئيم يتهمنى وتسمح للسانه ان ينال من كرامتى بالفاظه البذيئة ثم لا يكفيك اذ تزن بين قولى وقوله حتى تميل معه فترفعه فى كفة الصدق وتقذف بى الى كفة الكذب ! ! فما أشد خجلى وما أمر حزنى . . . .

ثم أخذتها عبرة واشتد هياجها فارتمت على مقعد كان خلفها تبكى وتمسح بمنديلها الدموع فاهتز قلب أوليفييه وهم ان يقوم اليها فيركع امامها متجاوزا عن هفواتها طالباً منها الصفح والمغفرة ولكنه نظر الى كاتبه فخجل ان يراه يفعل ذلك ثم تدبر برهة وقال : فى نفسه :

حقاً اننى لساذج كثير الغرور فلقد اوشكت هذه الفتاة ان تخدعنى وتملك ناصيتى بدموعها حتى كدت انسى نفسى والمركز الذى انا فيه . وهل ملك النساء شيأ كما يصدن بها القلوب او خاتماً يختمن به على البصائر والابصار خيراً من دموعهن تلك التى تسيل فتسيل معها انفس العشاق وتجرى فلا تمسح الا صحيفة الاوزار ؟ ولكن حسبى منها ماخدعتنى وغررت بى الى اليوم اذ الحقيقة الساطعة لا ترد بالزفرات والدموع ولكن بالحجة والبرهان .

ثم اعتدل وقد تذكر كلمات أبيه فغاظه انه كاد ان يميل مع الهوى ويجعل لغير الحق على نفسه سلطانا فتشدد ولم يعد يلتفت الى بكائها او يهتم لتنهدها بل نظر اليها وقال :

كفكفي الدمع وهدئي روعك ولا تغضبي لما لا يوجب الغضب فان تيتار لم يرد بكلماته ان يجرحك او ان ينال من كرامتك بل هو رجل سليم النية يقول الحق كما وقع بغير تحفظ ولا تنميق . وليس من السهل ان يتهم بالكذب لغرض او لغير غرض اذ هو لم يعرفك ولم يرك قبل اليوم ثم هو لا يستطيع ان يدرك المعنى البعيد الذى تؤديه شهادته لانه يجهل اقوالك التى قلتها أمس ولا يعرف منها شيئاً

فوقفت وقد رقأت دمعها وأجابت : حسبك لا تغل فى سوء الظن ولا تمعن فى تهمتى بغير حق . فمن يدريك ان تيتار لم تشتره ليونا كوستامانيا وانت تعلم انها تطلب مائة الف فرنك دية لكولونا وانها ان لم تلصق بى التهمة لم تنل شيئاً ؟؟ من يدريك ان هذه المرأة لم تحتل بكل أنواع الحيل لاضاعتى فى سبيل الوصول الى غايتها واقرب حيلها شهود الكذب والبهتان من امثال تيتار ؟؟

قال واية صلة بين امرأة تاجرة وخادم صعلوك ؟ ثم من ذا الذى نبأها ونبأه انى سأدعوه اليوم ليشهد وانا لم افكر فيه الا امس وقد كتمت امره الا عن المأمور الذى أسررت اليه فى عصارى الامس ان يأتينى به فى هذا الصباح ؟ بل هبى انهما شعرا بطلبى اليوم للشهادة فكيف اتفق له ان يرميك فى شهادته بما جال فى خاطرى منذ اول يوم لولا انه يقول الحق ولولا انى كنت على الصواب فى ماظننت ؟

فارتسمت علائم الجزع على محياها وسألته : بأى شيء رمانى ورميتنى

فقال : بالاثم

فانتفخت اوداجها واحمرت شفتاها وصرخت قائلة : ماذا ؟؟ انت يا اوليفييه ! يطاوعك ضميرك وتجسر ان ترمينى بالاثم !!!

فاجاب بصوت متقطع تخالجه رنات الاسى : نعم ياسونيا ... نعم لم يبق

للشك مجال ... فانت وا أسفاه متهمة آثمة

فقالت : الآن عرفتك وعرفت الى اين يذهب بك سوء الظن بي . ولكني لاارضى بالكلمات المبهمة تلقى على عواهنها بل اريد البيان والصراحة فقل لي بماذا تتهمني وكيف يصح عندك أثمي ؟ ولئن كنت ضعيفة الحول قليلة الحيلة فلتجدن من الله ناصري وكفى بالله ناصراً وكفيلا

فأجاب : ليس من الصعب ان أنوب عنك فأشرح ماوقع كأني أراه وكاني كنت ثالثكما . فلقد جاء كولونا ليلة الاحتفال مختفياً بالقناع وطلب ان يحدثك مهدداً اياك بالفضيحة ان عصيت أمره فلم يسعك الا ان تلبي طلبه فسرت به الى المعمل والقناع على وجهك ووجهه حتى لايعرفكما ولا يرتاب فيكما أحد . ومما لاشك فيه انك كنت اذذاك تخافين ان تشعر عين بانك عدت تصاحبين ذلك الذي ساءت من قبل سمعتك من أجله وطرده أبوك من بيته فاخترت ان تنفردي به في مكان خال مظلم لاتطرقه الاقدام في ليلة رقص ولهو فوجدت المعمل خير كفيل بهذه الغاية فدخلته ودخله معك وفيه احتدم بينكما الجدال واشتد النزاع وحمي الخصام والكفاح حتى تكسرت الاواني ثم غلبته على أمره وظفرت به فقضيت على حياته وقتلته بسلاح لم أعرفه ولم اهتد الى سره ولكن سوف يهتدي اليه الطبيب الشرعي . واذ فرغت منه هالك الامر وافزعك وجود الجثة فخرجت تطلبين الخلاص بينما كان تيتار عند سيده يتلقى منه أوامره فلم يتح له ان يراك . ولكنك قد درت بين المدعوين يميناً وشمالا تريدين عوناً وتطلبين صديقاً تفضين اليه بسرك ليساعدك على اخفاء الجريمة فلم تجدي ولم تستطيعي أن تبوحي بها خوف ان تجلبي على نفسك الهلاك من حيثما تطلبين النجاة . ثم فكرت في الجثة التي في المعمل وتذكرت ان ليس في الناس من يعرف مخبأ المفتاح الا انت وأبوك فشعرت بالتهمة والفضيحة اللاحقتين بك فازداد بك الرعب وخطر لك ان تعودي الى المعمل كي تلقي الجثة من النافذة الى أرض الحديقة ثم تسحبيها في ظلام الليل وغفلة العيون بعيداً عن البيت . فجئت تأخذين المفتاح مرة ثانية وقد أنساك الرعب أن تخفي

القناع فرآك تيتار بعد رجوعه من لدن سيده وسمحت له الانوار المنتشرة فى الحديقة ان يتحقق من وجهك . أما أنت فقد كنت فى حال لاتستطيعين معها أن تشعرى بما حولك فلم تبصريه ولم تعلمى ان عيناً رأتك وعرفتك وراقبت مافعلت من قبل ومن بعد . ولقد دخلت المعمل وانساك شيطان الخوف المفتاح فى الباب فشرعت تجرين الجثة وتسحبينها من ذراعيها حتى تمزق ثوبها تحت الابطين وفوق الصدر ثم فتحت النافذة تتميما لغايتك ولكن الجثة كانت ثقيلة ضاق عن جرها وحملها ذراعاك وكلّ ساعدك فوقفت حيرى تتمثل الجريمة امام عينيك ناطقة بالعار والنار حتى سمعت سيل الاقدام يجرى متجها الى المعمل وعلمت ان المدعوين قادمون وانهم ولا بد واجدوك مع الجثة فطار صوابك وسقطت مغمى عليك أولعلك تصنعت الاغماء لتكفى نفسك مؤنة الشرح والكلام . . . . اليس هذا الذى كان ؟ أتجسرين ان تنكرى الحقيقة وقد وضح صبحها وثبت ان قصة الايتير ليست الامن مخترعات وهمك اردت ان تدرئى بها التهمة فجاءت عوجاء بتراء لايقبلها عقل ولا يسلم بها وجدان

سمعت سونيا كل هذه التهمة باذنين مصغيتين وعينين متسعتين غير باكيتين وقلب يتمزق من الحزن والالم وصدر يقوم ويقعد . فلما فرغ اوليفييه نظرت اليه وقالت :

حقاً لكانك تقرأ لى صحيفة مرسومة فى صدرك سطرها يراع من الاكاذيب والخزعبلات . . .

ثم ارتفع صوتها بغتة وملكتها سورة الغضب وقالت :

ماهذا الذى اسمع وأرى ؟ يأتيك صعلوك لايأنف ان يبيع ذمته بدراهم معدودة فيقص عليك ماشاء من الزور ملبساً اياه لباس الصدق فتأخذ قوله قضية مسلمة وتبنى عليه ماشئت من التهم والآثام ؟ ! ! وماذا لديك من الادلة على صحة زعمك ؟ واي شأن لي بنافذة مفتوحة او ثوب ممزق او اوان مبعثرة ؟ بل اية تهمة تلحق بي [illegible] المفتاح أخذته ودخلت به المعمل [illegible] قل الحق يا اوليفييه أترانى

قد رزقت من الشجاعة ماأقوى به على قتل النفس التى حرم الله أخشى الآن العقاب وانكر متدرعة بالكذب ؟ انك تعرفنى وتعرف اخلاقى فهل تظننى ممن يكذبن مخافة العقاب؟

فاجابها كلا لست تخافين العقاب ولكنك تخافين افتضاح الاسرار التى سبقت القتل وكانت السبب فيه

فقالت : وما هى تلك الاسرار

فاجابت : هى زلة قدمك

فصرخت بملء فمها : زلة قدمى ! ! !

فاجاب : نعم والف مرة نعم فلقد اصاب والدى اذ قال ان كولونا اغواك حتى زلت قدمك معه زلة الطيش والشباب وانك اردت بقتله ان تدفنى سرك فى صدره

فوثبت كالنمر اذا اهيض وارادت ان تتكلم ولكنه لم يدعها تفعل فاستمر يقول:

ليس من السهل ان يصدق عقل ان فتاة مثلك تتقلب فى فراش النعمة تقدم على القتل الا صونا لشرفها وشرف اسرتها

فقالت : تالله ان هذا لكذب صراح . أجل هذا كله كذب واى كذب. يالله دع عنك هذه الوساوس فانك تندفع وتمعن فيها بغير حق .ولئن كانت لا تكلفك سوى بضع كلمات تنطق بها فانها دافعة بى وبأسرتى الى الذل والمهانة وقاضية علينا جميعاً شر قضاء

قال : اذن فكيف تؤولين شهادة تيتار

أجابت : وأى تأويل لها غير التلفيق والتزوير

قال : وما غايته

أجابت : ربما كان مخدوعا

قال : وكيف يخدع الى هذا الحد وهو قد رآك مرتين متواليتين فميز على وجهك البرقع فى الاولى وعرفك سافرة فى الثانية وانت لا تنكرين الاخيرة

أجابت : لست ادرى ولكننى اقسم جاهدة انى لم اكذب ولم أفه بغير الحق

فهز كتفيه استهزاء وأعرض عن الكلام برهة متشاغلا فى ورقة أمامه وجعل يحدث نفسه قائلا :

ماأشد عنادها وما أصبرها على الباطل بعد ان وضح الحق ! ! ! بل ماأعظم خبثها ومكرها اذ تريد أن تغرر بى وتقنعنى بطهارتها حتى لاأعدل عن الزواج بها فتتخذ من ذلك أمام الناس حجة لاتنقض على براءتها من الآثام ! ! ! واية حجة أواى سلاح يصون شرفها المثلوم ويرد عنها الافواه خيرمن الزواج بقاضيها الذى حقق تهمتها وأطلع على خفاياها ورضى عنها واتخذها زوجا ! ! ! ولكن ساء فالها وطاش سهمها فانى لست ذلك الرجل

هكذا اصبح أوليفييه بعد ان لفحته الغيرة بنيرانها يغلو فى اتهامها ولا يصدقها ويرى فى كل حركة أو كلمة تصدر منها كذباً وزوراً وخداعاً وتغريراً وهو هو ذلك الذى كان يتعبد بكلماتها ويكفيه أن يحظى بنظرة منها ليتمثلها ملكا شيمته الطهارة وحليته الصدق وكرم الاخلاق . ولكن هما الغيرة وسوء الظن اذا تملكا صدراً احرقاه وقلبا النور فى العيون ظلاماً . ولا شىء انكى واقتل للحر من ان يرميه نكد الطالع بين يدى من تحكمت فى نفسه ظنون السوء

بعد ان استولى على الاثنين سكوت محزن مؤلم طويل رفع أوليفييه رأسه وهزها ساخراً وقال :

هيا ياسونيا وقولى الحق فان هذا العناد لايجديك نفعاً وخير منه ان تعترفى بشهامة وأقدار

فجعلت تنظر اليه ولم تجب . فلما رآها كذلك حسبها تراود نفسها وتخشى اذا اعترفت أن يفوتها الزواج به فأراد ان يخدعها ويذلل لها السبيل فقال:

لاخالك تجهلين ان اقرار أساسه الشهامة والاباء قد يمحو الوزر ويرفع الاثم ويبدل السخط والغيرة صفحاً وغفراناً . وأن من الناس من يعرفون للشباب حق طيشه وللفتيات ضعف قلوبهن فهم يسحبون ذيول السماح على زلة زلتها فتاة فى ساعة نزق وغرور ثم تابت وعضت عليها بنان الندم. والحياة تكسر وتجبر والمرء

ولا سيما الفتاة قد تسقط فى الهاوية ثم تنتشل نفسها وتحيى بعد الموت . فما فات مات وما هو آت آت ولا فتق الا ويرتق . ومن كانت مثلك جامعة بين الصبى والجمال والمال مغفورة لها الآثام مرجوة فى مقبل الايام . فدعى عنك الانكار واعترفى بالصدق وأعلمى ان رجلا يجيء الى بيتك بعد ان يطرد منه ويتوعدك بالشر والفضيحة فيقوم بينك وبينه كفاح وتضطرين الى قتله دفاعا عن نفسك وشرفك هو الجانى على نفسه ولست مسئولة عن دمه . فلا ترهبى عقابا واعترفى لينحسم الامر وتحفظ الدعوى

أجابت : وكيف اعترف باثم لم ارتكبه ؟ وددت والله انى فعلت ما تقول لاعترف وانجو من هذا العذاب ولكن ان سرك أنت ان يقف التحقيق عند هذا الحد فانى لا يسرنى الا ان تظهر الحقيقة برمتها فامض فى التحقيق الى النهاية ولتعلمن انك مخطىء فى ظنونك وانى ارفع مما تحرضنى على الاعتراف به بغير حق

قال : مادمت تصرين على الانكار وتابين الا المضى فى التحقيق فلنقف اليوم عند هذا الحد لتكون لك سعة من الوقت تتزودين فيها من الشجاعة مايدفع عنك الخوف . فذكرى الليلة وتروى وثقى بان صدور المحققين احفظ الصدور للاسرار ولا تخشى ان مايقال فى هذه الغرفة يذاع للناس او يصل الى معرفته أحد بل ها أنا أقسم لك ان لو اصدقتنى الخبر غداً واعترفت بالحق ماوصلت كلمة تخرج من فمك حتى الى أبويك فامضى الآن الى بيتك وعودى غداً فى الساعة التاسعة

فلم تنبس ببنت شفة وردت النقاب على وجهها وخرجت عالية الرأس شامخة الانف مقطبة الجبين دامية الاجفان

أما هو فقد فرغ من عمله سار الى بيته وكل فكره فى عنادها واصرارها على الانكار وقد رد اباؤها الاخير وعدم اصغائها الى تحريضه اياها على الاعتراف شيئاً من الطمأنينة الى نفسه فأخذ الريب يتسرب الى ذهنه فى كل شيء حتى فى صدق تيتار وجواز ان يكون رآها مرة ثم خدعه النظر فى الثانية وعول على أن لا يرفع هذا الريب من قلبه الا اذا اعترفت بلسانها وأقامت البرهان على صحة اعترافها

الفصل التاسع

« رقيبان »

رجعت سونيا مع ابيها فتبعهما الشرطيان اللذان رأيناهما من قبل يرصدان البيت وهما لافلور وليلورين . فأما الأول فرجل يناهز الخمسين صغيرا الجسم نحيله ليس عليه شيء من الهيبة ولا فى عينيه مايدل على الفكر الثاقب والنظر البعيد وأما الثانى ففتى فى الخامسة والعشرين تبين عليه ملامح القوة والنشاط ولكنه سريع الطيش كثير الغضب

عهد الى هذين الاثنين منذ ظهر الحادث ان يراقبا بيت فرجوس ليل نهار ويقتفيا آثار سونيا أينما تذهب فأقاما بجانب البيت لايغفلان عنه طرفة عين وكتبا على سونيا وهي غافلة كل ماتفعل من حركة أوسكون فلم يجداها أتت امراً مريباً أو طرقت مكاناً تصح فيه شبهة حتى اعياهما البحث وبدأ لافلور يعتريه السأم .

تبعا فى ذلك اليوم سونيا حتى اذا دخلت البيت مع أبيها وقفا على مقربة من الحديقه يتجاذبان أطراف الحديث فقال لافلور :

وأيم الحق لست أدرى لم هذا العناد من مأمور الشرطة وقاضى التحقيق فى مراقبة سونيا ولقد راقبناها واحصينا عليها حركاتها أياما فلم نقف لها على شائبة أو مظنة شبهة

فاجاب ليلورين ومن يدريك انهما غير مصيبين واننا لانعثر على ضالتنا اليوم او غداً

قال لا والله لم يصيبا والسماء اقرب الينا من الضالة التى ننشدها فان من تعلق باذيال المحال حقيق بان يؤوب بالخذلان .

قال وأى محال تراه فى الامر

أجاب هو محاولة اثبات التهمة على سونيا فى حين ان لادليل عليها ولا اثر للريبة فى اعمالها

قال وهل تريد دليلا اكثر من وجودها مع الجثة فى غرفة واحدة

أجاب ليس هذا بدليل بل الدليل الصحيح ان يثبت انها هى التى فتكت به بيدها او حرضت غيرها على قتله . ومن المحال ان يظهر مثل هذا الدليل فحق علينا ان نستريح من العناء

قال ماأراك الا سئمت العمل وفرغ صبرك

اجاب اى وربى

قال وكيف تسأم من تتبع فتاة من اجمل ماخلق الله يتمنى كثيرون من ذوى الالقاب الضخمة الفخمة لو تخطر بينهم أو تمر على بعد منهم فيتمتعون بالنظر اليها ويعجبون بما وهبت من الحسن والرشاقة

فتبسم وأجاب هذا التشبيب ادعه لك ولمن كان فى حداثة سنك . على انى لاأخفيك ياصاح ان نصيبك منها لايمكن ان يقل عنه نصيب المتطلع الى نجوم السماء فهو يراها مضيئة ويتخيلها قريبة ولكن اين الثريا من يد المتناول . فخير لك وأولى ان تنصرف بتشبيبك وغزلك الى صاحبتك مرجريت لانك تجد منها مصغية فرحة تجزيك بالثناء ثناء وبالغزل رضاء وغراما

فاحمر ليلورين خجلا وقال ومن أين جاءك انى اتغزل فى سونيا

أجاب الم تقل انك تتمنى ان تراها تخطر لتتمتع بحسنها

قال كلا بل قلت ان كثيرين غيرنا يتمنون ذلك . على انى لم اقل ماقلت الا لآخذ عليك ضجرك من مهمة عهد اليك القيام بها

اجاب ولماذا لااضجر وهانحن قد راقبناها عدة ايام فما رأيناها خرجت مرة الا وابوها او خادمتها معها ولا ذهبت الا جهاراً نهاراً الى حيث تشترى حاجتها من المخازن الكبيرة ثم تعود

قال كنت اظنك اكثر فطنة واشد تجربة مما تقول. أولا تعلم انها تفعل ماتفعل عمداً مبالغة فى التكتم والاستتار سيما وهى الآن اينما غدت وراحت يشار اليها بالبنان فلا يسعها الا ان تظهر امام الاعين بالصلاح والاستقامة لتدفع عنها مظنة التهمة ...

وما قال ذلك حتى وصلت الى سمعه قلقلة اقفال فضرب زميله بيده فى صدره مشيراً اليه بالسكوت . وفى الحال فتح باب صغير فى جانب الحديقة وخرجت منه سونيا وحدها فرأياها رغماً عن ظلام الليل قد وقفت ترسل رائد نظرها شمالا ويميناً كانما تخشى رقيباً حتى اذا امنت واطمأنت اندفعت الى الطريق ماشية وعليها رداء أسود يكاد يخفيها فابرقت أسرة ليلورين وارتسمت شارات الفرح فى جبينه وهمس فى اذن رفيقه قائلا :

ها قد وقع الظبى

فاجابه لافلور اخشى ان تخطىء الغرض

قال كلا ليست تفوتنا هذه الفرصة فهيا نتبعها

وكانت سونيا تمشى مسرعة حتى اذا وجدت عربة ركبتها فركبا خلفها وأمر السائق ان يتبعها على بعد ثم قال لافلور

الى اين نسير

فاجابه ليلورين الى الظفر ونوال الفخر ان شاء الله

فتبسم لافلور وقال عسى أن تصدق الاحلام . أتدرى أين هى ذاهبة بنا ؟

أجاب كلا

قال ماأراها الا ذكرت حبيبها الذى قتلته فتندمت وحن قلبها الى الايام السالفة فخرجت الآن تحت أستار الظلام وفى غفلة العيون تزور المكان الذى كانت توافيه فيه لتذرف على آثاره دموع الشوق والندم

أجاب ماأخالها جاءت لتفعل ذلك

قال ألا ترانا نسير فى شارع واجرام وقد اصبحنا على مرمى السهم من

شارع لندن الذى كان يسكنه معشوقها

أجاب حقاً انها ان ذهبت بنا الى مسكنه فقد سقطت من حيث لاتعى

قال انها ولابد قد نسيت كتاباً أو اثراً لها تخشى عليه ظهوره فجاءت على عجل تأخذه قبل أن تقع من العيون .

أجاب ألم أقل لك لاتضجر واصبر فلعلنا نظفر بضالتنا اليوم أو غداً

ولكن لسوء حظهما لم تأخذ عربة سونيا وجهة شارع لندن بل سارت. تخترق شارع التيرن فحي واجرام ثم انعطفت يمينا الى شارع دارو حيث الكنيسة الروسية ووقفت فنزلت سونيا تمشي على قدميها ببطء وهدو حتى دخلت الكنيسة .

الفصل العاشر

قطعت جهيزة قول كل خطيب

أوليفييه فى كرسيه ممتقع اللون شاحب الوجه زائغ البصر مرتجف اليدين اذا تكلم تقطع صوته كمداً وأوشكت الدموع تنهل من عينيه كالسحاب واذا سكت زفر من قلب جريح وصدر مصدور . وسونيا على قيد ذراع منه مطرقة الرأس حزينة النفس كثيرة الضجر كلما التقت نظراتها بنظراته تقطع فؤادها يأساً وذابت حياء وشعرت بالضيق وتأففت كان لم يكن ذلك الحبيب الذى تعشقه وتصبو اليه .

ذلك لان سونيا التى كانت بالامس تناضل عن نفسها بقوة وشهامة وتصرخ فى وجه متهميها بملء فمها وتذود عن كرامتها مستبسلة وكلما تعددت السهام المفوقة الى صدرها تدرعت بالشدة والعناد والصلابة واقسمت جاهدة أحرج الايمان جاءت اليوم خاشعة الطرف ذاهبة الصبر عديمة القوة ساكتة ساكنة مطرقة تستسلم وتقول أنا الجانية انا التى اضاعت شرفها انا القاتله . . . . .

قال أوليفييه بصوت يتهدج : اذن انت تعترفين

فاجابت : لاتحرجنى بغير حق فانا التى قتلت بيدى كولونا وماقتلته الاخوف الفضيحة فحسبك هذا الاعتراف وافعل ماتشاء

أمس كان أوليفييه يستحثها ويمهد لها الطريق للاعتراف فلما ابت أخذ ينصحها ويعدها بالصفح والغفران اذ أمس كان يريدها شهمة أبية النفس لا تعرف الكذب ويرى اصرارها على العناد غير مجد بعد ان ظهرت شمس الحقيقة فى رابعة النهار. أمس كان اذ أبت وعصيت ينوب عنها ويندفع لسانه كالسيل مفيضا الشرح فى تفسير

الجريمة وتأويل ماظهر من دلائلها وكلما زادته انكارا وزادها اتهاما . فماباله اليوم اذ سمع منها الاعتراف وجم واصفار وتمزقت مهجته وشبت النار بين ضلوعه وكاد ان يقتله الحزن ؟ ماباله نسى ان التهمة علقت بها ولبستها من الامس لا من اليوم وان اعترافها هذا لايأتى بجديد بعد شهادة تيتار ؟ ....

ماذاك الا انه كان بالامس قاضياً يحرج متهما واليوم هو محب يسمع باذنيه القضاء على آماله وامانيه .

اذن سونيا ... سونيا تلك التى تمثلها من قبل ملكا كريما ومعنى مجسما لسمو الآداب وكرم الاخلاق والصون والعفاف فوهبها قلبه وتمناها ورجا النعيم كل النعيم بالقرب منها لم تكن الا فتاة ساقطة تتبذل وتصطفى لصاً دنيئاً لتبيعه شرفها فى سوق الرذيلة !!!

ما أشد كربه وما أعظم كمده بل ماأضرم النار نار الغيرة التى تتسعر فى أحشائه .

عجباً ! ايغار عليها وهى المتبذلة السافلة الاخلاق الاثيمة القاتلة ؟ ايغار عليها وهى التى كذبت عليه وادعت حبه زورا وتغريرا ؟ ... نعم غار وغيرته اليوم اضعاف أضعافها بالامس وما ذلك الا لان حبها جار فى دمه متمكن فى فؤاده متصل بروحه عالق باللحم والعظم . فهو كلما نظر اليها كاد ان ينسى مركزه وكادت تدفعه الغيرة الى الجنون

الغيرة وما ادراك ما الغيرة . انها لتنسى المرء نفسه ولتفعل فى الصدور فعل النار فى الهشيم ولتأبى اذا تمكنت ان يضحى لها الا اعز ما فى الوجود من مال وشرف وحياة . انها هى التى جعلت اوليفييه يأخذ سونيا بنظرات حادة فيصر على أسنانه اذ يبصر خديها الموردين وشفتيها القرمزيتين ويديها ونهديها وقدها فيراها لم يخلق الله لها نظيرا ويذكر انها منحت كل هذه المحاسن رجلا دنيئا وقد اصبح ممتنعاً عليه نوال شيء منها فتلفحه النار ويضيق صبره ويوشك ن يهجم عليها فلا يرجع حتى يعصرها عصرا .

هكذا فعلت فيه الغيرة فلم يبق ذلك الابى الذى لايرضى الضيم ولايتنزل فى الحب الى ارذل معانيه ولا ذلك القاضى الذى يسيطر الواجب على قلبه ويتناسى امياله واهواءه . بل اصبح العاشق الفاسق النظر الذى يتناوب عواطفه احتقار شديد وحب اشد

ولكن كاتبه كلوت كان لايزال بجانبه يعجب لسكوته ولما يبين على وجهه من التأثر والانفعال فخشى اوليفييه ان يفهم مايجول فى خاطره فتمالك نفسه واستمد رشاده واخذ فى اتمام التحقيق فقال :

لاريب انك اهل للشكر على هذا الاعتراف اذ الصدق خير شهامة واجدر بمن فى نفسها قدرة على القتل . ولكن مما لابد منه فى التحقيق كيفية وقوع الجريمة والباعث عليها فاشرحى هذا وذاك بالدقة والتفصيل

فرفعت رأسها ونظرت اليه حيرى كانما تستغيث وتطلب الرحمة لما تجد من الضيق والعذاب

فحول نظره وقال :

ليس يكفى القضاء اعتراف مبهم كهذا بل يجب ان يحيط بدقائق الجريمة فأوضحى كل ما كان بينك وبين كولونا .

فاجابت بصوت خافت : كل شىء وقع كما تنبأت أمس

فصرخ فيها كانما يريد أن ينتقم منها : افصحى واشرحى بلسانك

فازاحت النقاب عن وجهها وترددت ثم همت بالكلام وتحركت شفتاها ولكن لسانها انعقد فلم تستطع ان تنبس بكلمة . فقال :

ان لم يكن بد من ان أعينك على الكلام فها أنا أسألك لماذا قتلت كولونا ؟ الأنه غرك ولعب بلبك واستهواك وحبب اليك الطيش ودفعك الى السقوط والزلل ثم اذ أرادت الاقدار فيما بعد ان ترفع الغشاوة عن عينيك وتعرفك أن الذى ثلم شرفك لص سافل حقير دنىء هاجك الغضب وتمكن منك الحقد فقتلته انتقاما ؟ أم لأنه توعدك وهددك وأراد أن يطلع على سرك كل من يهمه

الاطلاع عليه حباً فى الفضيحة والتشهير ؟

فاجهدت نفسها وأجابت قتلته للسببين معاً

قال وماذا كان يبتغى منك ؟ ألم يكن يريد الزواج ؟

أجابت بلى

قال وهل كان يريد بالزواج مهرك أو الدخول فى أحضان أسرة شريفة

أجابت كان يطمع فى الاثنين جميعاً

قال وبماذا توعدك بلسانه أم برسائله ؟

أجابت برسائله

قال اذن فقد كتب اليك بعد ان طرد

اجابت: نعم

قال كم مرة

أجابت : مرتين

قال هل حفظت كتابيه

أجابت : نعم .

ثم أخرجت سفتجة صغيرة من الجلد وأخذت منها رسالتين ومدت يدها اليه وقالت :

هذا ما كتبه الىّ

فتناول الرسالتين بيد مرتجفة وقرأ فى الاولى :

« اكتب اليك هذا وانافى حال من الدهشة والغضب لا تخفى عليك . نعم فلقد ادهشنى واغضبنى كل الغضب ان يعاملنى ابوك معاملة السوقة والصعاليك فيطردنى طردا مؤلما عنيفاً لكلمات كاذبة القاها فى سمعه عدو حاسد .

« من هو ذلك الواشى الذى زعم انه يعرفنى واستهوى اذن أبيك فطمن علىّ ونال من كرامتى ماشاءت اخلاقه وشاء له الضغن والحقد؟لوددت انى أعرفه فاعرّفه ما يجهل وانتصف منه بحد السيف ليعلم ان من اعراض الكرام ماتطيح فى سبيله الرقاب

« ولكن ذلك النذل الجبان يختبىء عنى ليطعن على ويرمينى بما هو اهل له وهو آمن . ومن الغريب ان يصغى اليه ابوك وان تصل كلماته الى قلبك فينهدم فى ساعة واحدة ما بنيناه معاً فى ايام واسابيع . بل من اغرب الامور ان تؤخذ وشاية ذلك الواشي قضية مسلمة وان لايسمح لى بالدفاع عن نفسى فلا اشعر الا وانا مسخوط علىّ مقصى مطرود

« ألا ان رجلا مثلى لايستهان بشأنه الى هذا الحد ومهما يكن الواشي ووشايته فمن حقى ان ادافع عن نفسى . ورجائى انى مابرحت من قلبك فى المنزلة الاولى فهبينى ساعة من وقتك افاوضك فيها فى امرى . هبينى ساعة واحدة ولتعلمن ان ذلك الحسود طعن علىّ كذبا لغاية فى نفسه ولتذهبن بعد ذلك من نفسك الى ابيك ترفعين عن عينه الغشاوة وتردينه الى الصواب

« هبينى تلك الساعة عصر غد فى غابة بولونيا حيث التقينا من قبل مراراً على ظهور الجياد فسأنتظرك ويقينى انك لم تنسى ولم تنسانى من يحن شوقا اليك فتوافينى الى هذا الميعاد »

« اورسو كولونا »

وقرأ فى الثانية :

« اراك قد ضربت بكتابى الاول عرض الحائط وهزئت بى ولم تجيبى طلبى وتالله انك لاتضريننى ولا تسيئين الا الى نفسك . فانت تعلمين ان فى يدى سلاحا ماضيا قد تدفعنى الغيرة الى اشهاره وأنه اذا أشهر قضى عليك القضاء المبرم . ولكنى لاأشهره الا اذا يئست فتمعنى وتروى وافعلى ماشئت واحذرى سوء المغبة »

« أورسو كولونا »

فهتف كين يحدث نفسه قائلا : لاشك أن الامر واضح جلى

ثم سألها : من أدراك انى سأطلب منك رسائله حتى جئت اليوم بهاتين الرسالتين

أجابت : لم أجىء بهما عمداً وانما اعتدت ان أحفظها معى وان لاأتركها فى البيت خوف أن تقع عليها عين

قال : ألم يكتب اليك غيرها

أجابت : كلا

قال : اسمحى لى باخذها

فهمت بمعارضته فادرك قصدها فقال : يجب ان يحفظا فى ملف التحقيق

ثم ناولهما الى الكاتب وعاد يسألها : اخبرينى هل كان لكولونا براهين على زلتك .

لحارت كأن لم تفهم وتساءلت مندهشة : براهين ! ! !

فقال : نعم هل كان يملك كتباً كتبتها اليه فى أوقات الطيش والغرور

أجابت : بصوت منقطع : لست أدرى . . . لانى لاأذكر الآن شيئاً . . .

قال : كيف لاتذكرين والمدى غير بعيد ! افصحى هل كتبت اليه أولا ؟

أجابت : لا . . . لا . . . لم اكتب اليه قط

قال : اذن فلماذا خشيت بأسه وخفت الفضيحة منه حتى ذهبت الى قتله وما كان عليك الا ان تكذبيه بالانكار

فازدادت حيرتها وبهتت وأجابت : كلا . . . بل نعم . . كتبت اليه نعم نعم كتبت اليه .

قال : كم مرة كتبت اليه

أجابت : مرة . . . أو مرتين . . . نعم مرتين

فعجب لترددها وجعل يتفرس فيها فعلم ان اضطرابها شديد والتمس لها منه عذراً ثم قال :

هل كنت تخشين أن يظهر كتابيك كما يتهددك فى رسالته الاخيرة

أجابت : نعم

قال : ألم تردى عليه

أجابت كلا لم أرد

قال : اذن فلقد هاجه سكوتك فجاء ليلة الاحتفال متنكراً وطلب ان يحادثك مهدد اياك بالكتابين اللذين تحت يده

أجابت : اجل

قال : ولعله حينما اختلى بك فى المعمل رغب اليك ان تفرى معه حتّى يصبح زواجك به ضربة لازب ثم توعدك ان لم تفعلى ان يهتك سرك فى الليلة نفسها أمام أبيك والمدعوين فاعتراك الخوف وثار ثائرغضبك وغلا دمك ورأيت العار والفضيحة فى كلمة ينطق بها فقتلته لتتقى غائلة لسانه

فاطرقت برأسها ولم تجب . فعاد الى الكلام قائلا :

بماذا قتلته

فلم تجب أيضاً وبان انها تعانى عذاباً أليما تريدان تنطق فتغص بالكلمات فى حلقومها . فاعاد عليها السؤال قائلا :

أريد ان اعرف بأى سلاح قتلته

ولكنها بقيت صامتة لاتجيب فقال :

ألا تعرفين ان كنت ضربتـه بسكين أو آلة نارية ؟ ولكن لابد انك ضربته بشيء آخر لاننا لم نجد فى الجثة دماً ولا جراحاً

فهمست مجيبة : صدقت

قال اذن بما ذا قتلته

أجاب بالشيء الذى وقعت عليه يدى

قال ماهو ذلك الشيء

أجابت لم اميزه لان الظلام كان حالكا وفى ظنى انه مطرقة

فاندهش أوليفييه وقال كيف تظنين وقد كان فى يدك وقتلت به

فانتفضت ولمعت عيناها وأجابت تذكرت الآن انه المطرقة الحديدية التى يستعملها والدى

قال اين هى الآن

اجابت لاتزال فى المعمل

قال كم مرة ضربته بها

اجابت مرة واحدة

قال وهل مات منها

اجابت أغمى عليه ثم اسلم الروح

قال لعلك قد ضربته فوق اذنه

أجابت لست ادرى لانى ضربت فى الظلام بغير انتباه

قال وهل سقط فى الحال

اجابت : نعم

قال هل أخذت منه بعد ذلك كتابيك ؟

اجابت : نعم

قال وماذا فعلت بهما ؟

اجابت : اعدمتهما

قال : لعلك احرقتهما

اجابت : نعم

قال وما الذى كان بعد ذلك

اجابت : كل ماقلته أمس

قال اذن فلقد خرجت تطلبين العون فلما لم تجدى عدت تحاولين رمى الجثة من النافذة فسحبتها حتى كل ساعداك فتركتها ووقفت بجانبها الى ان سمعت وقع الاقدام وعلمت ان المدعوين آتون فأخذك الخوف واغمى عليك

أجابت : نعم

وفى الحال رفع كلوت نظره الى أوليفييه معجباً بصواب ظنه وصدق فراسته . ولكن أوليفييه لم يرقه منها هذا الاستسلام وجعل يتساءل فى نفسه لم يراها لاتجيب الا اذا مهد لها طريق الجواب ثم لاتكاد تنطق بغير نعم أولا غير مبالية بما يقع فى اجوبتها من التناقض والاضطراب كأنها اذا اعترفت بآثامها للرجل الذى احبها وخطبها وشعرت بأن آمالها فيه قد ذهبت ضياعاً لم تعد تجد فى

نفسها قوة للافاضة فى الشرح فاستسلمت ولم تعد تبالى بما سيكون تاركة رياح المقادير توجهها انى تشاء

لذلك لم يرد أن يتركها قبل أن يصل الى اعماق سرها فقال :

يخيل لى انك تكتمين بعض الحقيقة وانك تتعمدين الاجوبة المقتضبة فرارا من الاطالة . ولست ادرى ما الذى تخشينه بعد الاقرار بالجريمة اللهم الا ان كان ثمت أشياء أخرى تكتمينها لانها أشد خطراً

فرفعت رأسها وسألته وما تلك الاشياء

قال لم أعط علم الغيب حتى أعرفها وانما يمكن ان يقال انك لم تقتلى كولونا بالصفة التى اعترفت بها بل عن عمد وترصد فاحتلت عليه حتى أخذته الى المعمل وقتلته غيلة وربما كان لك فى القتل شركاء ولكنك لاتريدين ان يعرفوا

فهبت كانما لسعتها افعى واتقدت عيناها وقالت : شركاء عمد وترصد !!! ان هذا لهو الظلم المبين . لقد بحت لك بالسر الذى يقضى على وعلى شرفى ولم ابال بما اجره على نفسى من الخزى والعار فقدمت لك كتابى كولونا برهانا على تهديده ووعيده . فماذا تريد منى غير ذلك ؟ ولماذا تتوهم انى مازلت اخفى فى نفسى اشياء اخرى ؟ ان كنت تريد بما تفعل تحكما وعنتا فقد كفاك ماحتملت من العذاب فى سبيل اعتراف مخجل كهذا وان كنت تشك فى اعترافى انا أعترف مرة أخرى بملء فمى اننى وحدى قاتلة كولونا للاسباب التى علمتها فاكتبه على ولا ترهقنى فقد ضاق صدرى

وكانت وهى تتكلم مندفعة كالسيل حتى ادهشت أوليفييه وظن انه رمى سهماً صائباً فانتظر حتى فرغت وقال :

انْ لم يكن فى الامر شىء آخر فلماذا ذلك الدفاع الحماسى المعزز بالايمان الذى سمعته منك أمس

أجابت وأية انسانة تقف موقفى ولا تذود عن كرامتها وكرامة أسرتها بل عن حريتها وحياتها بمثل ماذدت واكثر

قال وكيف تنقلبين دفعة واحدة من ذلك الدفاع الى هذا الاعتراف

أجابت لانى لم أجد فائدة فى الانكار بعد شهادة تيتار ولانك نصحتنى بقول الحق فقلته معتمدة على وعدك اياى بالكتمان . فلقد قلت لى ان صدور المحققين احفظ الصدور للاسرار وان مايقال فى هذه الغرفة لا يذاع للناس ثم اقسمت ان لو اصدقتك الخبر ماوصلت كلمة تخرج من فمى الى ابوى . فأنا الآن اذ كرك هذا القسم واستحلفك ان لاتطلع ذينك التعيسين على شيء مما قلت لئلا يقتلا نفسيهما حزناً ويأساً . استحلفك بكل عزيز عليك ان تبقى لى أمامهما دماء وجهى وتدعهما يجهلان العار والمصيبة التى جلبتها عليهما بطيشى وغرورى. حسبي ماأجد فى نفسى من ألم الضمير وعذاب الندم فلا تزدنى أمامهما خجلا وليبقيا لايعرفان فى أية حمأة تلطخت سونيا اذ من الظلم ان يعذب أبوان بريئان بجريرة ابنة لم يعصمها الشباب من الآثام

فازدادت دهشته وقال حقاً ان الذى يسمعك الآن ويرى الكلمات يتدفقن من فك تدفق السحاب ليعجب أن تكونى عين التى كانت من برهة لاتخرج من الصمت الا بنعم أولا

أجابت وهل كنت تريدمنى وأنا فى موقف أشد مايكون حزناً وخجلا ان ينطلق لسانى بلا رهبة ولا حياء ؟ لاتحول مجرى الحديث وقل لى ماذا انت فاعل فى وعدك وقسمك ؟

قال بودى ان احافظ عليهما وان اكتم الامر كله عن ابويك ولكن ان استطعت ان اكتم زلتك مع كولونا فكيف السبيل الى كتمان قتله

أجابت يالله لاتخبرهما شيئاً لئلا يقتلهما الحزن

قال وبما ذا احتج لديهما اذا قضت الضرورة ان اتبع معك احكام القانون

فسألته : واية احكام تريد ان تتبعها

قال اهمها القبض عليك وارسالك الى السجن

فوثبت كانما لذعتها النار وقالت القبض عليّ ! ! السجن ! !

قال نعم ألست قاتلة معترفة بالقتل .

أجابت بلى ولكنى قتلت « رجلا جاء الى بيتى بعد ان طرد منه شر طرد وتوعدنى بالشر والفضيحة فقام بينى وبينه كفاح واضطررت الى قتله دفاعاً عن نفسى وشرفى » وقد قلت لى أمس ان قتلا بهذه الصفة لاجناح علىّ فيه ووعدتنى بحفظ الدعوى . ووعدك هذا هو الذى جرأنى على الاعتراف فهل كنت تخدعنى وتغرر بى ؟ ان صح ذلك فما أدناها خدعة وياويل المتهمين السليمى القلوب من القضاة الماكرين

فغض من بصره خجلا وشعر بضميره يخزه ويؤنبه وحار فى الامر ولم يدر أيرضيها ويفى بوعده أم يرضى القانون وذمته . وفى الحال تمثل له الحراس وقد جاؤا بالاغلال فغلو يديها وزجوها فى ظلمات السجن بين اللصوص والقتلة وهى تبكى وتسترحم فلا تجد من مغيث ولا مجير فتحرك فى قلبه الحب الكامن وكبر عنده ان يصليها كل هذا العذاب وهو الذى يريد لها النعيم ويود لويشترى لها السعادة بحياته . فاعتدل ورفع عينيه وقال :

سأفى بوعدى واتركك حرة

فانتفضت فرحة كانما انتشلت من بئر وارادت ان تشكره ولكنه لم يترك لها مجالا للكلام واستمر يقول : ولكن يجب ان تعلمى ان هذه الحرية لاتدوم الا اذا جاء تقرير الطبيب الشرعى مطابقا لاعترافك . ولا بد لى غداً ان اذهب الى المعمل لتمثلى أمامى الجريمة وكيف وقعت . وسأخفى اعترافك عن والديك واعتبرك أمامهما شاهدة غير متهمة وربما تمكنت من ابعادهما بحيلة لايشعران معها بما نفعل . واذ قد فرغ التحقيق اليوم فاذهبى

فاحنت رأسها شاكرة وخرجت

الفصل الحادى عشر

سر مبهم

فى صباح اليوم التالى وقفت عند بيت الاستاذ فرجوس عربة تقل اربعة اشخاص . اولهم اوليفييه وثانيهم كاوت وثالثهم فولمار مدير الشرطة ورابعهم كومير النائب العمومى

كان النائب العمومى يناهز الستين من عمره قصير القامة ممتلىء الجسم اصلع الرأس قليل النظر . وكان ممن قضوا جل سنيهم بعيداً عن باريس ولم يسعدهم الحظ بشيء من الغرام فكان يذوب شوقاً الى كل جريمة غرامية سيما اذا كانت باريسية ويعنى بتتبع التحقيق فيها متلذذاً بما يجد من حوادث الحب الذى لم تجعل له الاقدار نصيباً فيه .

لذلك كان شغفه واهتمامه شديدين بمقتل كولونا اذ رأى أميراً غنياً جميلا يقتل وعند اقدامه فتاة هى عنوان فتيات باريس حسناً ورشاقة وجاهاً وغنى فأمل ان يجد الغرام من اسرار طى ذلك مالا تجود بمثله الايام فصحب جابيل فى كثير من اعماله ولم يدع كلمة تكتب فى التحقيق الا قرأها واستعادها . ثم ازداد شغفه وعظم سروره اذ قرأ اعتراف سونيا فشهد لأوليفييه بالذكاء والبراعة وهنأه قائلا :

بورك فيه فقد أتيت بمعجزة لم يأت بها غيرك واستطعت بمهارة فائقة ان تحاصر سونيا وتضيق عليها مذاهب الانكار حتى الجأتها الى الاعتراف .

فأجاب اوليفييه انما فعلت مايأمرنى به الواجب ولكنى مازلت اعتقد ان وراء هذا الاعتراف شيئاً آخر

قال اصبت

اجاب لعلها تبوح بما بقى فى نفسها حين تمثيل الجريمة

قال لاشك عندى انك ستظفر بما تريد وسأشهد معك ساعة تمثيل الجريمة فمتى هى

اجاب غدا فى الساعة التاسعة

لهذا جاء ولكن اوليفييه أراد ان يحرص على وعده لسونيا فطلب اليه كما طلب الى مدير الشرطة ان يكتما عن فرجوس وامرأته اعتراف بنتهما وان يعاملاها امامهما معاملة الشاهدة فأجاباه الى طلبه

وقفت العربة ونزل الاربعة فخفق قلب أوليفييه وتبدل لونه واوشكت ان تذرف الدمع عيناه اذ تمثلت له امانيه القديمة وايام الحب والنعيم التى قضاها فى ذلك البيت ورأى كيف ضاعت مرة واحدة وانقلبت الى يأس قاتل . ولكنه تشجع وتمالك نفسه خيفة ان يلمح كومير شيئا ودخل والدنيا تدور فى عينيه وبياض النهار ظلام وسواد

دخلوا جميعا فلقيهم الاستاذ فرجوس باشا محييا ثم قال :

علمت انكم آتون لرؤية المعمل مرة أخرى فارجو ان تفعلوا ماجئتم لاجله بلا جلبة ولا ضوضاء لان امرأتى أقعدها الحزن فى فراشها فهى مريضة تعانى من الحمى حرارة فى الدرجة الاربعين وقد أوصى الاطباء منذ ساعتين بعدم انزعاجها وتركها فى راحة تامة

فانحنى الاربعة احتراماً واذ ذاك جاءت سونيا وعلائم التعب والبكاء بادية عليها فساروا جميعاً متجهين الى المعمل حتى اذا دنوا منه قال كومير لفرجوس :

أتدخل معنا ام تبقى بجانب امرأتك فربما غبنا اكثر من ساعة

فاجاب فرجوس يجب ان اكون معكم لان فى المعمل انابيب ومواد كيماوية وآلات كهربائية واوراقا ونماذج وغيرها لاأسمح ان يطلع عليها أحد فى غيابى

فقال كومير لاتخف فاننا لانريد شيئاً من آلاتك واوراقك بل نريد ان

تعين لنا سونيا موضع الجثة ووضعها حينما شعرت بها . وربما احتجنا الى شهادتك بعد ذلك فيجب قانوناً ان تكون فى غير المكان الذى نحن فيه حتى تفرغ من شهادة سونيا

فاجاب لاريب انى مطيع اوامر القانون فسأنتظر حتى تدعونى

ثم دخل الاربعة ومعهم سونيا وبقى فرجوس فى غرفة الاستقبال وعلى باب العمل الشرطيان لافلور وليلورين يحرسانه بأمر رئيسهما فولمار

نظر أوليفييه الى سونيا وقال : بصوت خافت :

هيا مثلى كل ماوقع بينك وبين كولونا

فجعلت تقص كيف جاءها متنكرا فى قاعة الرقص وهددها حتى أطاعت امره واتت معه الى العمل ثم كيف رغب ان تمر معه متوعدا اياها بالفضيحة ان خالفته ثم كيف تخاصما وتضاربا فضربته بالمطرقة على رأسه فسقط وفارق الحياة . ولم تقف عند حد الكلام بل صورت الحادث كأن كولونا حى أمامها وعينت المكان الذى ضربته فيه وموضع جثته حينما سقط وكيف جرته الى النافذة حتى أعياها التعب .

رآها أوليفييه تفعل ذلك كله بجراءة ولسان طلق وتتكلم عن زلتها امام النائب بلا خجل وتفيض الشرح متتبعة كل ماتنبأ به قبل اعترافها كلمة كلمة فعجب ان يفارقها من يوم لآخر ذلك الحياء الشديد والاضطراب الاشد اللذين عرفهما فيها

أما النائب فأصغى الى قولها بامعان وشغف فلما فرغت وسكتت قال :

اذن فانت لم تتربصى لقتله بل ضربته مدفوعة بعامل الخوف من الفضيحة دون ان يكون لك شريك

فاجابته ماكان لى ان اشرك انساناً فى عملى وانا ارتكب القتل حرصا على زلتى ان يعلم بها أحـد

قال : ألم تجدى غير قتله وسيلة تتقين بها شر لسانه

اجابت : لقد تضرعت اليه ان لا يؤذينى فلم يسمع لى بل غضب وهم بان يخرج ذاهبا الى ابى فلم أتمالك ان صعد الدم الى رأسى وجذبته ثم عثرت يدى بالمطرقة

فاخذتها وضربته

قال : وأين هى المطرقة

فالتفتت خلفها وأشارت الى قطعة من الحديد واجابت : هاهى

فمشى اليها وأخذها فى يده وجعل يقلبها وقال : لاريب انها ان أصابت الرأس كسرت الجمجمة وقتلت فسيخبرنا الطبيب الشرعى عن موضع الكسر

ثم التفت الى أوليفييه وقال : ألم يأتك التقرير الطبى الى الآن

فأجاب : أوليفييه كلا وقد كلمت الطبيب اليوم فى التلفون ورجوته ان يوافينا الى هنا فوعدنى بذلك

قال : هل عينت له الساعة

اجاب : عينت له منتصف الساعة العاشرة

فنظر النائب فى ساعته وقال : لقد مضى الميعاد

وفى الحال سمعت ضوضاء ووقع اقدام يدنو من المعمل ثم طرق الباب طارق فأسرع كلوت بفتحه فدخل كهل فى السبعين من عمره طويل القامة غزير الشعر ابيضه هو الطبيب سكوف . وما استقر به المقام حتى قال : اوليفييه :

نحن فى انتظار تقريرك أيها الطبيب

فأجاب : سكوف لو علمت الباعث على تأخيرى لوثقت انى غير مقصر ولا ملوم

فقال النائب : وماهو ذلك الباعث ؟ أيستلزم التشريح كل هذا الزمن ؟

فتردد سكوف قليلا وأجاب : صدقت فان التشريح لا يأخذ عادة اكثر من بضع ساعات ولكنه فى هذه المرة استغرق منى أياما

قال النائب : وماذا وجدت

فاشار سكوف الى سونيا وقال : هل اتكلم

فرد علية أوليفييه قائلا لاتخش منها فهى سونيا ابنة فرجوس

فانحنى سكوف احتراما ثم اعتدل وقال :

لقد شرحت الجثة وفحصتها فحصاً تاما فكانت النتيجة انى لم أقف على سبب

يمكن ان تعزى اليه الوفاة . ولست ادرى ان كان ذلك لانى فقدت علمى وخبرتى أو لان للوفاة سبباً لم يصل الطب الى معرفته للآن . . . .

. . فاندهشوا جميعاً وجعلو يتساءلون أيمزح ام يقول جداً ثم سأله أوليفييه : كيف ذلك ؟ زدنا تفصيلا .

فأجاب : لم أدع فى الجثة عضواً لم أفحصه بنفسى فالقلب والرئتان والمعدة والكبد والكلى والامعاء كلها فتشتها وكذلك العضلات والدم ثم الانسجة فلم أجد مرضاً ولا جرحاً يستوجب الموت : كانما ذلك الجسم قد نزعت منه الحياة بغتة ووقفت حركته مرة واحدة . ومما حيرنى ان انتزاع الحياة ووقوف حركة الجسم مرة واحدة لا يمكن ان يكونا الا بعارض خارجى وقد بحثت وتعبت لمعرفة هذا العارض فلم يتيسر لى وضاع تعبى سدى .

فأخذ العجب منهم كل مأخذ وقال أوليفييه ألا يمكن ان تكون الوفاة ناشئة عن ضربة فى الرأس أو فى الاذن

فضحك الطبيب وأجاب : لو صح ذلك لتكسرت الجمجمة أو لتلفت طبلة الاذن فى حين أنهما سليمتان ولا أثر لرضوض أو دماء فيهما

فنظر النائب وأوليفييه فى آن واحد الى شو نيافر أياها مضطربة مطرقة برأسها فى الارض . فلم يريدا أن يحجاها قبل ان يفرغا من الطبيب فتهامسا قليلا ثم التفت أوليفييه الى الطبيب وقال :

ألا توجد طرق للقتل لا تدع آثارا فى الجسد

فأجاب : الطبيب لا يوجد الا بعض السموم كالزرنيخ فانه قد يختلط بالدم فتضيع اثاره وقت التشريح سيما وان كثيراً من الناس يستعملون نوعاً منه يسمى فاولر للتداوى فلا يدرى المشرح ان كان ما يعثر عليه منه فى الدم أو فى الامعاء مأخوذاً للتداوى أو للقتل . ولكن الزرنيخ بأنواعه لا يقتل رجلا قويا كالذى شرحت جثته الا اذا أخذت كمية لا يحتملها الدم ويستحيل ان تخفى آثارها على المشرح

قال : اليس فى بقية السموم ما يقتل الرجل القوى بغير ان تظهر له آثار

اجاب : يوجد البروسين والفيراترين فيان بضع نقط من واحد منهما تميت في الحال بلا ألم ولا رائحة ولا أثر وكذلك الهيوسين فانه يوقف حركة القلب ويصيبه بالشلل بغير أن يعرف في التشريح

فسأله النائب : هل تعرف العامة خواص هذه السموم

فأجاب : ان عرفتها بالاسم فهي لاتستطيع أن تستعملها لان استعمالها يستلزم علماً وخبرة ودراية . وما أظن الا أن كولونا كان عارفا بها فأنتحر بشيء منها

فقال النائب : ولكن كل ما في القضية يدل على أن كولونا لم ينتحر بل قتل بعد عراك عنيف تكسرت منه الاواني

فأجاب الطبيب : اذن يكون القاتل أكثر من واحد لان استعمال هذه السموم يستلزم أن يكون المقتول مغلوباً على أمره مكرها على أخذها وما أظن أن فرداً واحداً يستطيع أن يغلب رجلا قويا مثل كولونا ويجرعه السم الزعاف

وحينئذ حانت من النائب التفاتة الى أحد الدواليب الزجاجية المثبتة في حوائط المعمل فقرأ على احدى القوارير اسم الفيراترين فابرقت عيناه وقال :

سمعتك تقول أيها الطبيب ان الفيراترين من السموم القاتلة التي لاتدع في الجسم أثراً

أجاب : الطبيب نعم

فأشار بيده الى الدولاب وقال: هاهو الفيراترين مكتوب على زجاجة نصفها فارغ

فهبت سونيا وأوليفييه ومدير الشرطة ينظرون الى حيث يشير النائب مأخوذين

وحينئذ قال الطبيب :

وما معنى وجود الفيراترين في معمل أستاذ كيماوي كالاستاذ فرجوس ؟ انه لمن البديهي أن توجد في معمله السموم بأنواعها وهاأنتم ترون بجانب الفيراترين سموما اخرى لاتعد . ولا اخالكم تجهلون ان أول مايعنى به القاتل هو اخفاء السم الذي قتل به فلو ان هذا الفيراترين أستعمل في القتل لما بقي في زجاجته . ومع ذلك فأنا لم أجزم ولا استطيع ان اجزم ان كولونا مات مسموماً بل كل

ماقلنه عن السم لم أقله الا من الوجهة العلمية فامتعض النائب من هذه المعارضة وقال : هل بقى لديك شيء آخر

اجاب : كلا

قال : وأين التقرير

اجاب : هاهو

فتناوله النائب ونشره أمام أوليفييه وشرع الاثنان يقرآن فوجداه مختوما بهذه النتيجه :

« وخلاصة ماتقدم ان التشريح لم يرشد الى السبب الحقيقي للوفاة فقد تكون ناشئة عن علة فجائية غريبة لم يعرفها الطب للآن أو عن سم من السموم التى لا يظهر لها اثر فى التشريح »

فلما فرغا قال النائب : انى اشكرك ايها الطبيب ولك الآن ان تذهب

وماكاد الطبيب يخرج حتى التفت النائب الى سونيا فوجدها لاتزال على ما كانت عليه من الاضطراب حيثما اهتدت عينه الى الفيراترين فى قوارير والدها فقال :

أرأيت ياسونيا كيف كذبك الطبيب الشرعي واثبت ان كولونا لم يقتل بضرب المطرقة بل بطرق علمية لاتتيسر الا لمن يدبر القتل بترو وامعان

فأجابت : كلا ما كذبت والطبيب مخطىء

قال : اما برحت تعترفين انك القاتلة

فأجابت بصوت عال : نعم لازلت اكرر اعترافى

قال : مادمت تعترفين ببعض الحقيقة فماذا عليك لو اعترفت بالبعض الآخر واخبرتنا كيف قتلته وانت لاتجهلين ان دفاع الصدق خير من دفاع الكذب ؟

اجابت لست اقول غير ماقلت

قال لماذا

فسكتت ولم تجب . فقال :

اتمتنعين عن الجواب

اجابت : نعم

قال : احذري مغبة هذا الامتناع فانك قد تسيئين به الى احب الناس اليك

فرفعت عينيها وتساءلت مندهشة : احب الناس اليّ ؟ ؟

قال : نعم فانك أن لم تفصلى كيف قتلته ذهب بنا الظن الى الفيراترين واذ كانت يداك الضعيفتان لاتقويان على مغالبة كولونا وتجريعه السم ايقنا ان لك شريكا ولا يمكن ان يكون هذا الشريك العليم بأسرار السموم الى هذا الحد الا...

فشخصت فيه وقد اتقدت عيناها وقالت : الا . . ؟ ؟

قال : الاّ ابوك

فصرخت فى وجهه غير مبالية برهبة الموقف : ابى ؟ أبى؟ كلا. كلا. هذا ظلم بين ثم جعلت تزفر وتتنهد وتنظر الى أوليفييه مسترحمة والدموع تهطل من اجفانها ولكن أوليفييه حول نظره عنها وتشاغل بالتقرير الطبى الذى كان فى يده فوقفت حيرى ذاهبة الصبر شديدة الجزع يحيط بها اليأس ويقتلها هذا الجفاء . أخيراً قال : النائب :

لم هذا البكاء وهذا الجزع وفى طوعك ان تكشفى لنا الحقيقة بكلمات قليلة ؟ أفصحى كيف قتلت كولونا ؟

فلم تفه وظلت صامتة فحدق وقال :

احذرى وتنبهى فان سكوتك هذا بعد اعترافك يجعل مركزك حرجا ويدلنا انك لم تقتلى كما تدعين دفاعا عن نفسك بل قتلت انت وشركاؤك بتدبير وتربص

فملكتها سورة الحماسة وأجابت : ليس عندى اكثر مما قلت فأفعل ماتشاء

فأستشاط غضباً ونظر الى أوليفييه قائلا:

اذن فأقض بما يأمر القانون .

لم يكن أوليفييه يظن ان يصل الأمر الى هذا الحد . بل لقد كان يوم جادله ابوه ونهاه عن التحقيق يتحمس ويقسم اذ لن يسيطر على قلبه الا واجب الحق والعدل زاعماً ان الغيرة سوف تجعله أشد واقسى عليها من سواه ـ لم يكن يفعل

ذلك الا وهو معتقد ببراءتها واثق ان سجل التحقيق لا يلبث ان يفتح حتى يطوى وتخرج طاهرة الذيل نقية الجيب عالية الرأس . والا فلو علم ان ستأتى ساعة يسمع فيها بأذنيه اعترافها بخيانته وغدره واتصالها بعدوه فيها صلة تلمث شرفها وقضت على امانيه واحلامه القضاء المبرم لما عصى اباه ولاختار ان يفر الى ارض لاتأتيه فيها اخبارها حتى يموت او يجد السبيل الى السلوان بل لو علم انها سوف تقف منه موقف القاتلة الاثيمة وانه سيؤمر بسجنها فينطلق لسانه وتخط يمينه أمر القبض عليها لباع الحياة وفضل ان تبتلعه الارض او يطويه جوف المـاء

وها قد اخلفت الايام ظنه وأطاشت سهمه وأزفت الساعة التى لم يكن يتوهمها . فالنائب بجانبه مغضب حانق يطلب منه رعاية القانون وسونيا أمامه معذبة باكية ترتجف من هول ماسيصيبها ويصيب ابويها من الاحزان والهموم . . . . . فماذا هو فاعل ؟

لأهون عليه ان يراش بالسهام قلبه ويحرق بالنار صدره وتمزق بالسيوف جوانحه او ان تغيبه الارض الى حيث يفارق الدنيا وما فيها . . . . .

ولكن ما الحيلة وهذا النائب الواقف عن يمينه لا يرضى عن الحق بديلا ولا يشترى بالواجب ثمناً قليلا ولا يريد الا مايريده القانون ويأبى الا ان تزج سونيا فى غيابة السجون

هكذا ارادت المقادير فياويحها ما أقساها على قلوب المحبين وما اظلمها للضعيف المسكين ولله فى خلقه شؤون

أطاع اوليفييه وطأطأ رأسه حزناً وصبرا وقال :

باسم القانون آمر بالقبض على سونيا

الفصل الثاني عشر

الى السجن

ذهلت سونيا وخار عزمها حين سمعت كلمة اوليفييه فاوشكت ان تسقط لولا انها استندت الى مقعد خلفها . ولكن المصائب اذا تناهت فى اشتدادها انقلبت الى اضدادها والاناء اذا امتلأ فاض والنفس الكريمة كالمعدن الكريم تعرف قيمته فى النار . فمالبثت سونيا ان تضعضعت حتى هبت واقفة تبدو عليها أمارات العزم والحزم والقوة والصبر وكفكفت دموعها وقالت :

عساكم لاتمنعونى أن أودع ابى

فاجاب : النائب ستود عينه بعد أن يؤدى شهادته فناديه الى هنا وحاذرى ان تفوهي أمامه بشيء مما دار بيننا بل اخرجى لتتهيئى للرحيل حتى اذفرغنامنه ودعته وسرت مع مدير الشرطة

قالت : سأفعل ماتريد وانما لى رجاء اخذت به وعدا من قاضي التحقيق

فسألها وما ذاك

قالت : ان تكتموا عن والدى الزلة التى اعترفت بها

فامتعض النائب وقطب حاجبيه ولم يجب . وحينئذ قال : أوليفييه :

سنحرص على هذا الوعد ونكتم عنه كل مايقدح فى شرفك

فأحنت رأسها شكراً واتجهت الى الباب ففتحته ثم نادت بصوت حزين .

أبى . أبى . اقدم

وفى الحال ظهر أبوها فلما دخل تركته وانسلت بهدو وسكون الى غرفتها تتأهب للرحيل وكل همها ان لاتزعج أمها حتى لاتزيدها شجناً على مرض والشرطى لافلور

واقف ينتظرها على مقربة

اما بسكال فرجوس فلقد كان منذ بدءهذا الحادث المشؤوم يتألم لكل مايقال عن سونيا ويسخط على القضاء الذى يستحل ان يهتك حرمة بيته ويدخل باحثاً مفتشاً حتى رسائل بنته الخصوصية ثم يضطرها لأن تذهب الى دار التحقيق جملة مرات . وكان ألمه اشد وسخطه اعظم اد رأى هؤلاء الاربعة يعودون الى بيته فيدخلون المعمل مع سونيا ويحرمون عليه الدخول . فلما نادته سونيا جاء ووقف يجيل فيهم انظاره كما يجيلها فى اعداء له الداء ثم قال :

عسى ان تكونوا شفيتم صدوركم واهتديتم الى اثر من الحقيقة

فأجاب النائب : نعم اهتدينا الى الحقيقة كلها

فقال : هل عرفتم المجرم

اجاب : عرفناه وقبضنا عليه

فاظهر فرجوس السرور وقال : هل لى ان اعرف من هو

أجاب : سوف اخبرك به فاجب قبل كل شيء على أسئلتى

قال سل ماتريد

فسأله النائب أصحيح ان الرجل الذى وجدت جثته هنا تعرف بك ودخل فى بيتك وارتبط بصداقتك منتحلا غير اسمه وصفاته الحقيقية

فأجاب فرجوس نعم

قال وقد توصل بالحيلة الى خديعتك

اجاب خدعنى قاتله الله

قال ثم انتهز فرصة حسن ظنك فيه وتقرب الى بنتك سونيا التى ارتاحت الى تقربه

اجاب ارتاحت ! .. ارتاحت الى حد محدود

قال بل ارتاحت الى غير حد اذ قد ذهبتم الى الكلام فى الزواج

اجاب لم تأت كلمة الزواج الا على لسان كولونا وفى وقت كنا نظنه كفأ لها

قال ولكنك ادركت الحقيقة

اجاب ادركتها لحسن طالع ابنتي

قال بماذا شعرت حينئذ

اجاب بما يشعر به كل رجل شريف ووالد يعبد ابنته وبعبارة اخرى سخطت وغضبت على ذلك الماكر الخداع

قال وقد ذهب بك الغضب الى الحقد والضغينة

اجاب : حقدت عليه ولا ريب

قال : ثم أهنته وطردته أشنع طرد

اجاب لم يكن لي ان افعل غير ذلك

قال الم يتوعدك اذ ذاك انت وابنتك

أجاب بلى . قال بماذا توعدكما

اجاب لم افهم كلماته لانه ارغى وازبد كثيرا باللغة الايطالية ولكني ادركت انه يتوعدنا بفضيحة

قال ألم تزعجك كلمة الفضيحة وترفع عن عينيك الغشاوة

فاندهش فرجوس وسأله واية غشاوة تعني

قال الغشاوة التي حجبت عينيك عن رؤية ماكان يجرى بينه وبين سونيا

فجمد فرجوس واصفر . وفي الحال نظر أوليفييه الى النائب يذكره بالعهد الذي اخذته عليهما سونيا ولكنه هز كتفيه استهزاء ولم يرد ان يحفل بعهد يمنعه من الوصول الى غايته فضلا عن انه لم يعطه على نفسه بل الذي اعطاه اوليفييه.

وكان فرجوس يقلب عينيه فيهما فلما رآهما يتبادلان نظرات تكشف عن سر مطوى ازداد اصفراره وقال :

ماهذا الذي اسمع وأرى ! يخيل لي ان أسرارآ تحيط بي فلماذا تمنع عني معرفتها؟

فقال : النائب بشدة : بل انت تعرفها حق المعرفة فانك لاتجهل ان سونيا ثلمت شرفها مع كولونا

فهاج بفرجوس الغضب واتقدت عيناه وقال صه ولا ترمها بتهم السوء

فاجاب النائب بل هى التى رمت نفسها وما أنا الا ناطق بلسان الحق

قال ان لم تلزم الادب الزمتك اياه قسراً

أجاب بصوت جهورى . انت تعلم جيدا اننا هنا نمثل العدل والقانون وأن عليك ان تصغى وتطيع فدع الحجاج واللجاج واسمع الحقيقة المرة . . . . . : لقد خدعت بنتك كما خدعت فرأت فى كولونا كفأ لها وغرتها منه الوعود والاقسام ثم كشف عن بصيرتها وعلمت الحقيقة فطردته ولكن بعد ان ثلم شرفها وأخذ البراهين على مافعل

فصرخ فرجوس قائلا : براهين ! ! !

أجاب نعم وهى كتب خطتها يمينها فى أوقات الغرور والطيش فاتخذها كولونا سلاحا يحاربكما به وتوعد ان يظهرها ان لم تجيباه الى غرضه فشق عليك هذا الوعيد وابيت ان تصاهر لصاً . ولكنك خشيت ان ينفذ وعيده ويصمك بالعار والشنار وأنت الطاهر الاعراق المحمود السمعة الذى اهدته الحكومة وسام الشرف ويوشك او يخلد اسمه بالمدفع الكهربائى الذى اخترعته فلم تجد الاان تستريح منه وهانت فى عينيك حياته . وما حياة رجل مقامر مزور نصاب دنىء بجانب استاذ عالم حياته فخر وبيته فى ذروة المجد ...

قال ثم ماذا

أجاب لقد ترصدت لقتله فاعددت له سما يقتل ولايترك أثرا ثم احتلت عليه أنت وسونيا حتى جئتما به الى هنا فجرعتماه ذلك السم

فاستولى الذهول على فرجوس وقال اتظننى أفعل ذلك ؟

اجاب ولم لا وانا اعلم علم اليقين ان هذا الرجل جاء الى هنا ليلة الاحتفال متنكراً وهددك انت وسونيا فسقتماه الى هنا ثم قام بينكما وبينه كفاح كانت نتيجته ان قتل بطريقة علمية لايعجز عنها من كان فى خبرتك وسعة اطلاعك

فوثب مستشيطاً غضباً وقال كذب وربى كل هذا ... كذب واى كذب .

اجاب كلا بل حق

قال لا والله ماصدقت ان هي الا اوهام لايقبلها عقل ولايحفل بها انسان

اجاب بل هى حقائق مقررة فى الاذهان

قال وما برهانك عليها

اجاب عندى البرهان الذى لا ينقض

قال من اين جاءك

اجاب من بنتك التى شاركتك فى الاثم

قال بنتى !! سونيا !! سونيا !! هذا مستحيل

أجاب كلا فقد اعترفت عن نفسها وعنك ولم تكتم الا السم الذى قتلتماه به

فاتسعت عينا فرحوس ولبث برهة كالمسحور ثم مر بيمينه فوق جبينه وجعل يقول :

ماذاك ؟ أحلم هو أم يقظة ؟

وكان الاربعة محدقين بانظارهم فيه منتظرين ماتؤول اليه هذه الخدعة التى قام بها النائب طلباً للحقيقة واستجلاء للسر الغامض فرأوه قد اكمد وجهه وانتفخت أوداجه واشتدت اعصابه ثم انقلب ذلك كله فجأة وزال عنه الكمد وقهقه قائلا :

بالله ايها النائب لاتمزح معى هذا المزاح المؤلم ان لم يكن لما اسمع عنك من حب الحق والتعلق بأذيال الجد فللقانون الذى انت الآن ممثله فى عظمته وعدله .

ثم فارقه الابتسام وتولاه الغضب فاشتعلت عيناه نارا واستمر يقول :

من اين جئت بهذه القصة المخترعة ! وكيف تعزوها زوراً الى ابنتى ! . . . لا .. لا . ان سونيا ابعد من ان تتهم اباها بما لم يفعل وانا ارفع من ان الطخ يدى بدم كهذا وعلى أشرف من ان يكون وسيلة للجرائم . اتحسبنى من الذين يسترخصون فى غاياتهم أرواح العباد ؟ أم تظننى واحداً من المدعى السحر والشعوذة ليبغوا ويطغوا ويعبثوا فى الارض فساداً ؟

فسكت النائب وقد عراه الخجل فعاد فرجوس يقول :

على ان الذى يقطع بتلفيق هذه القصة هو انى فى الليلة التى قتل فيها ذلك الايطالى كنت بين اكثر من ثلاثمائة مدعو أحييهم وألاطفهم بوجه مكشوف . ومنذ انتصف الليل الى الساعة التى وجدت فيها الجثة لم افارق قاعة الرقص ولعل مدير الشرطة لم ينس انه فى الليلة عينها سأل المدعوين جميعاً فأكدوا له ذلك كل التأكيد . وكيف اشترك مع ابنتى فى القتل ثم ادعها مغمى عليها بجانب الجثة واترك المفتاح فى الباب حتى يأتى المدعوون فيجدونهما معاً ؟؟

فشعر النائب عند هاتين الحجتين كأن سهما اخترق صدره وزال عنه زهوه وخيلاؤه ولم يستطع ان يقيم وجهه فى فرجوس فخاطب أوليفييه بصوت يكاد يكون همساً :

حقاً لقد اضعت رشادى وكلما ظننتنى دنوت من الحقيقة كلما أشكل الامر وغمض السر وبانت القضية اعقد من ذنب الضب . فها أنا أنفض يدى وأكل لك التحقيق كله . وادعك تفعل ماتشاء .

ثم ادار وجهه واخذ قبعته وتهيأ للخروج ولكن أوليفييه استوقفه وقال لفرجوس :

لاتبتئس فما كان لاحد أن يصدق عنك تهماً كهذه وما هاجمك النائب هذه المهاجمة الا ليصل الى الحقيقة من طريق الباطل ولكن قصده قد التوى عليه وما زالت الحقيقة بعيدة عنا نلتمسها بين ظلمات فلا نهتدى ولانبصر . ولئن كنت بريئاً وكان شرف ابنتك ابرأ واطهر وأجل من ان يثلم كما هو الحق الا ان شيئاً من الريب يخالجنا فى اشتراك سونيا فى الجريمة ويضطرنا الى القبض عليها حتى تظهر الحقيقة برمتها ويزول هذا الريب

فثار ثائر فرجوس مرة اخرى وقال : سونيا ! ابنتى ! تقبضون عليها ؟ اتقول جداً ام تمثل معى الرواية المؤلمة التى مثلها زميلك النائب ؟ حقا انكم يارجال القضاء خلقتم بغير قلوب

فمال أوليفييه الى شماله يخفي خجله وحزنه . وحينئذ قال النائب :
ان قلوبنا لا تعرف غير العدل وقد صحت عندنا تهمة سونيا فأصبح من العدل ان تودع السجن

فاجاب فرجوس حاشا وكلا ... لست أصدق ماتقول لماذا ؟ ... انها لا يد لها فى موته ... انها بريئة من كل اثم ... ومن ذا الذى امر بسجنها ... من ؟

فتشجع أوليفييه وقال نحن نعتقد مثلك ان الايام ستظهر براءتها ولكن لايسعنا الآن ان نضرب صفحاً عن الشبه القائمة عليها فهى اذا سجنت فالى يوم قريب تخرج فيه شريفة طاهرة الذيل

كان فرجوس والنائب يخشن له القول ويتهمه بالقتل ويتوعده بكل هول يفور فائره ويتلظى غضبه ويجد من القوة مايجادل به بملء فمه . اما الآن وقد علم ان ابنته سونيا ستودع السجن فقد انهد ركنه وكبا زنده وخشع واستكان وتلظت واضطرمت فيه النار لانار الغضب بل نار الشجو واللوعة واستبقت عبراته فاحرقت مآقيه وحزت فى جلباب خده .

وقف ذلك الرجل الذى لم يعرف فى حياته نوائب الدهر ولا من الدنيا الا علمه الذى يفيد به الناس ولا طأطأ رأسه يوماً ولا بكى ولا شكا ولا ذل ولا قو بل من العظماء والامراء والملوك الا بالتجلة والاكرام ـ وقف يبكى ويمد يديه مستعطفاً متذللا ضارعا مستشفعاً بدموعه لابنته التى هى أعز من روحه . . . سونيا . . . نعم سونيا ...

قال بالله دعوها ... دعوها لامها الحزينة ... دعوها وان لم يكن بد من ضحية تضحونها زكاة لدم ذلك الايطالى فها انا ضحونى وافعلوا بى ماتشاؤون

ثم خار عزمه وضعف قدماه عن حمله فارتمى على مقعد خلفه يصعد الزفرات ويجهش بالبكاء

وفى الحال ظهرت سونيا فى عتبة الباب مرتدية متأهبة للرحيل ولافلور خلفها والخدم محتشدون من ورائه ينظرون ولا يفهمون وقالت بصوت ضعيف تردد

فيه رنات الاسى :

هيا ياأبتى فقد جئت لتوديعك

فهب اليها معولا صارخاً . ماذا ؟ تودعيني ؟ اذن فصحيح انك ستودعين السجن ؟ ياشقائى وشقاء امك ! .. ولكن كلا ثم كلا .. سونيا ... ابنتى ... اصرخى فى وجههم وقولى انك بريئة . اصرخى فلئن كان فى آذانهم عن صوتى وقر فان صوتك صوت الحق والبراءة يخرق آذانهم وينفذ فى قلوبهم وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ...

ثم خنقته العبرة وضمها الى صدره فاغر ورقت عيناها وطوقته بذراعيها . وهكذا تعانقا فاشتبكت دموعهما وشهد الواقفون منظراً يذيب المهج ويجرى الشؤون

طال العناق وازدادت العبرات وتضاعفت الزفرات فأوذى النائب كأنما شيك فى عظمته وقانونه وانتظر من أوليفييه أن يرفع صوته فلما لم يفعل نادى بصوت جهورى :

يجب ان تطاع كلمة القانون

فروع المتعانقان وانتفضت سونيا فنزعت نفسها من أحضان أبيها ومشت يتقدمها النائب ومدير الشرطة ويتبعها لافلور وليلورين فاجتازت الحديقة وخرجت فركبت بين هذين الاخيرين

ولم يلبث كلوت ان خرج فبقى أوليفييه وفرجوس وحدهما فوقفا صامتين تعلوهما الكآبة كانهما مأخوذان الى ان دوت العربة خارج البيت سائرة بسونيا فهاجت لوعة فرجوس وأرسلت عيناه شواظاً من النار ورفع رأسه وقال :

أنت أنت الذى كنت تدعى بالحب لابنتى جئت اليوم تنزعها منى وتبعدها عن عينى وتسلمها للقضاة القاسين . هكذا فمات بك الغيرة العمياء وبئس مافعلت ودنت تسمى ذلك حباً ؟ اى حب هذا ؟ انه لخير منه مائة الف مرة الحقد الاسود.

فاجاب أوليفييه : معذرة وعفوا فانك لاتستطيع ان تعرف كم قاسيت من

العذاب فرب ملوم لاذنب له . ولعمرى لقد كان اهون على ان اقضى على نفسى من ان اقضى عليها فلا تعتب ولا تزدنى شجنا

قال هكذا انتم القضاة تظهرون غير ماتبطنون فانتم بين الناس ملائكة الرحمة والعدل ولكنكم فى الحقيقة افاعى الشر ورسل المصائب والمحن كيف تقضى على سونيا بما قضيت وذنبها الوحيد انها طردت ذلك الايطالى رغبة فيك وحباً فى الزواج بك ؟ اترى بعد هذا نماقاً وقسوة وغيرة عمياء ؟ ايسرك الان ان تراها مصفدة فى الاغلال حزينة باكية تعاشر السفلة والرعاع وامها وابوها هنا يقتلهما الكمد وتذيبهما الاشجان . هاقد انتقمت وشفيت مافى نفسك وارحت بالك فاذهب راضيا قرير العين ودعنا هنا تحف بنا الهموم والاوصاب

اجاب مهما اقل فلست الان مصدقى ولكن لابذلن جهدى لانقاذها من البلاء الذى احاط بها

قال وهل تستطيع ان تنقذها ؟ وان كان فى طوعك انقاذها فلماذا قضيت عليها ظلما ؟ لماذا ايها الجلاد ؟ دعنى ايها السفاك دعنى واخرج ولا ترنى وجهك الا يوم تنقذها وتعود بها

ثم هجم عليه وهو يصر على اسنانه ودفعه بكلتى يديه فلم يجد اوليفييه كلمة يقولها وخرج

وعندئذ وقف فرجوس وحده فوقعت عيناه على صورة لامرأته معلقة فى الحائط فجرى اليها وانتزعها وضمها الى صدره ثم قبلها ودموعه تنهمل كالسحاب وقال لم يبق لى الا انت . انت معينتى ونصيرتى وملجئى فى الشدائد . انت روحى وحياتى . انت النعيم والسعادة بين نوائب هذه الايام ...

وما قال ذلك حتى شعر كأن المكان يدور به وكأن بياض النهار يستحيل الى سواد فاندفع الى الباب صارخاً . الى الى ...

ثم ضرب الهواء بذراعيه وسقط مغمى عليه

الفصل الثالث عشر

طير يطير بغير جناحين

كان الشرطي ليلورين مولعاً بقراءة أخبار الذين اشتهروا بالحذق والمهارة في اكتشاف اسرار الجرائم الغامضة وكان يحدث نفسه انه سيكون واحداً من الذين يقرأ اخبارهم ويعتقد انه لاينقصه الا الفرصة التي تمكنه من ان يظهر كل قدرته وذكائه ليسجل التاريخ اسمه بجانب شرلوك هولمز الانكليزي ودوبين الفرنساوي. فلما عرف مقتل كولونا وظهر ان اسراراً تحيط به ظن ان الفرصة قد سنحت فسعى عند رئيسه حتى جعله رفيق لافلور في مراقبة بيت فرجوس ثم انتهز الساعة التي غابها عنه لافلور عند سونيا وهي تتأهب في غرفتها فالصق اذنه بباب المعمل واسترق السمع فوعى شطراً عظيما من اقوال الطبيب الشرعي وبعض محاورة النائب والاستاذ فرجوس فأدرك الى أين تتجه التهمة والطريق الذي يسير فيه التحقيق حتى اذا سجنت سونيا اعتقد أنها القاتلة وان ثمت سرا لم يكشف فاجتمع في المساء برفيقه لافلور وأخذ يجاذبه الحديث قائلا :

ماظنك في القبض على سونيا ؟

فتبسم لافلور وسأله وما ظنك انت ؟

قال ظني ان سراً غامضاً لايزال مجهولا

فضحك لافلور واجاب : دع التكهن الباطل فليس سجن سونيا دليلا الا على انها الجانية

قال انت تتوهم ذلك وتكتفي به ولكني اعتقد ان لها شركاء لايزالون في طي الخفاء

فسأله : وعلام تستند فى اعتقاد هذا

قال استند على انها لاتستطيع وحدها ان تقتل كولونا وما دامت لاتستطيع فلا بد لها من شركاء

قال لافلور وماذا تريد من ذلك

اجاب اريد انه يجب البحث عن هؤلاء الشركاء

فضحك لافلور وقال ولعلك تحدثك نفسك الكبيرة بالبحث عنهم لتكون البطل الخالد الذكر

فامتعض ليلورين وقال ولم لا

أجاب ولم لا ؟ لانك لاتزال طفلا فى المهد . فاصغ الى واعمل بنصيحتى واطفىء بيديك النار التى تشتعل فى صدرك لئلا تجلب على نفسك الهزء والسخرية

قال سوف ترى بعينيك فوزى ونجاحى وتحسدنى على ماأنال من الشرف والذكر الرفيع . انك لم تعرفنى بعد ولم تدر انى قرأت أخبار الغابرين أمثال شرلوك هولمز وتعلمت منهم صدق الفراسة والاستدلال بالاستنتاج

أجاب وهل تعرف يابنى ماهو الاستدلال بالاستنتاج ؟ انها لكلمة يسهل ان تنطق بها ولكن يصعب كثيراً ان تدركها وتعمل بها .

ثم أشار الى رجل جالس على مقربة منهما وفى يده صحيفة يطالعها وقال :

هاهو رجل أمامك فهل تستطيع ان تتفرس فيه وتستنتج من شكله ومنظره مايدل عليه وعلى مهنته

وكان ذلك الرجل يدحن ويشرب خمراً فجعل ليلورين يأخذه بنظراته من رأسه الى قدميه حتى مضت بضع دقائق فقال لافلور :

عسى ان تكون ظفرت بما تريد

أجاب : نعم فانى اتوسم فيه انه من رجال السباق وانه غنى متزوج من مدة قريبة بامرأة شقراء لاتصبغ شعرها جميلة ظريفة تحبه وتغار عليه

فاستلقى لافلور ضاحكا وكادت الكأس تسقط من يده وقال : عجيب

استنتاجك هذا فعلام بنيته

أجاب ها أنا أعلمك مالا تعلم ... انه يقرأ صحيفة من صحف السباق فهو اذن من رجاله . ثم هو مرتد بثياب أنيقة محكمة ويدخن لفافة لايقل ثمنها عن نصف الفرنك فهو غني . وها أنت ترى في يده خاتم الزواج جديدا فلا شك انه متزوج من مدة قريبة . ولو امعنت النظر مثلي لرأيت على صدره شعرا اصفر اطار الريح بعضه دافعا به الينا وها هو .....

ثم مد يده الى الارض واخذ شعرة صفراء واستمر قائلا وبما انه متزوج من مدة قريبة فلا بد ان هذا شعر امرأته وهو كما تراه اصفر فالمرأة ولا بد شقراء ثم ان الشعرة طبيعية اللون وتفوح منهـا رائحة زكية فصاحبتها غضـة الشباب لاتصبغ شعرها وتتطيب مرضاة لزوجها . واخيرا فان وجود الشعر على صدره دليل على ان امرأته قبلته بشغف وشوق عظيمين فهي اذن تحبه وتغار عليه لان الغيرة من دواعي الحب . هذا هوا كل ما في الامر وانت ترى ان ليس فيه من شيء غريب وان الاستدلال بالاستنتاج لم يخلق لشرلوك هولمز وحده بل لكل من له عقل وذكاء

وكانت الـكاس لاتزال مملوءة امامه فشربها واعتدل في كرسيه زاهياً معجباً بنفسه شامخا بانفه الى العلا . فقال لافلور : حقاً انه لمن الذكاء البعيد ان تستنتج من شعرة واحدة كل ماوصلت اليه وكاني بك لو رأيت شعر المرأة كله لاستطعت ان تعرف عمر جدتها وتحكم ان كان جدها يدخن او لا

أجاب ولم لا

قال لاعجب ان اراك يوما تضارع شرلوك هولمز وتفوقه فان من رزق مثل فراستك وبعد نظرك لايكبر عليه شيء قط

ثم قهقه فغضب ليلورين وقال : لماذا تضحك

اجاب لو علمت الذي يضحكني لضحكت مثلي ولسخرت من نفسك

قال وما ذاك

اجاب انى اعرف هذا الذى توسمت فيه حب السباق والغنى والزوجة الجميلة المحبة الغيورة . اتدرى من هو ؟ انه متزوج كما قلت ولكن زوجته عجوز شمطاء ذات مال وافر . وليس هو من رجال السباق ولكنه يراهن احيانا . اما الشعر الذى رأيته على صدره وشممت الروائح الزكية منه فليس لامرأته لانها سوداء الشعر بل هو للنساء اللواتى يتزين ويتطيبن عنده . فالخلاصة ان الرجل حلاق وامرأته عجوز وهما يقطنان بجانبى بيتاً لبيت

وفى الحال قام ضاحكا وترك ليلورين صامتا خجلا لا يقوى على التفوه ببنت شفة

مضت ساعة وليلورين جالس وحده فزال عنه الخجل وعادت اليه هواجسه الاولى فظن ان لافلور لم يفعل مافعل الا حسدا وبغضاً . وكانت الخمرة قد لعبت برأسه وزادته زهوا وخيلاء فقام الى حيث رئيسه فولمار وطلب اليه ان يأذن له فى البحث عن شركاء سونيا فى قتل كولونا فأذن له وفوضه ان يفعل مايريد توصلا الى هذه الغاية

وفى الصباح كان ليلورين مرتديازى شحاذ ومترقبا بجانب بيت فرحوس فلبث على ذلك ثمانية أيام بغير جدوى حتى أعتراه الملل ومن ثم رأى ان ينتقل الى شارع لندن ويترقب حول البيت الذى كان يسكنه كولونا معتقداً ان الجانين لا بد ان يظهر لهم حوله أثر . فلما ذهب ورأته خادمة الباب يقترب منها بثيابه الرثة القذرة ويستجديها انتهرته وقذفته بالماء فلم يبال وتقدم اليها وانبأها بحقيقته واستفسرها أخبار كولونا فأخبرته أنه سكن البيت شهرين ونصفاً وانه فى الليلة التى قتل فيها خرج فى الساعة الحادية عشرة حاملا رزمة من الاوراق ولم يعد . ثم أدخلته البيت فجاس الغرف فلم يجد شيئاً

وبينا هو خارج اذا بصوت يطرق اذنه فقال للخادمة : صوت من هذا فاجابت : صوت شحاذ أعمى لازم بيتنا منذ ثمانية أيام وهو لاينفك طول النهار يصدع الآذان باغنيته المزعجة

فخيل له انه يعرف ذلك الصوت وخرج يتعرف صاحبه فالفى رجلا هرما

قبيح المنظر أعمى العينين بالى الاطمار مستصحباً كلباً كبيرا فاغر الفم بادى الانياب فتوجس فيه شرا وجلس فى جهة مقابلة له ليتمكن من مراقبته . وبعد ساعة رأى الكلب ممسكا فى فمه آنية صغيرة والمارة يلقون فيها الاحسان حتى كادت تمتلىء فقام ومشى متلصصاً يريد ان يسرق مافى الآنية ليرى ان كان الاعمى يشعر به أو لا فما كاد يمس الآنية ببنانه حتى اهوى عليه الاعمى بعصاه وكاد ان يشج رأسه لولا انه اسرع بالفرار

قام بعد ذلك الاعمى يمشى وكلبه بجانبه فتبعه ليلورين وكان الوقت ظهراً فاعتقد أنه ذاهب للغداء . ولكن الاعمى لبث ينفذ من طريق الى أخرى ولا يقف حتى كلت قدما ليلورين وأوشك ان يقعد عن متابعته لولا ان شغفه بشرلوك هولمز كان يبعث فى صدره ناراً . وما زالا كذلك حتى أرخى الليل سدوله ولم يذوقا طعاماً وحينئذ وقف الاعمى عند حانوت صغير برهة كأنه يترصد الطريق ويخشى ان يراه رقيب ثم دخل مسرعا فوقف ليلورين ينتظره وقد ايقن بصدق فراسته هذه المرة وتأكد ان وراء ذلك التعامى خبراً

انتظر ساعتين طويلتين فلم يبصر أحداً خرج من الحانوت فخشى ان يكون له باب آخر فدار حوله متلصصاً فلم يجد غير الباب الذى دخل منه طريده فعاد يترقب على بعد الى ان خرج رجل فى قامة ذلك المتعامى ولكنه انيق الملبس جميل الهندام يضع نظارة على عينيه فأدرك انه طريده وكاد ان يطير من الفرح وآلى ان لا يتركه ولو برح به الجوع والتعب

مشى ذلك الرجل ومشى صاحبنا يخترقان الطرق الى أن تناصف الليل فلم يشعر ليلورين الا وهو فى شارع لندن قريباً من مسكن كولونا فأختبأ ولبث يراقب فى الظلام فرأى طريده جاء الى باب البيت وانتظر حتى فتح لداخل ووثب كالسهم فاختفى داخل البيت بغير أن يشعر به أحد . ففى الحال جاء ليلورين الى الباب وقرع الجرس ففتحته الخادمة التى عرفته فى الصباح ثم اتجه الى مسكن كولونا فأبصر الرجل يحاول فتحه بهدو وسكون الى ان دخل فاسرع باقتفاء أثره واختبأ خلف

الباب . وبعد ربع ساعة قضاها الرجل جاثماً في الغرف رآه يهم بالخروج فقال في نفسه ما أظن ذلك الشقي الا جاء ليأخذ اوراقاً كان يخشاها لأن فيها كل السر في مقتل كولونا . ولئن ظفرت به الآن فلقد فزت بالسعادة كلها .

وما قال ذلك حتى قرب منه ذلك الرجل فاهتز قلبه واعتراه شيء من الخوف وبحث عن سلاحه فلم يجده ولكنه تذكر قصة لشرلوك هولمز استعمل فيها المفتاح بدل السلاح فأخرج مفتاحه وانتظر حتى مر به فهجم عليه آخذاً بخناقه وماساً صدغه بالمفتاح وقال :

ويحك ان لم تطع وتمش أمامي قتلتك في الحال

فضحك منه وأجابه : حسبك ياليلورين لاتمعن في الهوس والجنون وارفع مفتاحك عن صدغي

قال أو أنت لافلور ولماذا جئت الى هنا

فضحك وأجاب جئت مثلك باحثاً فوقعت عليك كما وقعت عليّ

الفصل الرابع عشر

عود الى الرهان

مرسح الاوبرا حافل بالناس واصوات الموسيقى المشجية ترن فتشنف الآذان وتهز القلوب والنساء كأنهن كواكب تتألق نورا والسرور عام شامل . . . . .

انتهى التمثيل وخرج الناس زرافات زرافات ففاض سيلهم في الشوارع حتى ملأها واذا باثنين تقابلا وجهاً لوجه فقال أحدهما :

ها أنت يامورتير

فأجاب الثاني كيف انت يافيدلين

قال لماذا لم تقع عليك عيني منذ تلك الليلة التي شهدناها في بيت فرجوس.
لكأنك روعت واعتراك الوجل . فتعجب مورتير وسأله : وممن يعتريني الوجل
اجاب من فرجوس
قال ولماذا
اجاب : ألم تعلم انه استاء من مقالك الذي نشرته في الترميدور وجاء الى الادارة يبحث عنك ويطلب ان يبارزك
قال كلا لم اعلم ذلك الا الان فما الذي ساءه من مقالي ؟
أجاب انه عده قذفا
قال ولكني لم اقذفه ولم اعتد على كرامته ولم انقل ماقلته الا عنك
اجاب نعم نقلت عني ولكنك زدت وصفت الفول في شكل لاشك انه مم يعرض بكرامته . ومما لاريب فيه ان مقالك كان له تأثيرشديد في الرأى العام والقضاة الذين اعتبروا سونيا متهمة قبل ان يبدأوا التحقيق
قال لاتبالغ فلولا ان التهمة لاصقة بها مااعتبرت كذلك
أجاب ألم تر الى الصحف كيف نسجت على منوالك والى الناس كيف لاكوا بالسنتهم كل ماذكرته عنها والى القاضي جابيل كيف بدأ ففتش بيتها ويقال أنه فحص رسائلها ليعثر على ما كان بينهـا وبين كولونا والى أوليفيه كيف اتخـذ السبيل نفسها من بعده ؟ ولاحديث للناس الآن الا اختفاؤك عن فرجوس
قال ولعلهم يظنوني اختفيت رهبة منه
أجاب كلا ولكني انصحك ان تكثر من الظهور وان تتخلق بالشهامة
قال انك تعلم علم اليقين انى لاأخشى فرجوس وانى بارزت ثلاث مرات لدواع اقل من ذلك شأنا
أجاب علمت ذلك وبحثت عنك فلم أجدك
اجاب لم تجدني لاني رحلت الى الجنوب لاشهد قضيـة كافاريل واكتب للترميدور عنها يوما بيوم . وها قد وجعت ولا أخفيك انه يغضبني ان اسيء

الى استاذ نافع بعلمه معروف بآدابه وحسن سمعته كفرجوس فسوف اذهب الى قاضي التحقيق واشهد بكل مايرفع هذه الاساءة . وليس ذلك مني خوفا من المبارزة فلو اراد فانى على قدم الاهبة لمبارزته

أجاب لاأظنه يبارزك الآن فقد اصبح فى حالة يرثى لها

قال : لعله مريض

اجاب : كلا ولكن الاحزان فتت فى عضده وكسرت ذرعة وقصمت ظهره اذ اصابته المصائب فى بنته وامرأته معاً

قال : وما لامرأته ؟

أجاب : أصابتها الحمى الحصبية وسمعت انهم يخشون على حياتها .أما سونيا، فقبض عليها وسجنت فى سان لازار

قال : اذن فأنا لم اخطىء المرمى لان سجن سونيا دليل على صحة اتهامها

أجاب : وما يدريك ان سجنها لم يكن الا احدى نتائج مقالك وان القضاة لم يعتبروها متهمة الا بعد ان امتلأت ادمغتهم وتشربت عقولهم باقوالك .انك لتحمل وزرا عظيما بما جنى قلمك على سونياواسرتهافانى اعرف الناس بها وأخبرهم بأخلاقها وآدابها ولئن كنت رأيتها ترتاح الى تودد كولونا فانى اعتقد انها بعيدة كل البعد عن ان تجرى معه حيث يشاء الهوى الطائش والشباب النزق وما أظن الا انها ستؤخذ ظلما فى دمه ويومئذ يقع دمها عليك فليؤنبك ضميرك ان كان لك ضمير حى

فاصفر وقال : ربما كنت صادقاً فانني ذهبت الى شىء من الغلو فى مقالى وطرقت باب التهمة بغير برهان . على انى لم أرد اساءة لاحد بل اردت ان أوشى المقال بما يزيد قراءه شوقاً وشغفاً ولم اكن أظن ان قلمى يحفر هاوية كالتى وقعت فيها اسرة فرجوس . ومع ذلك . . .

ثم سكت مفكراً فسأله فيجلين : فيم تفكر

قال افكر فيما يجب ان افعله منذ غد فلئن كنت قد اسأت الى سونيا فان من

واجبى ان احسن اليها بقدر هذه الاساءة ان صح انها بريئة وانها اخذت بغير جريرة . انك تستفز ضميرى فلتعلمن أنه احيا الضمائر وأشدها قوة . ولاأظنك نسيت الرهان الذى بيننا فسأعمل للاثنين جميعا

وقال وماذا تنوى ان تعمل ؟

اجاب مازلت اعتقد بأن كولونا مات قتيلا ولست ادرى ان كانت سونيـا هى القاتلة او غيرها فان كانت القاتلة فقد استحقت ماأصابها وان لم تكنها فلابد لى ان اعرف القاتل لاحسن اليها واكسب الرهان

قال أراك تريد ان تضرب طيرين بحجر واحد

اجاب هو ذلك

قال وكيف تصل الى معرفة التحقيق وهو من الاسرار القضائية التى لاتباح لاحد

اجاب سـأصل اليه وعلى كل حال فانى مابرحت اكرر القول بأن كولونا مات قتيلا

قال وانا اكرر قولى بانه انتحر أو مات بعـارض طبيعى ولا تزال عشرة لاف الفرنك فى المصرف ضامنة لما أقول

الفصل الخامس عشر

غرام بعيد المنال

في شارع رويال خياط شهير يسمى فركين يأتيه أعلياء أهل باريس رجالا ونساء ويحملون الازياء التي تخرجها يداه بعض التحف التي بها يعجبون ويتفاخرون

عند هذا الخياط امرأة فاتت الاربعين بادنة قصيرة تقيس ثوبا لم يعجبها الا قليلا فدخلت عليها فتاة في السابعة عشرة من عمرها هيفاء معتدلة القد دقيقة الاعضاء رشيقة تختال في ثوب انيق محكم فسحرت بنظرها وغضبت وقالت لفركين

ألم اوصك ان تصنع لي مثل ثوب هذه الفتاة فاين ماصنعته لي مما أراه عليها

فتبسم وأجابها لم اخالف امرك ولا فرق بين الثوب الذي عليك وما على لور الا انك بادنة وهي نحيلة

فاستشاطت المرأة غضبا ونظرت اليه بعينين تتقدان ناراً وقالت : انك غير ماهر في حرفتك فان فارقا كالذي تذكره لا يجعل ثوبا جميلا وآخر قبيحاً واولى ان تقول انك عاجز عن صنع ماأريد

ثم نزعت الثوب ورمته بغضب فتلقاه فركين وقال :

يشق علي ان اراك غضبى فان لم يكن بد من احتذاء ثوب لور فاني صانع لك مثله في يومين

فانبسطت امرتها وقالت : سأمر بك بعد غد

وجاء اليوم الموعود فلبست الثوب الجديد تقيسه فلم يعجبها وازداد غضبها لانها لم تجد نفسها فيه مثل لور وابت الا ان تحكيها فأوصت بثالث ورابع وخامس فلم يفلح شيء وبقيت بعيدة على ان تحاكي لور أو تدانيها

كانت لور لاريف ابنة ابوين كريمي العنصر موسرين عاشا في رغد وهناء

لى ان نزلت بهما احدى نوازل السوق المالية (البورصة) فبدلت صفوهما كدرا وراحتهما تعباً وغناها فقراً فماتت الام حزناً وكمدا وبقى الاب لاريف يعانى مع ابنته لور اوصاب الدهر أياما ثم رأى أن يشتغل بالموسيقى فبذل جهده ولـكنه لم يستطع ان يكسب الا القليل الذى لا يقوم باود اثنين واذ كانت لور لم تتعلم صناعة فقد رضيت على كره منها ان تشتغل عند فيركين بمرتب ضئيل .

واذ كانت على جانب عظيم من الجمال والاعتدال فقد اتخذها فيركين وسيلة لسحر النساء بازياء يخترعها من يوم لآخر ويلبسها اياها فيعجبن بها وينهلن عليه . لذلك كانت ترتدى فى النهار افخر واجمل الثياب ثم لا يجىء الليل حتى تعود الى ثيابها القديمة الباليـة . ولم يكن الاعجاب بها قاصراً على النساء بل كان الرجال ولاسيما الفتيان يتحببون اليهـا ويتقربون منها ويدورون حولهـا اينما دارت حاسبين انها كغيرها من البائسات اللواتى تضطرهن الفاقة الى التماس الرزق فى سوق الابتذال . ولـكنها صانت نفسها ولم تلتفت الى أحد ولم تفكر فى سوى ابيها الشيخ الذى اقعده الكبر والضعف حتى عن مزاولة الموسيقى واصبحت حياته حملا على ظهرها .

ذهب يوماً مورتير الى فيركين لا ليخيط ثوبا ولكن ليحدثه فى قضية هامة كانت حديث اهل باريس نشب الخصام فيها بين حائك وامير فراى لور وأعجب بها وصبا اليها قلبه ومن ثم شرع يتودد اليها ويتعرف اخبارها فلما علم انها بائسة وان ليس لها من الدنيـا سوى والدها المقعد الذى تقوته بكسبها القليل توسم فيها اشرف العواطف واسما القلوب فازداد بها شغفاً وأراد ان يفاتحها بحبه .

ولم تكن لور تجهل ان عينيها صوبتا الى قلب مورتير سهاما صائبة واشعلتا فى صدره نيران حامية ولـكنها كانت تحسبه كغيره من الذين طارحوها شكوى الوجد لا لغاية سوى اللهو والتغرير فلم تصغ اليه الى ان لقيها ذات ليـلة وهى خارجة من عند فيركين فمشى بجانبها ودار بينهما الحديث فقال :

هل يسمح لى ان أعرف لماذا تعرضين عنى ولا تتلقين الـكلمات الصادرة

من قلبي الا بالامتعاض والتذمر

اجابت لانى اريدك صديقا ولا اريدك ممن يلعبون بعقول الفتيات

قال معاذ الله ان اكونْ منهم ولست أبطن لك الا الاخلاص والوفاء والحب الصادق . ولقد علمت عنك آسمى العواطف واجملها فغريب ان تقابلى عواطفى الشريفة بالاعراض

فسألته وما برهانك على شرف عواطفك

قال برهانى انى لا آبغي منك غير الزواج فان رضيت فهو حسبي

فانتفضت انتفاض العصفور بلله القطر وسكتت . فعاد الى الكلام قائلا :

ألا يكفيك هذا البرهان ؟ اذن فاطلبي ماتشائين

ولكنها لم تجب ايضا واعتراها الخجل فقال :

بماذاأفسرهذا السكوت ؟ بالرفض ام بالقبول ! انىلاأريد الا كلمةواحدة فانطقى بها . قولى نعم أو لا

فترددت طويلا ثم اجابت : لا

فارتاع واندهش وقال لماذا

فعادت الى السكوت فقال أتحسبيني . لااعرف لماذا ترفضين يدى ؟

فسألته وما يدريك ؟

أجاب اعرف يقينا ان لى فيك عدو

فاحمرت وقالت ولكني أقسم لك . . . .

فقاطعها وأجاب لاتقسمى فلست اعنى ان لك عاشقا تحبينه بل أعنى اباك

قالت وكيف يكون أبى عدواً لك

اجاب لانك تخشين اذا تزوجت ان تتركيه بين انياب الفاقة والفقر فتفضلين ان ترفضى الزواج لتبقى بجانبه . ولكنك مخطئة فى ماتفعلينلان الزواج واجب كل فتاة شريفة تريد ان تصون نفسها . ومن الظلم انتضحى شبابكهذا الغض وهو مما لايعوض . ولقدكان ابوك شابا فأحب وتزوج فلماذا لاتتشبهين به .

قالت ولكنه حينما كان شابا لم يكن يعول أحداً وكان حراً من كل قيد .
أما أنا فعلى ان اعوله ولا يمكن ان أتركه وحده

أجاب حبذا هذا الحب الشريف غير انك تستطيعين ان تكلى امره الى احد الملاجىء

قالت كلا لست افعل ذلك قط

اجاب وما رأيك فى الزواج على ان يمكث معنا

فاهتزت سروراً ودهشة وقالت أترضى بذلك حقاً

أجاب : نعم

قالت ولكنك تنسى شيئاً آخر

أجاب وما هو

قالت تنسى انى بعد الزواج اضطر الى ترك فيركين ويكون عليك أن تعول ثلاثة وأنت رقيق الحال

أجاب صدقت ولكن سوف اضاعف عملى حتى احصل منه الكفاية

قالت لاتتعجل يامورتير ولا تمن نفسك بالمحال الى ان يغير الله حالا بعد حال .

اجاب وهل نسيت انى ورثت عشرة آلاف فرنك

قالت لم انس ولكن هل نسيت انت ايضا انك راهنت بها وقد تخسرها غدا

فعض على أصبعه واعتراه شىء من الذهول واجاب

نعم راهنت بها فى ساعة طيش ولست براجع عن الرهان لانى موقن بالربح

قالت انتظر اذن حتى تربح

اجاب فان خسرت

قالت يفعل الله مايشاء

اجاب كأنك اذ ذاك تمنعين عنى الزواج

قالت لست أمنعه عنك وانما لااريد ان نعلق كلانا آمالنا بما أراه مستحيلا

أجاب انى اذن اعدل عن الرهان واكتفى بعشرة الآلاف التى لى

فتبسمت وقالت كنت احسبك اشرف من ذلك نفساً . ومع ذلك فكيف تعدل عنه بعد ان ارتبطت به مرتين متواليتين مع فيدلين ولو فاتحته الآن بالعدول لاتخذ ذلك حجة عليك وعده ربحاً له وطالبك بالرهان ؟

فسكت ولم يجب واستمرت تقول :

ثم ان عليك واجبا أدبيا فوق واجب الرهان فانك قد اسأت اساءة كبرى الى فتاة عرفتها فى صغرى وارتبطت معها بروابط المحبة

فسألها : لعلك تعنين سونيا

اجابت : نعم

قال وكيف عرفتها

أجابت كانت رفيقتى فى المدرسة فمكثنا معاً ثلاث سنوات ثم فرق الدهر بيننا بضع سنين الى ان علمت بالخسارة التى أصابت والدى فاوقعتنا فى يد البؤس فبحثت عنى حتى اهتدت الى وكانت الى أيام قليلة تعزيتى وسلوانى ومعينى . ولعمر الله لولاها ولولا ماوصل الىّ من فواضلها كل هذه الاعوام ماستطعت ان أعول نفسى ووالدى معاً وأنت تعلم ان كسبى أقل من القليل فهى التى اخذت بيدى وشدت ازرى وحفظت ماء وجهى ان يراق

قال تالله لو علمت ان لها بك هذه الصلة ماأسأت اليها . على انى انبئت أمس ان التحقيق أثبت عليها التهمة فما هى اساءتى اليها ؟

أجابت ان لم يكن الا تشهيرك بها و بسيرتها من أجل رجل ايطالى تأكد الآن انه مزور نصاب لكفى

قال ألم أخبرك فى الصباح انى اعطيت فيدلين ميثاقاً بالتكفير عن هذه الاساءة

أجابت ذلك ماانتظره منك فان انت كفرت فانى لك كما تهوى

قال ولكن ألا تجدين فى هذا التكفير مايعارض الرهان الذى بينى و بين فيدلين

أجابت واية معارضة بينهما

قال لانه ان صح وثبت ان سونيا التى وجدت مع الجثة بريئة فمن الصعب

ان يظهر لكولونا قاتل ويكون منتحراً فاخسر رهانى وتفوتنى أمنيتى الكبرى وهي الزواج بك

أجابت دع الرهان ولاتحفل به فها أنا أقسم لك ان لو خرجت سونيا بريئة وردت اليها سمعتها الطيبة لما حال بينى وبينك حائل قط

قال حقاً انك من المروءة ومعرفة الجميل فى منزلة ليس لها مثيل ولعمر الله لست أرضى وأنا أحبك وأعشق آدابك ان أكون أقل منك شهامة ومروءة فلأظفرن بالرهان ولتخرجن سونيا بريئة ان كانت كذلك . هذا هو عهدى خذيه واكتبيه فان وفيت به فالزواج والا فلا تنظرى الىّ واقذفى بى من حالق

فاشرق وجهها نورا ومدت اليه بنانها فتلقاها فى يمينه فرحاً مسروراً وقبلها فقالت :

اذهب الآن فى ذمة الله أنت وعهدك ولا تجعلنى انظرك قبل أن تبرأ سونيا

أجاب هو ذاك

ثم أدار وجهه وانطلق لايلوى على شيء

الفصل السادس عشر

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

خرج أوليفييه بعد ان طرده فرجوس خاشع الطرف مكروبا يفكر فى ما كان فلا يدرى كيف طاوعه لسانه وأمر بالقبض على سونيا ولا كيف وقف جامداً لا يتحرك ومدير الشرطة والنائب يسيران بها الى السجن ولا كيف استطاع ان يقيم بعد ذلك وجهه فى وجه أبيها طالباً منه الصفح والمغفرة

الصفح والمغفرة !!! أى جنون هذا ؟ أيحرج سونيا ويشهر عليها الحرب العوان ويضيق عليها مذاهب القول مكذبا اياها مصدقا تيتار ثم يحثها ويستنهضها ويزخرف لها الكلم ويغريها على الاعتراف واعداً اياها بحفظ الدعوى حتى تعترف ثم ينقض عليها كالرخم فينزعها من أحضان أبيها ليسوقها بين شرطيين الى السجن حيث تعاشر الرعاع والمجرمين . فلا هو الذى رثى لحزنها ولا الذى هزته دموعها ولا الذى أشفق على أبيها وأمها ولا الذى وفى بالحب لها وقد كان يزعم فيما مضى انها ريحانه وراحه وروحه — أيأتى كل ذلك ويطلب الصفح والمغفرة ؟؟؟؟

وممن يطلبها ؟ من أبيها الذى احرقته اللوعة فيها ؟ من أبيها الذى رآها تنتزع قسراً من احضانه لتفارق بيتا شبت وتربت فيه راضية منعمة فتسكن بعد ذلك سجنا تكتنفها فيه الهموم والاوصاب ؟ من ابيها ذلك الرجل الذى تضرع فما اجدت ضراعته وبكى فما افاد بكاؤه وذل واستغفر وهو العزيز النفس فما اغنى عن سجنها ذله واستغفاره ؟؟؟

أليس هذا جنوناً ؟ الا يعذر فرجوس لو لم يكتف بطرده واراد ان ينتقم منه ويمثل به اشنع تمثيل ؟

وهل غاب عنه انه سبب هذه المصائب كلها ؟ ألبس انه هو الذى بدأ فنفر

سونيا من كولونا بتلك الورقة المشؤومة ثم عرض عليها حبه فقبلته وكان بعد ذلك ماكان ! انسى انه لو لم يفعل مافعل لبقيت سونيا مقيمة على حبها لكولونا ولاقترنت به فلم يكن ثمت من داع الى جريمة ولا تحقيق ولاسجن! فهو الذى دفعها الى الجريمة وهو الذى غرها حتى اعترفت ـ ولعلها لولم تعترف لوجد سبيل الى الشك فى تهمتها ـ وهو الذى سجنها . فهو المجرم وهو القاضى وما يزعمه من الحب لها هو الكل فى الكل

واى حب هذا الحب ؟ اليس خيراً منه الحقد الأسود كما قال فرجوس ؟ ايجرأ الآن ان يقول امام ذمته وضميره انه يحبها وهو الذى جلب عليها كل هذه المصائب ؟ وأين هو منها وقد كان هيناً عليها ان تبوح فى التحقيق بالذى ارشدها الى حقيقة كولونا ولكنها لم تفعل حفظا لكرامته والعهد الذى بينها وبينه !

أين هو منها وهى تسمعه يأمر بالقبض عليها فلا يدفعها ذلك الى كلمة سوء تقولها عنه ولو ارادت أن تقول لوجدت كلمات وكلمات !

ولكن كلا ثم كلا . انه يحبها . نعم يحبها وانما هى الغيرة دفعته مكرها الى التعرض لكولونا وتنفيرها منه . هى الغيرة جعلته يحمل عليها ويضيق فى وجهها مذاهب التحقيق . هى الغيرة العمياء انهت ارادته واوعزت اليه ان يغريها على الاعتراف . هى الغيرة ذهبت به لان ينصبها العداء وبعثت فيه القوة حتى استطاع ان يأمر بسجنها فهو يحبها ولكنه يغار فان يكن من ذنب فذنبه لدى الاقدار

اليست الأقدار هى التى سولت لديك الجن ان يقتل حبيبته غيرة عليها فلما قتلها ندم وبكى وانشد

ياطلعة طلع الحمام عليها	فجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفى فى مجال خناقها	ومدامعى تجرى على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتى من شفتيها

ثم لبث يندبها ويرثيها الى ان مات . فهى كذلك التى قضت على أوليفييه

إن يكون حبيب سونيا وان يكون اليد التى تبطش بها والمعول الذى يحفر لها حفرة الفضيحة والهلاك .

وليت هذا كل مافى الامر بل لايزال عليه أن يتم التحقيق ويستكشف البقية الباقية . فهل يعطى صبراً ليرفع عينيه فيها مرة اخرى ويجادلها ويعود الى استنهاضها للاعتراف بالطريقة التى قتلت بها ؟

لا . لا ان عبئاً كهذا التنوء به العصبة فكيف به وهو حبيبها المذنب اليها اولا وآخرا

لا . لا . لن يكون ذلك قط وليذهبن غداً الى ابيه يشاوره فى رد نفسه عن التحقيق

. . . .

ذهب الى أبيه والدموع تترقرق فى عينيه وشرح له الى أين أفضى به سوء المنقلب وقال :

. . . لقد اصبحت لاأجد فى نفسى جلداً لاستئناف التحقيق فدعنى اطلب الى النائب ان يقيلنى منه

فأظهر أبوه الاسى والاسف واجاب : وبأية حجة تطلب اليه ان يقيلك

قال : سأطلعه على جلية الامر

اجاب : كان ينبغى ان تطلعه وتعتزل التحقيق من أول يوم كما أشرت عليك . فأما الآن وقد اخفيت عنه ما كان يربطك بها ووصلت فى التحقيق الى ما وصلت فحاذر ان تطلعه على شىء لئلا يعلم انك خدعته فلا يأمن جانبك مرة أخرى

قال : وما الحيلة اذن

اجاب : لاحيلة الا الصبر والسير الى الامام

قال ولكنى عدمت الصبر ومن الظلم ان احمل مالا أطيق

آجاب : انت الذى أردت ذلك لنفسك

قال : اردته لانى لم اكن اظن الايام بالغة بى هذا المبلغ . وهبنى اذنبت فحسبى مالقيت الى اليوم من جراء هذا الذنب

اجاب : لست ادرى لماذا تمتنع عن اتمام التحقيق وتجلب على نفسك امام

النائب خزيا وعارا ؟ الم تسمع باذنيك اعترافها بانها خانتك وثلمت شرفها مع رجل ايطالى ساقط ؟ ألم تسمع اعترافها بالقتل ! فما الذى ترجوه منها ؟ لقد قطعت كل رابطة بينها وبينك وأصبحت أجنبية عنك فمليك ان تتم التحقيق الذى أخذت فيه وأعلم انى لاأسمح لك قط ان تسر الى أحد انك كنت تهوى فتاة ساقطة مثلها وتريد الزواج بها

فتقاطرت دموعه وقال : ولكنى مازلت أحبها

فوثب أبوه مأخوذاً وأجاب : ماذا تحبها ؟ كنت أظنك تحقد عليها وتزدرى بها

قال : أنا أزدرى بها من غير شك ولكنى بالرغم عن ذلك أحبها . ان الحب يا أبت ليس من الهنات الهينات ولئن كان بدؤه لهواً ولعباً فحمله من أثقل الاحمال وأهون من نزعه انتزاع الارواح . لوددت وحقك ان أمزق بيدى قلبى هذا الذى يحبها ولكن ماذا اعمل وقد أرادت لى الاقدار ما أنا فيه . فانا وان عرفتها قاتلة فأنا اعرفها كذلك لم تفعل مافعلت الا لاجلى فلماذا أحقد عليها ولماذا لاأحبها

أجاب : لايذهب بك الطيش الى هذه الظنون فانك لاتستطيع ان تحب امرأة شهر بها الى هذا الحد ولا مفر لها بعد اليوم من قضاء بقية حياتها فى السجون

قال : بل أحبها وسأحبها الى يوم اموت أو تموت وما عشت لاأنسى انها من اجلى قضت على نفسها وأضاعت حياتها

فاكتأب وغشيت وجهه سحابة حزن وقال :

وكيف قضت على نفسها من أجلك

قال : أوليفييه نعم فلولا انى كشفت لها حقيقة كولونا وفاتحتها بحبى واطمعتها فى الزواج بى لما قام فى نفسها ان تتخلص منه وتستر زلتها معه بقتله

أجاب أبوه : هذا يابنى وهم يدفعك اليه الحب الاعمى فلقد كان فى طوعها ان ترفض طلبك وتبقى على ما كانت عليه مع كولونا ثم كان فى طوعها كذلك اذا ابت الا خديعتك ان تشترى سكوته ولكنها أخذت طريق الطيش والجنون فسولت لها نفسها ارتكاب الجريمة فهى وحدها الجانية وليس لك من ذنب

قال : ولكنها يوم زلت مع كولونا كانت تحسبني معرضاً عنها غير راغب فى الزواج بها فكانت تكتم حبى فى قلبها وتحاول ان تتناساه بالانصراف الى الملاهى والملذات . فلما كلمتها وعلمت انى احبها فرحت ولم يسعها الا ان تظهر ما كان كامناً فى فؤادها واضطرت بحكم الهوى لا بدافع التغرير ان تجيب طلبى و تطرد كولونا ثم ان تقتله اتقاء لتهديده ووعيده . نعم انها لم تحاول ان تشترى سكوته ولعلها لو فعلت لنالت غرضها ولكنها عصبية المزاج سريعة الغضب قليلة الصبر فما كادت تعلمه يهددها حتى فكرت فى قتله وقتلته . فهل ذنبها انها رزقت قلباً أحبنى ورغب فىّ أو انها خلقت سريعة الغضب قليلة الصبر ؟ انما الذنب ذنبى أنا الذى جئتها فى الساعة التى كانت فيها على وشك ان تقترن بكولونا وكرهتها فيه وأطمعتها فى نفسى

أجاب : انه ليحزننى ان اراك فى هذه الحال من اليأس فقل لى ماذا تريد

قال : اريد ان تأذنى بالتنحى عن اتمام التحقيق

اجاب : ماعهدتك قط شديد المراس كثير العناد ولا عرفتك الا تحكم العقل والروية فى اعمالك فهل فكرت فى العاقبة

قال : نعم فكرت فيها

أجاب : لو فكرت فيها جيداً لعلمت انها تضرك فى حياتك المستقبلة

قال : ولكنى علمت ايضاً انى لا استطيع ان اقيم عينى فى وجه سونيا واناقشها مرة اخرى

أجاب : وأى فضل للشهامة ان لم يصبر المرء على المكاره ؟ ثم اين حبك للحق والعدل واين ماورثته عن ابيك من الاباء والشجاعة ؟ بل أين غيرتك التى كنت من قبل تقسم انها ستجعلك اقسى عليها من سواك ؟ أنسيت ذلك كله ؟ الم تقر لك انها كانت تحب عدوك فيها ؟ الم تعترف انها كانت تريد ان تخدعك ؟ دع هذا اليأس واعلم بان القاضى ان لم يملك زمام عواطفه ويسلط الحق على قلبه وينظر الى الناس جميعاً بعين واحدة فهو خائن يخون واجبه وذمته والله والناس . ان من الوهم ان تظن فى نفسك عجزا عن النظر الى سونيا ومناقشتها فاصغ الى واعمل بنصيحتى وثق بان العاجز الجبان هو الذى يظن نفسه كذلك كما ان الشجاع الجرىء هو الذى

يحتقر الوساوس ولا يحفل بالمخاوف

قال قد كانت تنفعني قبل اليوم هذه النصائح فأما اليوم فلا

فاستشاط ابوه غضباً واجاب وهل صمت اذناك اليوم او اعتراك جنون

قال لا هذا ولا ذاك ولولا انني ابغي رضاك ولا اريد ان اعمل عملا لاتأذن به ماجئتك الآن ولا عرضت عليك أمري

فظن حان دي لورا ان ابنه رجع الصواب واهتدى بنصائحه فقال :

نعم الابن ابن يعمل باقوال ابيه وينسج على منواله ويأخذ بارشاداته

فقطب أوليفييه حاجبيه وقال : انني لاأجهل ان نصائحك حق وانك المثال الذي يجب ان آخذ به ولكن لي قلباً لايطاوعني فهب لي هذا الذنب ولا تقس علي وامنحني الاذن الذي طلبته منك

فهب أبوه واقفاً وقد تحول الى الغضب وقال : كلا لست امنحك اياه قط

قال اوليفيه وما الحيلة اذن

فدار أبوه بوجهه ومشى الى الباب وقال : لاحيلة الا ان تستمر في التحقيق

فجرى اوليفييه خلفه ليضرع اليه مرة اخرى فلم يدركه ورجع بصفقة المغبون

الفصل السابع عشر

فأوله موت وآخره قتل

ترك أوليفيية بيت أبيه وعاد الى بيته فى شارع بايار وكان الوقت قد امسى فارتمى على سريره متعباً منهوك القوى وجاءه الغلام يدعوه الى المائدة فرده ولم يقم واستسلم للافكار فتنازعته الهواجس وتقسمته الهموم

فكر فى ماسيجره عليه عناد أبيه فتمثل سونيا واقفة أمامه حانقة ناقمة ترمقه شزرا ويكاد لسانها ينطلق متهما اياه بالخيانة قاذفا فى وجهه شهب المقت والغضب . تمثلها كذلك ونظر الى نفسه وهو يهم بمحاورتها وسؤالها عن القتل فارتعب وارتعد وازداد يقيناً انه لايستطيع

اذن ما الحيلة وأى الامرين يختار ؟ أيعصى أباه وهو لم يعصه قط فى حياته ! أيذهب رغماً عنه الى النائب العمومى فيطلعه على ما بينه وبين سونيا ويتنحى عن التحقيق ؟ وماذا يقول للنائب ؟

أيقول انه يحبها ولا يقدر ان يراها معذبة ؟ ايقول انه أس مصائبها وسبب بلائها ؟ اذن فكيف سكت وصبر الى اليوم ؟ كيف خالف القانون وخدع النائب؟

وماذا يقول عنه زملاؤه والناس ؟ سوف يزدرونه ويعيرونه بحبه الاثيم . سوف يعلمون انه كان نداً للص زنيم . سوف يقولون علمها كيف تعترف وتدعى الدفاع عن نفسها لتنجو من العقاب ولولا النائب امره ان يسجنها لما فعل ولوجد مناصاً لتحوير شهادة الطبيب الشرعى . سيقولون كل ما تسوله لهم ظنون السوء وهى اذا اشتملت قذفت ما تقذف البراكين من نار وحميم

لا . لا . انه لايعرض بنفسه الى هذه المهانة ولا يرضى ان يزدرى وتقال عنه تلك الاقاويل .

اى الشرين اهون واى الامرين يختار ! هما ناران لذاعتان بل سيفان مشهران كلهما قاطع وكلهما رسول الحمام ...

قام بعدئذ الى منضدة فى زاوية الغرفة فاخذ حقيبة صغيرة فتحها بيدين مرتجفتين واخرج صورة فى اطار من ذهب لم تكد تقع عليها عيناه حتى استبقت عبراته واخذته الرعدة ثم وضعها على شفتيه وقبلها بشوق عظيم . .

تلك هى صورة سونيا طلبها اليها قبل الاحتفال بيوم واحد فتبسمت واحمرت وناولته اياها يداً ليد . تلك صورتها قبلها فى ذلك اليوم عشراً واشترى لها اطاراً ذهبياً ثم احتفظ بها فى الحقيبة ولم يرها من ذلك الحين .

ماأسرع تقلب الزمان واشد صروف الحدثان ! منذ ايام كان يأخذ الصورة فرحا مسروراً . كان يشترى الاطار الذهبى ويستقله لها . كان يناجيها بنعيمه وسعادته كان يقبلها باسما محدثاً نفسه بامال واسعة . واليوم يأخذها حزينا ويقبلها باكياً ولا يناجيها الا بالهموم والاشجان ! ! ؟

قبلها مراراً وجلس على مقعد فبكى وانّ واشتكى وهاجت به حرقة الوجد واضطرمت نيران الاسى فلم يعد يملك نفسه واندفع الى غير حد فى النشيج والعويل

سونيا ؟ حبيبتى اين تبيتين الآن ؟ ماذا تعلمين ؟ تكلمى . قولى ...

كيف انت فى السجن ؟ ارأيت هذا الخائن أوليفييه كيف غدر وادعى لك الحب زورا ؟ ارأيت كيف قضى عليك ان تذلى وتهونى وتبكى وتحزنى وانت التى لم تعرف فى حياتها ذلا ولا هواناً ولم تنظر قط باكية ولا حزينة !

مضى عليك فى السجن يوم وبعض يوم فماذا فعلت فيهما ؟ من من القتلة المجرمين متع عينيه بالنظر اليك ؟ من من الحراس دنا منك زاجراً او ناهياً ! اى وحش ذلك الذى وضع الاغلال فى يديك الناعمتين ؟

هل ذلت نفسك للسجان وصرت تأتمرين بأمره وتنتهين بنهيه ؟ هل الفت ان تكونى كاحقر الناس يؤتى اليك بغير ماتطلبين وتشتهين ! هل فكرت فيمن قضى عليك بذلك كله . . . .

ثم ضاق صدزه واشتدت آلامه فقبل الصورة حتى بللها بدموعه وزفر وعاد يستسلم الى الافكار السوداء .

جرت به الوساوس شوطاً بعيداً واستولى عليه الوهن وفارقته شجاعته وملأ الحزن جنبيه وتحكم اليأس فى قلبه فرأى الدنيا خيالا زائلا والحياة شقاء ونكدا والانسان بينهما صورة تغدو وتروح لاعبة بها الاقدار

كتب الشقاء على الفتى فى عيشه وليبلغن قضاءه المكتوبا

يولد الطفل ويشب ضاحكا لاعباً تتلقاه قبلة وتشيعه ابتسامة أيامه لهو ولياليه راحة لايعرف هماً ولا غماً ولا تعباً ولا حباً حتى اذا تربى وشب عن الطوق بدأ يعانى الهموم ويعالج الاوصاب ثم لايزال فى جهاد وعناء حتى يعيى وينوء بالعبء الثقيل ظهره فتطويه فى جوفها الغبراء ليهدأ ويرتاح . فما الدنيا الاغرور ولو مات الناس اطفالا لانتقلوا من نعيم الحياة الى الراحة الكبرى راحة الموت

الموت ! الموت ؟ . . . .

. . . .

جفت دموعه وهدأ روعه وسكن ثائره واستحال كل شىء فيه الى ضعف وذهول.

ماذا ؟ الموت ؟ ... ولم لا ؟ ..... هل بقيت له فى الحياة آمال ؟ ..... وما حياة كلها عناء وبلاء !

مرحباً بالموت والعيش دجا وحمام المرء كالفجر سطع

هكذا يفعل اليأس فى النفوس فينسيها واجبها نحو ذاتها وربها ويضرب بينها وبين الامل سدا . وهى لو صبرت وليست الشجاعة الاصبر ساعة لتبدلت الحال ولتفتحت أبواب الرجاء فما لحال فى الدنيا دوام

مرت كلمة الموت أول مرة بذهنه فازعجته ثم ردد البصر فيها فاعجبته ونوى ان يخرج من دنياه بالموت

سيموت نعم سيموت ليخلص من هذا الحزن النازل بكلكله فوق صدره سيموت لينجو من عذاب ضميره . سيموت قبل ان يرى سونيا مقضياً

عليها القضاء الاخير

قام فى الحال الى اوراقه فرتبها وكانت أوراق التحقيق عنده فوضعها الى جانب ثم شرع يكتب فكتب الى ابيه ماياتى :

سيدى الوالد

ستقرأ كتابى هذا وانت تندبنى فالصفح اسألك والمغفرة اطلب اليك . اغفر لى ماتقدم وما تأخر من ذنبى فما انا الا لعبة لهت بها صروف الدهر زمناً حتى اذا آلمنى لهوها اخترت ان تطوينى بطون الايام

« اغفر لى انت وامى فتالله ماأسأت للخلق جميعاً فى حياتى كلها بقدر ماأسيء اليكما غداً اذ تعلمانى قتيلا وتجدانى مضرجا بالدم ولكن هى المقادير تسوق الناس رغم انوفهم الى حيث قدر لهم فى أم الكتاب . فتجاوزا عن اساءتى واسبلا عليها ستراً من الحلم والصفح واشملانى بالرضاء وقولا يرحمه الله

« والدى . مع هذا الكتاب كتاب لسونيا فوصيتى اليك ان تعطيها اياه دون ان يشعر بذلك احد « ولدك أوليفييه »

ثم كتب :

« حبيبتى

« نعم حبيبتى . فانى ياسونيا مازلت أحبك وسأزهق روحى بيدى بعد ساعة حزنا ويأساً وعقابا لخيانتى اياك

« هبينى ياسونيا شيئاً من الحلم واسمعى احدثك بأمرى فهذا الذى اكتبه آخر ماتخطه يمينى فى الحياة

« لقد تحكمت فيك وفىّ حوادث الايام وفرق بيننا الدهر فما أدرى الآن لمن الذنب ؟ لى أو لك او لنا كلينا أو لالى ولا لك .

« احببتك ياسونيا حباً جما فدفعتنى الغيرة العمياء الى تنفيرك من كولونا فطردته ثم قتلته ارضاء لحبى . فوالله لست جانية وهل تجنى التى خدعها مخادع لئيم وثلم شرفها فلما علمت الحقيقة لم تطلب منه الالان يتركها فأبى وهدد بالفضيحة؟

أتكون التي انتقمت لنفسها ممن خدعها ودافعت عن شرفها وأرادت ان تنفي العار أشد اثما من لص مزور غش نفساً بريئة وغرر بها حتى أوقعها في مهاوي الطيش ! كلا ثم كلا ولكن هي الشرائع ظالمة تعاقب للأولى وتترك للثاني . فمتى يعرف الناس العدل ولا يجنون على البريئات امثالك

« قضت المقادير بعد ذلك ان اكون قاضي التحقيق والآمر بسجنك فصح في قول أبيك انى جلاد سفاك دماء . ومنذ سجنت لم اذق راحة ولم تجف عيني حتى تمكن اليأس من صدرى ولم اجد لى مخلصا الا بالانتحار « بعد ساعة تطويني الايام كما طوتك بطون السجون ففي عنق من دمي ودمك ودم كولونا ؟ ثلاثة أرواح اشدها اثما وادناها واحقرها هي التي يؤخذ الاثنتان فيها فلله ماعجب ماتفعل بنا الايام

« انما دمي ودمك في عنق الاقدار فهي التي قضت علينا بما قضت وهي هي التي تعبث بنا وتلعب بأرواحنا لعب الصوالجة بالاكر

« سلام عليك ياسونيا : سلام والف سلام : اذكريني ولا تنسيني في آخر برهة من حياتك . اذكريني ولا تحقدى على فما كنت في مافعلت الا آلة سخرتها الاقدار . اذكريني وإن وسع صدرك كل ذنوبي اليك كما هو رجائي فاسألي لى الرحمـة والمغفرة

« لقد حييت بحبك وسأموت به فليقدر الله لنا حياة اخرى نجتمع ونتلاقى فيها . ليرحم هاتين النفسين اللتين تروحان هدراً وليجعل لهما في الاخرة مقاما مرضيا

« سونيا سونيا . بعد قليل تكون هذه اليد التي تكتب اليك هامدة . بعد قليل يخضب الأرض دمي . بعد قليل أموت وذكرك على لساني وصورتك في عيني

« سونيا أذرفي على دمعة واحدة فهي حسبي وهي زادى بعد الممات »

« أوليفييه دى لورا »

غلف هذين الكتابين ووضعها على المنضدة ثم اخرج سلاحه النارى فأختبره وملاه بالرصاص . ثم حانت منه لفتة الى ملف التحقيق فوضع السلاح بجانب

الكتابين وفتح الملف وشرع يقرأ

قرأ طويلا والليل يذهب وهو غير شاعر الى ان طلع الصباح وجاء خادمه يدق الباب كعادته لايقاظه فقام وأمره ان يذهب فى مهمة لا يرجع منها قبل ساعتين

ذهب الخادم فوقف برهة ينظر الى صورة ابيه وامه ويودعهما الوداع الاخير فما اشد ما اندهش اذ راى عينين كبيرتين تحدقان فيه كانهما جذوتا نار

تانك عينا هره العزيز عليه (مستوفل) جاء مع الخادم وانسل حين فتح الباب فدخل وصعد على المنضدة

كان أوليفييه يحب مستوفل ويأنس به ويكرمه وكان مستوفل ذكياً يقابل سيده كلما دخل ويشيعه كلما خرج ويجالسه ويحتك فى ثيابه كلما قعد . وكان من عادته كل صباح ان يأتى مع الخادم ساعة ايقاظه ليكون أول داخل عليه

اذن لم تكن هذه أول مرة رآه فيها يدخل ويقف على المنضدة محددا بصره فيه . فلماذا دهش واضطرب كانما رأى شيئا غريبا :

دهش لانه كان يريد ان لا يشهد ساعته الاخيرة رقيب ونسى مستوفل ولم يشعر به الا حينما رآه

ولكن هل الهر رقيب ؟ أيخشى منه شيئاً ؟ أليس اولى له ان يشهد ساعته الاخيره هذا الرفيق الامين ليمثل له معنى من معانى الاخلاص فى الحب — هذا الحب الذى سينتحر لاجله ؟

ما اجمل هذا المعنى الآن فى عينيه ! وما احق الحيوانات بان تمتاز بالاخلاص والامانة فى نظره ؟

ولكن ماله ولهذه الهواجس وهو قادم على الانتحار فليقم مستوفل ماشاء الاقامة وليرشقه ما استطاع بعينيه الكبيرتين الخضراوين البراقتين فان له شأنا غير شأنه .

هز كتفيه وقال : حقا انى مجنون

ثم حول بصره وأخذ صورة سونيا فضمها وقبلها ووضعها فى الحقيبة كما كانت ورد الحقيبة الى درج المنضدة

وبعد ذلك عاد الى صورتى أبيه وأمه فقبلهما كذلك ووضعهما فى المكان الذى كانا فيه . ولما فرغ اخذ السلاح وجسه ثم وقف أمام المرآة حتى لايخطىء الموضع الذى يريده

وقف ساكنا هادئا ممتقع اللون ينظر فيرى ايام حياته تمر امام عينيه مر السهم فلا يميز فيها سوى سونيا التى عاش بحبها وسيموت لاجلها

وقف ومستوفل ناظر اليه يرى السلاح فتعروه الدهشة وتتسع عيناه كانما يدرك بذكائه العمل الخطير الذى سيقدم عليه سيده

وقف ويده اليسرى الى جانبه واليمنى مرفوعة والسلاح فيها مصوب الى صدغه والمرآة امامه يرى فيها احكام التصويب

الان لاتسمع اذناه الا قلبه يخفق ولاترى عيناه الا سونيا فى صورة ملك كريم ولا تشعر حواسه الا بدمه يضرب فى كل جسمه ضرباً اليما

الان دوى فى اذنه شيء كخرير الماء هو خرير دمه يتمثله مقدماً منهملا مخضبا ارض الغرفة

الان اطلق السلاح . . . .

الفصل الثامن عشر

مورتير يقرأ التحقيق

من ذا الذى ينكر ان أعظم الحوادث واشدها خطراً قد تنشأ من أدناها وأقلها شأناً ؟ لو أعطى للناس ان يكشفوا الغطاء عما يجرى حولهم من الحوادث لدهشوا اذ يعلمون ان كلمة قد تضرم حرباً وأن أكلة قد تشقى أمما كما ان ابتسامة قد تسعد آخرين

ولعل الكاتب المؤرخ ميشلى لم يبعد عن محجة الصواب فى جعله الناسور الذى اعترى لويس الرابع سبباً فى الضعف السياسى الذى استولى على المملكة فى عصره . كذلك لعل المؤرخين الحديثين لم يخطئوا اذ يعزون حرب السبعين ومصائبها التى جرتها على الامة الفرنساوية للحصاة الصغيرة التى كان نابليون الثالث مريضا بها

امثال هذه العلل الدنيئة تقوم بيننا كل يوم وتنشأ عنها نتائج هامة ولكنا لا نلتفت اليها ولا نعيرها نظراً لما اعتدناه من الذهول وقلة الانتباه

ها هو أوليفييه يقف مصوباً الرصاص الى صدغه ولم يكن يدور فى خلده ان حركة سوف يأتى بها هره (مستوفل) فى البرهة التى يطلق فيها السلاح فتصده عن غرضه وتحول بينه وبين الموت كأنه لم يجىء ويقف أمامه فى تلك الساعة الا لهذه الغاية

حدث ان طارقاً طرق الباب فجأة فانتصب الهر مذعوراً واراد ان يختبىء فقفز الى كتف سيده الايمن ثم فر مختفياً تحت السرير . وأراد الله ان تكون قفزته الى كتف أوليفييه فى البرهة التى اطلق فيها السلاح فكان من ذلك ان مال الذراع وعلت اليد بالسلاح فلم تصب اثر صاصة رأسه بل أصابت سقف الغرفة وقف أوليفييه بعد ذلك مندهشاً حائراً ينظر الى سقف الغرفة والى مستوفل

فيعجب من هذا الاتفاق الغريب الذى منع عنه الموت . وسرعان ماسرى فى قلبه السرور بالنجاة ككل الذين يقربون من الموت طوعا أو كرها ثم ينقذون وترد لهم الحياة

سرى فى قلبه السرور ورأى للحياة لذة لم يكن يراها من قبل فحمد الله واعتقد انه لم يرسل الطارق ومستوفل فى تلك الساعة الا ليحولا دون قصده ويمنعا عنه الموت . اذ مما لاشك فيه انه لو تأخر او تقدم الطارق ثانية واحدة أو لو قفز مستوفل الى الارض مباشرة لما مالت ذراعه ولأصابت الرصاصة رأسه فألقته صريعاً مضرجا بدمائه وكان الطارق لايزال يطرق فارتبك ولم يدر ماذا يقول له ولسكان البيت الذين سمعوا الطلق وذعروا وسيحتشدون على بابه سائلين مستفسرين وبعد قليل خبأ الخطابين اللذين كتبهما ووضع السلاح على المنضدة وفتح الباب فرأى رجلا لم يذكر أنه يعرفه ورأى الخدم والسكان مجتمعين وعلى وجوههم علائم الخوف فاضطر ان يعتذر أمامهم قائلا :

ارجوكم صفحاً عما سببته لكم من الاضطراب فلقد كنت اصلح سلاحى معتقداً انه خال من الرصاص فخرجت رصاصة كنت ناسيها فيه فأصابت السقف

فقنع المجتمعون وانصرفوا وبقى هو وزائره فقال أوليفييه :

ماذا تريد

فاجاب الزائر لدى كلمات أريدان أسرها الى القاضى أوليفييه دى لورا

قال أنا من تريد فادخل

ثم سار الى مكتبه فلما جلسا قال الزائر

ليس من الصواب ان ينسى الانسان الرصاص فى السلاح فان لى صديقاً . .

فقاطعه أوليفييه قائلا هل يمكن ان اعرف من الذى يخاطبنى

أجاب هومورتير المحرر القضائى فى صحيفة الترميدور .

فوقف أوليفييه كأنما لدغته أفعى اذ تذكر انه كاتب المقال الذى قرأه فى بانت ذلك المقال الذى اتهم فيه سونيا وعرض بكرامتها حتى أراد أبوها ان

يبارزه من اجله ثم قال مندهشاً :

أأنت مورتير ؟ ؟

أجاب : نعم أنا هو الذى طلبتنى للشهادة فى قضية كولونا فلما لم استطع ان أجيب طلبك فى الوقت الذى عينته جئتك اليوم

قال : ولماذا تجيء هنا ولا تذهب الى دار القضاء

أجاب : لم أرد ان اضيع وقتى عبثاً فلقدوصلت الى باريس مساء أمس فتعرفت بيتك وجئت الان افاوضك فى مايجب

قال : فيم تفاوضنى ؟ انى لاأرضى ان تكلمنى هنا كلمة واحدة عن القضية

أجاب : معذرة فان ماجئت أفاوضك فيه من الاسرار الهامة التى لاأبوح بها امام اجنبى ولو كان الكاتب او المحضر

قال : وما تلك الاسرار

اجاب : انى ماجئت اليك الا مدفوعا بتأنيب ضميرى ورجائى ان يكون فى العمل الذى اريده شفاء لنفسى ورد للاساءة التى وقعت منى لسونيا . فلقد علمت أمس انها حبست ولست ادرى ان كان ذلك لثبوت تهمة القتل عليها أولا ولكن يخيل لى ان فى حبسها يداً . . .

فقطع عليه الكلام قائلا وأى يد لك فى ذلك

أجاب : نعم فأنا أول من شاهد الحادث بعينه وكتب عنه متهما اياها معرضا بكرامتها وكل خوفى أن تكون قرأت مقالى فتأثرت به وأتهمتها ثم أمرت بحبسها مع أن الذين عاشروها وعرفوها يؤكدون انها بريئة وأنى اخطأت فى ماظننت لذلك تجدنى شديد الندم كثير الأسف اود ان اعرف الى اى حد بلغت اساءتى لها واتمنى ان يتاح لى دفع هذه الاساءة

قال حبذا شعورك هذا الشريف ولكنك لم تخطيء فى ماتنبأت به وماكان التحقيق الا مؤيداً لظنك فيها . وهل تظن اننا نأمر بحبسها لو لم تثبت تهمتها بالدليل القاطع

اجاب صدقت ولـكنى اخشى ان تكونوا مخطئين وانت لاتجهل ان القضاة كثيراً مايضلون الطريق السوى ، يخبطون خبط عشواء فرجائى اليك ان تطلعنى على الادلة التى اقنعتكم بصدق تهمتها حتى أعلم ان مقالى ليس منها فيرتاح ضميرى ويهدأ خاطرى

قال : ليس فى الامكان اطلاعك على الادلة غير انى أؤكد لك انها قاطعة وان مقالك ليس منها .

أجاب بالله لاتخيب رجائى ودعنى اقرأ اورواق التحقيق

قال لعلك مجنون

أجاب انا اعلم انى اخرج عن الحد المألوف واطلب اليك سراً من اسرار وظيفتك ولـكنى لاأفعل ذلك الا رغبة فى اظهار الحقيقة وخوف ان تؤخـذ سونيا بغير جريرة فغرضى الذى اسعى اليه هو ان أضم رأيى الى رأيك ويدى الى يدك ولعـلى وأنا الآن خالى الذهن من التهمة غير متأثر الا بحسن الظن فى سونيا اقع بين السطور على اشياء فاتتك ولم تعبأ بها لسوء ظنك فيها . وسواء اطلعتنى على التحقيق اولا فان دواعى خصوصية تضطرنى الى معرفـة الحقيقة واظهار براءتها ان كانت بريئة فخير ان نكون يداً واحدة وان نعمل معاً من ان نعمل مفترقين وها أنا اقسم لك انى أكون أمينا صادقاً كتوما للسر ساعيا وراء الحقيقة غير مراء ولا مخادع

قال أرأيت فى حياتك صحافياً يشترك مع قاضى التحقيق فى عمله .

أجاب لست اشاركك ولكنى اعاونك كما تعاونك الشرطة فى اظهار الحقيقة وانت حر فى اختيار من تشاء لمساعدتك فان اخترت صحافياً مثـلى كان له على الشرطـة ميزة كبرى لانه يستطيع ان يراقب ويفعل مايريد بغير احتيـاج الى الاختفاء والتنكر أما الشرطى فالناس ولا سيما المجرمون يعرفونه ويحذرونه

قال عليك بالبحث فان ظفرت بشىء فاطلعنى عليه بصفتك شاهـداً لانى لااستطيع ان اعرف لك غير هذه الصفة ومن المحال ان تعرف أسرار التحقيق

أجاب تمعن جيداً فان هذا العناد قد لايؤدى الا ظلم فتاة بريئة
قال ليست بريئة ولدى الادلة على اتهامها
فأحدق بأنظاره فيه وسأله : هل هى أدلة قاطعة
فأجاب اوليفييه نعم
فسأله مرة اخرى : الا يداخلك ريب قط
فأجاب : ليس لك ان تسألنى هذا
قال : انى لاخشى ان تكون مخدوعاً
اجاب : ومايدريك وانت لاتعرف التحقيق
قال : ماجئت الا لاعرفه منك
اجاب : من المحال ان تعرفه
قال : ولكنى اعيد لك الرجاء ملحا ملحفاً
اجاب : وانا لا التفت الى رجائك لانى عاهدت سونيا ان اكتم التحقيق عن كل انسان
قال ومع ذلك ....
فقطع اوليفييه عليه الكلام قائلا : لاتكثر فلست أخرج بحال من الاحوال من العهد الذى اعطيته على نفسى
فسكت مورتير قليلا ثم رفع رأسه سائلا : أتقول ان لديك أدلة قاطعة على تهمة سونيا
فاندهش أوليفييه وقال : نعم
قال مورتير كلا وانت ولا شك مخدوع
فقال أوليفيه من اين جاءك ذلك
أجاب لان الدليل القاطع يوجد فى يد رجل آخر
قال : ومن هذا الرجل
اجاب : هو انا

قال انت !!!

اجاب : نعم انا

فتبسم ساخراً وقال اراك تهزأ بى

اجاب : كلا وربى فان فى يدى مستندا هو الدليل القاطع اما على تهمتها واما على براءتها

قال وما هذا المستند

اجاب هو كتاب

فازداد بأوليفييه العجب وقال : كتاب !!!

اجاب : نعم او بعبارة اخرى قطع من كتاب احرق بعد قتل كولونا

قال اين وكيف وجدتها هذه القطع

أجاب وجدتها فى المعمل ليلة مقتله فاننى فى تلك الليلة قمت على حراسة الجثة مع رفيق لى يسمى فيدلين فانتهزت فرصة خروجه الى الحديقة ودخلت المعمل فلمحت رماد اسود فدنوت منه فوجدته لايزال ساخنا وعلمت انه رماد اوراق احترقت فبحثت فيه فعثرت على بقية باقية من كتاب فاخذتها واحتفظت بها وهى لاتزال عندى . ولا ريب انها ان لم تكشف الجريمة كلها فهى مرشدة الى سر من اسرارها

قال وما هى الالفاظ التى فيها

اجاب سأخبرك بها فيما بعد

قال ولماذا ابقيت هذا المستند عندك ولم ترسله الى التحقيق

اجاب : لانى خفت ان ارسله فى البريد فيضيع

قال لاشك انه معك الآن فأعطنى اياه

فابتسم مورتير ابتسام الظافر واجاب لاتعجل فانى وان كنت لااضن عليك به الا ان لى شرطا

قال : وما هو

اجاب : هو ان تطلعنى على التحقيق

قال : علمت الآن انك تكذب عليّ ولا تريد بمستندك الموهوم الا الوصول الى التحقيق

اجاب كلا وربى فان المستند صحيح وموجود

قال دعني فما اخالك الا محتالا

اجاب انها لكلمة قاسية والله لو لم يكن لى من الامر غير ان احتال عليك . لامر لايعنيني ماجئت ولا اتعبت نفسى فى مناقشتك

قال اذن فان لم تعطنى مامعك امرت بتفتيشك واخذته منك قسراً

اجاب وهل تخالنى ساذجاً لا اعرف أن لك ان تفتشنى وتأخذه رغماً عنى فآتى به الى هنا ؟ ها انا فتشنى كما تشاء فلن تجده معى

قال سآمر بتفتيش بيتك

اجاب لن تجده فيه

قال اين هو اذن

اجاب : فى مكان مكين وحرز حريز فان اردته فاطلعنى على التحقيق وانا أقسم لك ان لا ابوح بشيء وان لاغرض لى سوى اظهار الحقيقة

قال وان ظهر أنك كاذب

أجاب : اذن فافعل بى ماتشاء

بعد ذلك سكت الاثنان فجعل أوليفييه يفكر فى مايجب ان يفعل . أيبقى على وعده لسونيا فلا يطلعه على التحقيق أم ينكث بهذا الوعد رغبة فى الوقوف على المستند الجديد ؟

أليست العناية الالهية هى التى ساقت موزتير اليه منذ ساعة لينجيه من الموت ؟ فلعلها قد ساقته كذلك لينجى سونيا بشيء غير منتظر ؟ وماذا عليه لو قرأ التحقيق ؟ انه حقيقة ينكث بوعده ولكن لعل سونيا نفسها لو كانت معها لأعفته منه ؟

تراوحت افكار أوليفييه بضع دقائق ثم غلب فيه الحب فقام الى المنضدة
واخذ ملف التحقيق ووضعه امام مورتير وقال :
هاهو التحقيق فاقرأه وانى واثق منك بالكتمان
فاجاب مورتير اعتمد عليّ وثق بى كل الثقة
ثم شرع يقرأ وأوليفييه جالس فى ناحية ينظر ويتفرس فى حركاته

الفصل التاسع عشر

المستند

مضت ساعة ونصف خيل لأوليفييه فيها ان مورتير كلما لمح توقيعاً لسونيا اهتم به ودقق فيه النظر . وأخيراً فرغ مورتير وطوى الملف فقال أوليفييه :
ماذا رأيت
اجاب : رأيت عجباً
ثم اعتمد رأسه بيديه وفكر برهه وقال :
هل يباح لى ان اصرح بكل مايجول فى صدرى
فقال اوليفييه قل ماتشاء فان غايتى هى الوقوف على الحقيقة
اجاب : مورتير لاشك انك تستحق ثناء عظيما لما اظهرت من العناية الكبرى بالتحقيق حتى دفعت سونيا الى الاعتراف ولكن يبين لى ان هذا الاعتراف قد اخذ كرهاً
قال : ومن الذى أكرهها
أجاب : لست اعنى بالاكراه التخويف والارغام بل اعنى الترغيب فانك مازلت تؤثر عليها وتستحثها بالكلم المزوق وتعدها الوعود الجميلة وتقسم لها الايمان

حتى الزمتها أن تردد ماعلمتها اياه

فأندهش أوليفييه وقال : علمتها اياه ! !

أجاب : من غير شك أفلا تراها فى مبدأ الأمر أنكرت وقصت قصة الايتير فلما شهد تيتار وعارضت اقواله اقوالها ثبتت على الانكار واشتدت وتحمست ولكنها بعد ان سمعت منك تلك النصائح الكثيرة ورأتك تحسن لها الاعتراف وتعدها بالكتمان أولا وبحفظ الدعوى ثانياً جاءت فى اليوم مستسلمة معترفة ؟ فكأنها صدقت وعدك وأرادت ان تخلص من عذاب التحقيق ففعلت كل ما ارشدتها اليه . دونك تقريراً من الشرطيين لافلور وليلورين يقولان فيه أنها فى مساء اليوم الذى سمعت فيه منك النصائح والوعود ذهبت الى الكنيسة الروسية فى شارع دارو فامضت ساعة وخرجت فما أظنها ذهبت فى تلك الليلة الا لما كانت تشعر به من الاضطراب الشديد بعد ان أثرت فيها كلماتك ونوت ان تعترف على نفسها كذبا لتضع حداً لتحقيق كثرت فيه الاقاويل . وفعلا جاءت فى الصباح واعترفت

فداخل أوليفييه شيء من السرور ولكنه تمالك نفسه وقال : مهما تكن نصائحي ووعودى فان سونيا أوسع ادراكا واحزم رأيا من ان تعترف على نفسها بثلم شرفها وبقتل كولونا

أجاب : صدقت ولكن لعل لها من وراء ذلك غاية

قال : وأية غاية أهم لديها من شرفها وحريتها ؟ اتراها أرادت ان تفدى اباها ان براءته ظاهرة لاتحتاج الى جدال . ومع ذلك فان تيتار قد نظرها تدخل بالمعمل مع كولونا

أجاب : لم ينظرها بل نظر امرأة مقنعة

قال : نعم ولكنه نظرها بعد ذلك سافرة الوجه وعرفها حق المعرفة

أجاب : مايدريك ان الاولى هى الثانية

قال : يدرينى انها اعترفت وشرحت سبب القتل وهو سبب صحيح معقول

أجاب ؟ هل انت على يقين من انها هى التى شرحت سبب القتل

قال : وهل فى ذلك شك

أجاب : هاهو التحقيق اعد عليه نظرة أبية تعرف انك انت الذى علمتها ذلك السبب . ولم تقف عند هذا الحد بل هاجتها مهاجمة عنيفة بكثرة استنتاجاتك حتى علمتها كيفية القتل فلم يكن لها حين عولت على الاعتراف الا ان ترجم الى أقوالك وتأخذها حرفاً حرفاً :

قال : ولكنى لم استنتج الا مادلت على صحته القرائن

أجاب : لست أرتاب فى حسن قصدك وسلامة نيتك غير انك اندفعت فى التحقيق بحماس وغيرة شديدين هما اللذان جعلاك تذهب فى الاستنتاج بعيداً وترشدها الى طريق الاعتراف . الست أنت الذى بدأت فصورت لها مجىء كولونا ليلة الاحتفال وتهديده اياها وقتله فى العمل وخروجها طالبة عونا ثم رجوعها لالقاء جثته من النافذة ؟ ألست أنت الذى شرحت سبب القتل وسألتها ان كان انتقاما من الذى ثلم شرفها أو خوفا من وعيده فكان جوابها: « للسببين معاً » ؟ الا تراها اذناقشتها فيما كان بينها وبينه وهل كتبت اليه أولا كيف ارتبكت فأجابت : سلبا ثم لما شعرت بالتناقض بين جوابها هذا وبين ما ادعته أو ما ادعيته لها من خوف الفضيحة عدلت واعترفت انها كتبت اليه مرتين وان كتابيها كانا فى يد كولونا برهانا على زلتها معه ؟ الا تراها كذلك حينما سألتها عن الالة التى قتلت بها كيف صمتت حائرة لاتدرى بماذا تجيب حتى رفعت عنها الحيرة وعلمتها ان الالة لايمكن ان تكون سكينا أو آلة نارية لجارتك وما زالت لاتدرى ما تقول كمن يتلمس حاجة فى الظلام حتى خطرت المطرقة على بالها فذكرتها ؟ الا تراها فى كل مااعترفت به لم تخرج عن كلمة نعم أو مافى معناها كانما هى تخشى ان تتكلم فيقع التناقض فى كلامها فلا تسلم من المناقشة والاعتراض: اتسمى هذا كله اعترافا صحيحا وتؤاخذ به فتاة بريئة ؟

فبهت أوليفييه وسكت برهة يجيل انظاره فى أقوال مورتير فرآها تقرب من الحقيقة وانتفض حينما فكر فى ان الحب والغيرة هما اللذان دفعاه الى

مافعل ثم قال :

قد يكون كل ماتقوله صحيحا لولا ان هناك دليلا ماديا يرتبط بالجريمة

فسأله مورتير وماهو

قال : هو الكتابان اللذان كتبهما كولونا

أجاب : لقد قرأتهما فما وجدت فيهما الا دليلا على طهارتها من الاثم . اذ كل مافى الاول ان كولونا يظهر الغضب لطرده ويضرب لها موعداً ليبرئ نفسه أمامها من التهم التى رمى بها . وكل مافى الثانى انها لم تلب طلبه وضربت بكتابه الاول عرض الحائط فتوعدها بالشر . فما الذى تراه فى ذلك سوى انه كان يطلبها وانها كانت تفر منه ! نعم انه هدد وتوعد ولكن بماذا ؟ بسلاح لم يقل ماهو ولو كانت سونيا تعرف يقينا ان فى يده سلاحاً كالذى ظننته وذهبت اليه لسعت فى مداراته ولما هزئت به وضربت بكتابه الاول عرض الحائط

فأخذ أوليفييه الكتابين وقرأها بتأن وامعان نظر حتى اذا فرغ انبسطت اسرته وارتسم النور على وجهه وقال :

صدقت ولكن ماقولك فى تقرير الطبيب الشرعى

أجاب : انه البرهان الاكبر على براءتها فانها بعد ان جارتك فى الاعتراف وترددت حتى اهتدت الى المطرقة سكتت وأبت الكلام حين كذبها الطبيب لانها لاتعلم كيف مات كولونا

قال : اذن فأنت تظنها بريئة وترى اعترافها غير صحيح

أجاب : يبين لى كذلك

قال : وعلام تبنى رأيك هذا ! على التحقيق أو على المستند الذى لديك

أجاب : عليهما معاً

قال : ماهى عبارات هذا المستند

أجاب : انه مكون من ثلاثة سطور فيها كل مايدل على الجريمة والمجرم

قال : اخبرنى ماالذى فيها

اجاب: سوف أريكها ولكن ألا تسلم معى قبل كل شيء ان سونيا لاتكون القاتلة الا اذا كانت الاوراق التى كان يحملها كولونا والتى كان يتوعدبها مكتوبة بخط يدها

قال: نعم اسلم بذلك

أجاب: ولقد احرقت تلك الاوراق بعد قتله واتفق انى عثرت على احداها قبل ان يتم احتراقها فلو صح اعتراف سونيا لوجب ان تكون هذه الورقة بخطها

قال: ربما كانت ورقة اخرى احرقت مع التى كانت تخشاها

أجاب. فان كان مدلولها يشير الى ان التى كتبتها طلبت من كولونا أوراقا كان يأباها عليها

قال. اذن يكون اعتراف سونيا صحيحاً وتكون الورقة بخطها

أجاب: فان لم تكن بخطها

فسكت قليلا وقال: لاأستطيع ان أبت برأيي قبل أن اراها.

أجاب هاهى

ثم أخرج ورقة صغيرة الصقت عليها قطع مسودة الجوانب. فوثب أوليفييه ينظر اليها بشغف ويتمعن فيها فرأى ثلاثة سطور فيها الحروف الاتية

« مستحـ . . الا . . لي . . عند . . . »

« تقود . . . ترد . . . راق فانى »

« . . ممل . . . ىء . . . . ردادها »

فقال مورتير أترى فى هذا الخط مايشبه خط سونيا فى التحقيق

أجاب. كلا فالشبه بينهما بعيد جداً

قال. أفهمت معنى هذه الكلمات

أجاب لم أفهمه جيداً

قال: هاانا افسرها لك فانها تقرأ هكذا

« مستحيل الآن! ليس عندى »

« تقود فان لم ترد لى اوراق فانى »

« سأعمل كل شيء لاجل استردادها »

اجاب : صدقت فانى لا اجد لقراءتها غير هذا التفسير

قال : ومنه يتضح ان كولونا كانت لديه اوراق يخشاها كاتب هذه الورقة فلما طلب منه ان يشتريها ابى اولم يجد المال المطلوب فاستشاط غضباً ونوى ان يستردها بكل الطرق ولو اضطر الى ارتكاب جريمة

اجاب : هذا هو الذى تخيلته من أول يوم

قال : وهو الذى اعتقدته انا ايضاً ليلة وجدت هذه الورقة وبه ذهبت الى اتهام سونيا فى مقالى . فما تخيلناه هو الحقيقة ماعدا اتهامنا لسونيا

فسأله أوليفييه من اذن قاتل كولونا

فاجاب : مورتير هو كاتب هذه الورقه

قال : أوليفييه ومن كاتبها

أجاب : مورتير هو الذى سأبحث عنه

ثم سكت الاثنان وجعل مورتير ينظر الى الورقة بامعان وقال :

اترى كيف ان هذا الورق ثمين جميل

فاجاب : اوليفييه نعم

قال : انه لايعرفه الا الاسرياء ذوو المظاهر الكبيرة

اجاب : لا بل تعرفه النساء الجميلات التأنقات

قال : ايضاً صدقت الم يجل تفتيش مسكن كولونا عن شيء مهم

اجاب : كلا

قال : الم تجدوا فيه كتباً نسائية

اجاب : وجدنا صوراً وكتبا غرامية بعضها موقع عليها والبعض الآخر خلو من التوقيع . وقد قرأتها كلها فلم اجد فيها مايرتبط بالجريمة اويشير اليها

قال : هل عثرتم بين الصور على صورة لسونيا

اجاب : كلا

قال : ولا لواحدة من صواحباتها او اللائذات بها

اجاب : لا لا

قال : الم تبحثوا فى ماضى كولونا وتسألوا النساء اللاتى وجد ثم صورهن عسى ان يكشف التحقيق معهن مالم تكشفه الكتب الغرامية

اجاب : فكرت فى ذلك وطلبت بعضاً منهن اهتديت الى اسمائهن فخفن ولم يأتين معتذرات بموانع مختلفة

قال : اذن فاعطنى الصور والرسائل التى وجدتموها

اجاب : اخشى اذا اعطيتك اياها ان تبوح بشىء منها فتفضح بعض النساء ذوات الاعتبار وانت تعلم ان واجبى يقضى علىّ بالكتمان

قال : الازلت تخشى منى وتشك فى امانتى واخلاصى ؟

اجاب : لست اشك فى امانتك وسأرسلها اليك

فاخرج مورتير بطاقته وقال . هاهو عنوانى لترسلها الى به

فتناول اوليفييه البطاقة وقرأ فيها :

بطرس مورتير

محرر قضائى للترميدور

٨ شارع تورجو

ثم قال : مورتير والآن فلنلخص المسائل التى يجب علينا حلها .

فاولا من كاتب هذه الورقة المحترقة ؟

وثانياً من قاتل كولونا ؟

وثالثا ان لم تكن سونيا جانية فلماذا تعترف على نفسها كذبا ؟

ورابعا ان لم تكن جانية كذلك فكيف رآها تيتار تدخل المعمل مرتين ؟

وخامساً كيف وباى سلاح قتل كولونا ؟

وسادساً لاى غرض كان يرمى بمجيئه الى المعمل ؟

تلك هى المسائل التى سأبذل جهدى لحلها وهى وان تكن غامضة مشكلة الا انى ارجو الوصول الى مايرفع الغطاء عنها فى مدى خمسة عشر يوما فان لم ترنى فى تلك المدة فلا تضجر واصبر وانتظر

اجاب : سوف انتظر حتى اراك

قال : وربما احتجت الى مساعدتك فان كتبت اليك وطلبت منك ان تقابلنى فى مكان معين فارجو ان تجيب طلبى

اجاب : اعتمد علىّ فى كل ماتريد

فوقف مورتير وقال : ارجو ان يسدد الله خطواتنا ويوفقنا الى سبيل النجاح ثم مد يده ليأخذ مستنده الذى كان لا يزال منشوراً على منضدة صغيرة فقال : اوليفييه الا تترك لى هذا المستند

اجاب : كلا فانه لاغنى لى عنه وكن على ثقة بانى سأحتفظ به وارده اليك متى فرغت حاجتى منه

قال : انك ترانى اوسعت لك صدرى واشركتك فى ماهو من عملى واطلعتك على سر وعدت بحفظه فأرجو ان تقدر هذا كله حق قدره وتحتاط فى عملك بالحذر والكتمان

اجاب : لاتخف فانى اشد منك حذراً وسوف تريك الايام صدق قولى

وفى الحال خطا مورتير نحو الباب يريد الخروج فقال : أوليفييه : سمعتك تقول ان دافعا خاصا يدفعك الى الاهتمام بهذه القضية افلا تخبرنى ماهو ذلك الدافع ؟

فتبسم مورتير وخطرت حبيبته لورفى ذهنه واجاب:

هو ملك صغير

ثم خرج

الفصل العشرون

القباب الهوائيه

اخذ مورتير الرسائل والصور التى ارسلها اليه اوليفييه وشرع يتفحصها فبدأ بالاولى فلم يجد فيها مايستوقف النظر فتركها ونشر الصور امامه فعرته الدهشة اذ رأى عدداً جماً بين اسبانيات فواتك الالحاظ وايطاليات مائسات القدود ونمساويات خفيفات رشيقات وباريسيات هن السحر والفتنة والجمال . بعض منهن ذوات خدور لم يدللن على انفسهن وبعض فتيات طائشات كتبن حرفين اوكتبن الاسم دون اللقب وبعض بنات هوى لم يتركن شيئاً لا يدل عليهن الا كتبنه وشفعنه بكلمات الهيام

ولما لم يكن له من سبيل الى معرفة غير بنات الهوى فقد اضطر ان يقصر بحثه عليهن فوقع اختياره على اربع صور دلته التواريخ التى وضعت عليها ان صواحبها حديثات عهد بمعرفة كولونا . ثم اجال نظره فيها فاستوقفته احداها وهى صورة امرأة لم ير فى حياته مثل زيها ترتدى ثوبا خفيفا شفافا لا يصعد الا الى بعض نهديها ويكشف عن نصف ظهرها ولكنه يجتمع عند جنبيها وينتشر انتشار جناحى الطائر ثم يتسع فى أسفله كأنه الشراع اذا تمكنت منها الريح . وشعرها محدب من الامام عريض من الخلف يشبه راس السفينة . وهى بين هذا وذاك واقفة تبسم عن لؤلؤ أو برد او اقاح

فخيل له ان وراء هذا الزى معنى خاصا وانتقل الى ما كتب فى اسفل الصورة فقرا ما يأتى :

« تذكار اشتياق وغرام واخلاص الى الامير أورسو كولونا »

« محبته وقبابه الهوئية »

« جابى دوزون »

« بالملعب الاهلى »

فعلم انها مغنية تمثل فى غنائها القباب الهوائية وفى الحال ابتسم وظهرت علامات الفرح على وجهه كمن ظفر بشيء ثمين واخفى الصورة فى ثيابه ووضع بقية الصور فى ملف خاص

. . . .

تناصف الليل فظهرت جابى دونرور على مرسح الغناء تأخذ بالابصار زينتها ويلعب بالنفوس جمالها وتستهوى الافئدة خفتها ويملك الاسماع والقلوب صوتها المطرب الرقيق

وعلى مقربة من المرسح فتى مهيب المنظر يدل على مظهره ابهة وغنى جالس وحده فى مقصورة يعجب ويصفق تصفيقا حادا حتى اذا فرغت اليها بباقة من الورد فيها كتاب صغير فالتقطت الاثنين وابتسمت وانحنت شاكرة وانزل الستار

فلما خرجت الى مقصورتها لم ترد أن تخلع ثيابها قبل ان تقرأ الكتاب ففضته وقرأت :

« ايتها الشمس الطالعة

« بودى لو كلمتك برهة فسأنتظرك وقت الخروج لنأكل معا ورجائى ان لاتضنى بهذه الامنية على رجل يعجب بك ويضحى قلبه تحت أقدامك»

« المركيز لويجى »

« رالومينو دى مونتو فيورى »

ثم وجدت ورقة مالية فاهتزت جذلا وتبسمت

وقالت لوصيفتها كليمانس :

لقد صدت صيدا جميلا

فسألتها من هو

فاشارت الى الذى رمى الكتاب واجابت هو هذا فلقد رأيته منذ ثلاث ليال يأتى ولحت انه لا يأتى الا لأجلى. وحقا انه لظريف كريم اليد. انظرى ماذا كتب الى

وبماذا شفع كتابه

قالت يخيل لى انه روسى

أجابت . كلا بل هو ايطالى واسمه دليل عليه

ثم ضحكت وقالت اخبرينى بالله كم وقع لك من الصيد فى أيام صباك

فاجابت كليمانس وقع لى كثيرون كلهم خير من صيدك هذا

قالت جابى وهل كانو يغلفون كتبهم باوراق مالية

أجابت : نعم

قالت دعى المزاح والمفاخرة وقولى الحق

أجابت تالله ماقلت غير الحق

قالت وهل كانت أوراقهم بمائة فرنك مثل هذه أو أقل

أجابت بل وصلت مرة الى الف فرنك

فاندهشت جابى وقالت بالله قصى علىّ ذلك

فاغمضت كليمانس عينيها لتتذكر الماضى ثم فتحتهما واجابت :

كان ذلك فى عام ١٨٧٣ اذ كنت مثلك فتية السن فتانة للقلوب ذات جمال ومال . فلقد جاءنى ذات ليلة كتاب رقيق العبارة مغلف فى ورقة مالية بالف فرنك من رجل برازيلى تنبىء بزته الحسنة عن حسب ونشب اسمه « الدون هرناندو كزيمنيس دى لاهو ماريتا » يطلب الى فيه بأجل اسلوب أن يحدثنى ويأكل معى كما يطلب صاحبك هذا . ففعل فى كتابه فعل السحر ولاقيته وقت الخروج فترافقنا وتحدثنا وأكلنا وارتوينا من بنت الكروم ثم قمنا فأمضينا الليل فى سرور وانشراح . وفى الصباح اشبعته اكراماً وزودته من العناق ماشاء ثم ذهب فعمدت الى ثيابى ارتديها وبحثت عن عقد كان لى ثمنه خمسون الف فرنك فلم اجده وعلمت انه ذهب بذهابه وان الذى ظننت انى صدته صادنى فاعطانى ألفا واخذ خمسين الفاً فوق ما أكل وشرب .

ثم ضحكت واستمرت فى الكلام قائلة : واكبر خوفى ان يكون حظك

الليلة مع المركيز « لويجي رامولى .. مكرونه دى مونتفريت » كحظى مع « الدون دى لاهورماتيا » فكونى على حذر

فاستاءت جابى وداخلها شيء من الانقباض وقالت معاتبة : انه لايسمى « مكرونه دى مونتفريت » بل « رامولى دى مونتفيورى »

اجابت دعيني من الاسماء الطويلة الفخيمة فانى لاأتوسم فيها خيراً ولا اظن صاحبك هذا الا كصاحبي بالامس فعسى ان لاتشبه ليلتك بارحتى

قالت كانك اذ وجدك ذلك البرازيلي سهلة المأكل فلعب بك وأكلك تخالين النساء كلهن ساذجات مثلك وتحسبين جميع الرجال لصوصا كصاحبك

اجابت كلا ولكننى منذ تلك الليلة اصبحت لاأحب الاسماء الكبيرة ولا أومن بأصحابها . وما توجست فى حياتى ريبا الا من برازيلى وايطالى

قالت اما البرازيلى فانى أدعه لك تقدحين فيه بما تشائين واما الايطالى فانى على غير رأيك فيه ولا ينبئك مثل خبير

ثم كأنما هاجت بها لوعة كامنة فتنهدت بحزن وسكتت

، آذنت بعد قليل ساعة الخروج فنظرت جابى الى مركيزها فرأته قد خرج فوقفت وقالت :

هيا يا كليمانس

فأسرعت هذه وناولتها قبعة كبيرة ورداء حريرياً طويلا وطيباً ورائحة فلبست وتطيبت ومشت تعطر الارجاء بأرادنها فما خرجت حتى وجدت المركيز مقبلا عليها جذلا محيياً يقول :

ما اكرمك وما اسعدنى ! تلك هي السيارة تنتظرنا

وأشار الى سيارة قريبة فاتجهت اليها باسمة وركب الاثنان فكانا بعد بضع دقائق فى شارع رويال امام مطعم فخيم فنزلا وجلسا فى حجرة خاصة وشرعا يأكلان هنيئا ويشربان مريئا . ودار بينهما الحديث فوجدت جابى منه ظريفا خفيفا حلو الحديث لطيف المعشر لاتخفى عليه خافية من باريس . ثم انتقل الكلام

الى الغناء والمغنيات فوجدته مليا باطرافـه عالما باخبارها واغانيها على الخصوص عارفا اكثر عشاقها فازداد سرورها وزال من صدرها القليـل من الريب الذى أبقته كلمات وصيفتها وأخذ الحديث بينهما يشمل ويومن وينجد ويتهم والكؤوس تتلاحق كأنها تتسابق الى ان أخذتها نشوة الخمر فزهت بنفسها وقالت :

لـكأنك تتعقبنى من زمن مديد

فأجابها صدقت فقد علق قلبي بحبك قبل ان تجيئى الى باريس

قالت ارأيتنى فى الاقاليم

اجاب نعم وأعجبت كثيراً برخامة صوتك وبراعة تمثيلك

قالت ماذا عرفت عنى من التمثيل

فملأ الـكأس وسقاها واجاب عرفت عنك اشياء كثيرة أجملهـا فى نظرى القباب الهوائية

فتبسمت وقالت ارأيتنى وانا امثلها

اجاب : نعم

قالت : وكيف عرفتنى وانت على مايظهر لى لا تقيم فى الاقاليم

فسقاها كأسا أخرى واجاب سمعت عنك ثناء كثيراً من ابن عمى وصحبته غير مرة فرأيتك وعرفتك

قالت من هو ابن عمك

اجاب هو الامير اورسو كولونا

فاندهشت وكانت على وشك ان تشرب فردت الـكأس وقالت لعـله ذاك الذى وجد منذ أيام ميتا فى حفلة راقصة

أجاب : هو بعينه

قالت : وانت ابن عمه ؟

أجاب : أجل

قالت ماعشت لاأنساه فقد كانت لى معه أيام هى النعيم والسعادة

ثم سكتت وبان عليها كأن ذكرى المـاضى تبعث فى قلبهـا شوقا وحزنا فقال المركيز :

حقا انه كان يحبك ويخلص لك الوداد

فازداد حزنها وقالت مسكين هو . ألم يعرف كيف مات !

أجاب كلا ومتاعب القضاء تضيع سدى

الى هنا سكت الاثنان وشملهما انقباض الصـدر غير أنهما لم ينفكا عن الشراب فما كنت ترى غير الاقداح تتلوها اقداح ولا تسمع الارنينا يعقبه رنين فشملت جابى وتورد خداها وتصاعدت انفاسها وضحكت عيناها . فأشار المركيز الى الغلام بالخروج من الحجرة فلما خرج اقترب منها وقدم اليها صورتها قائلا :

أرى من واجبى ان أعطيك هذه الصورة فانى اعلمه كان يحتفظ بها احتفاظ الجبان بروحه وليس من الشهامة ولا من الاكرام لك ان تلعب بها أيدى الضياع بعد موته

فاخذتها وقالت اصبت ولك منى الشكر الجزيل . ولـكن كيف فاتت القضاة وقد سمعت انهم فتشوا مسكنه واخذوا كل ماعثروا عليه فيه ؟ ...

وفى الحال دنت منه ومالت الى اذنه واستمرت تقول .

أتدرى انهم طلبونى للتحقيق ولكنى اعتذرت ولم اذهب

فسألها ولماذا ابيت

فاجابت لانى اكره أن يرانى الناس كل يوم فى دار القضاء فلا يعرفون ان كنت شاهدة أو متهمة ويتقولون علىّ الاقاويل

قال يخيل لى انك بعيدة عن مظنة التهمة

أجابت : وكيف يستطيع لسان ان يجد سبيلا الى تهمتى وكثيرون يعلمون انى لم أره منذ اربعة شهور

قال اذن فماذا عليك لو شهدت

اجابت لانه خير واولى ان لا تقف امرأة مثلى امام القضاة ليسألوها عن عمرها

فتضطر ان لم ترد الكذب فى يمينها ان تعترف عن رؤوس الاشهاد بأنها ناهزت الاربعين ثم ضحكت فأيقن المركيز انها سكرت فداعبها قائلا ومن يصدق انك ناهزت هذا العمر

فلم تجب وكانت الصورة لاتزال فى يدها فتأملتها طويلا وقالت :

اين ايامك الماضية ياأورسو ايام كنت امثل القباب الهوائية وكنت انت بجانبى لاتفارقنى فى الليل ولا فى النهار !! مضت تلك الايام ومضى نعيمها فكأنما مضيا بالحياة كلها ...

فقال المركيز اراك مازلت تذكرينه فهل احببته حبا صادقا

أجابت ومن هى التى لم تشغف بحبه وقد كان الغاية القصوى فى الجمال والظرف والدعة ثم كان على جانب عظيم من الغنى وسعة اليد

قال وهل كان حبكما طويلا

أجابت بدأ فى أوائل يناير سنة ١٩٠٦ ولم يدم الا كما تدوم الزهور فناب الصدود عن الصفاء وحلت القطيعة محل الاخلاص . ولئن كنت لم أشغف فى حياتى بمثل حبه فانى لم اذق من عذاب الهجر والغيرة كما ذقت منه

فتظاهر بالدهشة وقال انه لغريب ان تهجر امرأة فى مثل هذا الجمال

أجابت ومع ذلك فانه خاننى

قال هل انت على ثقة من خيانته

أجابت نظرته بعينى رأسى

قال وكيف استطعت ان تنظريه ؟ قصى علىّ هذا الخبر

اجابت كان من عادتى ان ابيت عنده كل ليلة فى بيت استأجره قبل ان يعرفنى بأيام قلائل فطلب الى ذات ليلة ان لا أذهب اليه مدعيا انه مضطر للسفر فتظاهرت بالطاعة ووعدته كما يريد ولكن ظنون السوء خالجتنى فسرت الى البيت واختفيت فى الحديقة حتى سمعت غوغاء وحديثا ففتحت بالمفتاح الذى كان معى ودخلت فجأة فرأيته والى جانبه امرأة لم اعرفها خلعت قبعتها وتدلى

شعرها على كتفيها فهجمت عليها آخذة بخناقها فحاولت ان تفلت مني ولكنني اسرعت وانشبت اظفاري في عنقها ثم عثرت يدي بدبوس القبعة فأرشقته في جسمها حتى سال منها الدم . وحينئذ هجم علي أورسو وطوقني بذراعيه وانتزعني بالقوة وصرخ عليها ان تفر ففرت دون ان تنطق ببنت شفة . ولما التفت اليه وسألته اسمها أباه علي وضربني واخرجني

قال وماذا كان بعد ذلك

اجابت كان انه في الصباح بادرني بالقطيعة وأرسل يخبرني انه يريد ان تقف معرفتنا عند هذا الحد فاستولى الحزن علي واشتعلت الغيرة في قلبي فذهبت ابحث عنه فلم أجده وعلمت انه ترك البيت ورحل ولم ينبيء احداً بوجهته

قال ألم تنظريه بعد ذلك

اجابت لم أنظره ولم اعلم عنه خبراً منذ تلك الليلة حتى قرأت في الصحف خبر موته

قال وما الذي كان من امر المرأة

اجابت ظننت باديء بدىء انني قتلتها وخفت ان يقبض علي فلما لم يبلغني شيء من ذلك تيقنت انها لم تمت وحسبتها سوف تشكوني ولكني لم ارها فعلت شيئا

قال الم تنظريها بعد تلك الليلة

اجابت كلا واظنها رافقته في رحيله

وفي الحال اتقدت عيناها وبان الغضب على وجهها واستمرت تقول :

وتالله لو وقعت الآن عليها عيني لانتقمت لنفسي منها شر انتقام . لقد سلبتني تلك الخبيثة حبيبا ملكته زمام قلبي ووجدت النعمة والغبطة والسعادة بجانبه فويل لها اذ ابصرتها

قال أتعرفينها اذ رأيتها

أجابت كيف لا أعرفها وقد كانت بين يدي ووجهها في وجهي ؟

قال أتستطيعين ان تعيني الطبقة التي هي منها

اجابت: كلا

قال الم تميزى فيها علامة تعرف بها

اجابت لم اميز من شدة حنقى شيئاً

قال أجهدى نفسك وتذكرى فعساى اذا اهتديت الى شىء يدل عليها ان ابحث عنها واجدها وأرشدك عنها

وحينئذ كانت الخمر قد استولت على عقلها فهبت واقفة وأخذت سكينا كانت أمامها ولوحت بها فى الهواء كأنها تطعن عدوة لها . وما كادت تفعل ذلك حتى سقطت على الارض ذاهبة القوة ضائعة العقل وارتمت كالكتلة فطار اليها المركيز مغضباً وهزها من كتفيها بعنف وصرخ يقول :

ان كنت لاتعرفين لقبها افلا تعرفين على الاقل اسمها ؟ قولى ... ألم يذكر كولونا اسمها امامك ؟

فتمتمت مجيبة بلى ... بلى

قال مااسمها

اجابت اسمها .. اسمها ...

ثم غنت وبكت فايقن انها فقدت رشدها من السكر فرفعها ومشى بها الى السيارة فأوصلها الى مسكنها وأوصى بها وصيفتها وعاد الى السيارة فدفع للسائق أجره وأشعل دخانه وانطلق يخترق الشوارع ونور الفجر ينبثق فيغير على أنوار المصابيح

﴿ الفصل الحادى والعشرون ﴾

هارى ستيوارت

بعد بضعة أيام وقف شاب انكليزى الزى بباب منزل فرجوس وقرع الجرس. فجاء الخادم فخاطبه الشاب قائلا .

اريد مقابلة الاستاذ باسكال فرجوس

فأجاب الخادم ليس فى الامكان ان تراه الآن لانه لايقابل احداً فى مثل هذا الوقت

قال عليك ان تخبره بأنى آت من قبل جون برد وشركاه ومتى عرف ذلك فانه يسمح بمقابلتى

فأطاع الخادم وذهب يطرق باب المعمل على سيده فقال فرجوس .

الم آمرك ان لاتزعجنى فى اوقات شغلى

فقال الخادم انما جئت لان رسولا من محل جون برد يريد ان راك حالا

فقام فرجوس وفتح الباب وقال اذن فليأت

وبعد بضع دقائق دخل الشاب فقابله فرجوس وحياه واجلسه فى غرفة الاستقبال ثم قال .

أيسمح لى ان اعرف من الذى اخاطبه

فاجاب الزائر انا هارى ستيوارت مهندس جون برد وشركاه فى مانشستر وقد ارسلت اليك فى مهمة لابد ان تكون على علم بها

قال صدقت ولكن قيل لى انك لاتستطيع المجىء قبل الشهر القادم

اجاب نعم غير انى انتهزت فرصة وجودى الآن فى باريس وجئت أفاوضك

قال . ها انا مصغ اليك فقل ماتريد

أجاب انت تعلم اننا فى حاجة الى المحرك الكهربائى الذى اخترعته وسميته باسمك فمتى اتفقنا على الثمن وجب ان تذهب معى الى مانشستر ليكون تركيبه على يديك

أجاب : لا أستطيع ان أعدك بسفرى،

قال : ان شئت فاننا ندفع لك ماتريده ثمناً لسفرك

أجاب : لست امتنع طمعاً فى المال ولكن شؤوناخاصة تضطرنى ان لا أفارق البيت فى هذه الايام.

قال : وهل من الشؤون الخاصة ماهو أهم من عملك الذى حزت وتحوز به شهرة طائرة ومالا وفيراً

أجاب : ان نوائب الدهر لاتبقى على أحد وقد نزلت بى فى هذه الايام فاذهلتنى عن كل عمل وشهرة ومال.

فأخذ العجب من هارى ستيوارت كل مأخذ وبان الاسف على وجهه وقال: أية نوائب نزلب بساحتك

فأجاب : فرجوس بصوت يتقطع حزنا : كانك لم تسمع بالحادث الاليم الذى وقع لى ولم تقرأ ما كتبت وتكتب الصحف

قال : ليس من عادتى ان اقرأ الجرائد لانى أجدها مضيعة للوقت بغير فائدة

أجاب : لو قراتها لعلمت ان امرأتى مريضة بالحمى وان ابنتى اتهمها القضاة بتهمة غير صحيحة وقبضوا عليها . فلست استطيع مفارقة باريس قبل ان تنتهى القضية وترد الى ابنتى حريتها

قال : تالله انه ليحزننى ان يصيب استاذاً عالماً نافعاً مثلك عنت من الدهر ولكن هل تستمر القضية طويلا ؟

أجاب : لست أدرى وفى ظنى انها تطول لان القضاء عندنا بطىء الحركة طويل الذيول مضجر ممل

قال : ولم هذا البطء الذى يحمل الناس أوصاباً بغير حق ؟ كان القضاة عندكم لايعرفون ان الوقت من ذهب وان العدل الذى هم رسله وحملته يقتضى الاسراع

فى معرفة البرىء من المجرم

أجاب : انهم لا يعرفون غير السلطة العاتية التى يستبدون بها فى رقاب العباد ونحن التعساء لامناص ولا محيص لنا من الرضوخ والامتثال

وكان على مقربة من هارى ستيوارت صورتان فى اطارين جميلين فجعل يحقق النظر فيهما فلما رآه فرجوس كذلك قال :

هاتان هما امرأتى وزوجتى

فأجاب : ستيوارت حقاً انهما بارعتان فى الجمال

ثم انتقل فجأة الى الكلام عن مهمته قائلا :

لم أفاوضك للآن فى ثمن المحرك الكهربائى فقل لى كم هو

فأجاب . فرجوس انه يختلف باختلاف الحجم والقوة .

قال انما أريد أشدها وأقواها

أجاب . اذن فانت تريد الرابع

قال ايمكن ان أراه واختبره

أجاب لك ذلك ولكن ليس عندى منه الآن فى معملى

قال . ومتى يكون عندك منه

أجاب بعد بضعة أيام

قال . اذن فلنرجىء تحديد الثمن الى ما بعد اختباره

أجاب . ذلك خير وأولى

قال : انى سابقى فى باريس حتى يتم الاتفاق بيننا فان شئت ان تجدنى فى أى وقت فانى فى الغرفة السابعة والعشرين فى الفندق الاهلى

بعد هذه الزيارة تقابل الاثنان مراراً تارة فى الفندق وطوراً فى المعمل فآنس فرجوس من هارى ستيوارت كل اقبال واحتفاء ورجا ان يتم الاتفاق بينهما كما يشتهى . غير انه بعد بضعة أيام شعر بضياع صورتى امرأته وابنته اللتين كانتا فى غرفة الاستقبال فسأل الخدم وبحث ونقب فلم يقف لهما على أثر

الفصل الثاني والعشرون

هذا خط امرأتى

فى صباح اليوم الخامس عشر لزيارة مورتير لاوليفييه جاء الى هذا الاخير كتاب هذا نصه.

« سيدى القاضى

« لقد وعدتك باتمام البحث فى قضية كولونا فى مدى خمسة عشر يوماً فها أنا قد أتممت بحثى وأخالنى عرفت الحقيقة فان شئت ان تشاركنى فكن اليوم فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى الفندق الاهلى بغيران يراك أحد واطلب مقابلة هارى ستيوارت أو المركيز لويجى دى مونتفيورى الساكن فى الغرفة السابعة والعشرين »

« مورتير »

كان أوليفييه منذ ذلك اليوم الذى نجا فيه بأعجوبة من الموت قلق البال مضطرب الفكر فتارة يرى فى مورتير خداعا محتالا غشه ومكر به حتى اطلع على السر الذى وعد بكتمانه ويرى فى المستند الذى زعم انه وجده فى المعمل حيلة اخترعها للوصول الى الغرض المقصود . وتارة يتفاءل خيراً بنجاته من الموت على يديه ويتخيله ساعياً مجداً وراء الحقيقة باذلا جهده لتبرئة سونيا .

تبرئة سونيا ! من ذا الذى يستطيع ان يبرئها ويرد لها ماضاع من سمعتها ولو كذباً فيعطيه كل ماملكت يداه ؟ لتكن كما هي مثلومة الشرف قاتلة فماذا يضره ذلك وهو يعتقد أنها لم تجن الا ماجنته عليها الاقدار ؟ بل لتكن اكثر من ذلك فانه يريدها ولا يستطيع أن يحيي بدونها . ولئن قدر الله لها ان تترك السجن ليهجرن هذا العالم ومن فيه الى مكان لايرى فيه غيرها حتى الممات . ليهجرن هذا العالم الذى عذبها وعذبه بغير حق . هذا العالم الذى كله كذب وظلم ونفاق وتمويه

لعمر والله لم يخطىء مورتير اذ قال انه هو الذى علمها كيف تعترف . فقد اعمته الغيرة وجعلته يحمل عليها تلك الحملة الشعواء التى ضعضعتها وانهكت قواها وحلت عزمها لما سمعت الوعد بحفظ الدعوى حتى فضلت الاعتراف على جدال لايزيدها الا عذاباً . فمن له بالذى يوحى اليها ان تعدل عن اعترافها ويعلمها الاسانيد التى عثر عليها مورتير ؟ من له بأن يراها تنكر التهمة وتدرأها عن نفسها بذلك الحماس الذى كان لها من قبل ولو اضطرت ان تسخط عليه وتتهمه فى وجهه بالخداع والتغرير ؟

لعل العناية الالهية لم ترسل مورتير الا لهذه الغاية أو لأحسن منها . ولعله كما يبين من كتابه قد أثبت براءتها بالبرهان الدامغ . . .

ولكن مابا له يقول « واخالنى عرفت الحقيقة » كانه لايزال فى ظلمات من الشك ؟ ثم لماذا يطلب منه أن يكون فى الفندق الاهلى بغير ان يراه أحد ؟ وأخيراً من هما هارى ستيوارت والمركيز لويجى دى مونتفيورى اللذان لايذكران له بهما صلة أو معرفة ؟

ليكن من الامر مايكون فان شغفه ببراءة سونيا يستحيل ان يقعده على اطاعة أوامر مورتير . . . .

جاءت : الساعة الثالثة فكان أوليفييه فى الفندق أمام الخادم يسأله .

أين هارى ستيوارت

فأجاب الخادم فى الغرفة السابعة والعشرين

قال . وأين هى

أجاب . فى الدور الثالث

فصعد فى المرقاة الى ان جاء أمام الغرفة السابعة والعشرين وطرق الباب فخرج له مورتير قائلا.

لقد كنت انتظرك على احر من الجمر فأدخل

فدخل وجال فى الغرفة ببصره فوجدها غالية الاثاث جميلة الرياش ووجد

. فى وسطها منضدة كبيرة تكاد تضيق بما عليها من الاوراق . ثم جلس وأخذ فى الحديث قائلا .

عند من نحن الآ ن ؟

فتبسم مورتير وأجاب عند هارى ستيوارت اوالمركيز دى مونتفيورى

قال وأين هارى ستيوارت

فاتخذمورتيراللهجةالانكليزيةوقال انا هو مهندس جون برد وشركاه فى مانشستر

فذهب الظن بأوليفييه الى ان مورتير يمزح معه ويهزأ به فقال

لم أفهم ماذا تعنى

أجاب ستفهم بعد قليل

قال وأين المركيز دى مونتفيورى

فقلد مورتير اللهجة الايطالية وأجاب أنا هو أيضاً

قال أرجو ان لاتكلمنى بالاحاجى والالغاز فأشرح لى الامر كله

اجاب : انت تذكر ولاشك انى وعدتك بحل مسائل ستة اذا ظهر غامضها ظهرت الحقيقة فى مقتل كولونا . . . .

فقطع عليه الكلام قائلا نعم ويبين لى من كتابك انك حللتها

اجاب : صدقت

قال : اخبرنى كيف حللتها وما هى الحقيقة التى اهتديت اليها

قال : اما المسئلتان الاولى والثانية وهما — من كاتب الورقة المحترقة ومن قاتل كولونا — فندعهما الآن واما المسئلة الثالثة وهى ـ ان لم تكن سونيا القاتلة فلماذا تعترف على نفسها ـ فانى اجد حلها عند الأيل

فضجر أوليفييه وقال : وما شأن الايل معنا ؟

اجاب : شأنه انه اذا اتعبه الجرى وكلاب الصيد تتعقبه انزوى فى الاجمة ونابت عنه اثناء فتنخدع الكلاب وتتركه وتتبع الانثى التى قدمت نفسها فداء عنه

قال : وماذا تريد من ذلك

اجاب : اريد . . . . .

ثم سمع طرقا بالباب فوقف وهمس فى اذن أوليفييه قائلا :

ها قد جاءنا البرهان القاطع فاختبىء فى غرفة الزينة واسترق السمع ولا تظهر نفسك قبل جلاء الحقيقة

وفى الحال فتح باباً صغيراً ظهرت خلفه غرفة الزينة فادخل اوليفييه ورجع الى الطارق ففتح له الباب وقال :

مرحباً بقدومك ايها الاستاذ

وكان هذا القادم باسكال فرجوس فاجاب : نعم يومك ياستيوارت

اجاب فليكن ما يريد

ثم جلس الاثنان فقال : مورتير وهو يتصنع اللهجة الانكليزية :

لقد خابرت جون برد صباح اليوم فى التليفون واخبرته بطلباتك فقبلها ورضى بالثمن ولـكنه يطلب ان يكون الدفع نجوماً فى مدى ثلاث سنوات

قال : وارجو ان تلتمس لى لاستقدامك الآن عذراً فان طارئاً هاماً يضطرنى للسفر هذه الليلة اوجبنى أن اكتب نص الشروط التى قررناها وادعوك الى هنا للتوقيع عليها . ولولا انى لم أجد فسحة فى الوقت لسعيت الى بيتك

فسأله وأين ما كتبته

فأشار مورتير الى ورقتين فوق المنضدة وقال: هذا هو وقد كتبته بالفرنسية والانكليزية وجعلت منه نسختين فوقع على احداها لاوقع لك على الاخرى

فدنا فرجوس من الورقتين واخذ التى كتبت بالفرنسية وشرع يقرأها فلما انتهى قال : أصبت فى كل ما كتبت واين يجب ان أوقع

فاشار له مورتير على الموضع الذى يجب ان يوقع فيه وقال : هنا

وحينئذ مد فرجوس يده يريد ان يأخذ القلم ولـكنه ما كاد يمسه حتى دهش واستولى عليه الجمود واتسعت عيناه وأحدق بانظاره فى ورقة منشورة على المنضدة الصقت فيها قطع محترقة تبين فيها ثلاثة سطور متقطعة وكلما امعن فيها البصر كلما

اخذه الذهول وظهرت على وجهه لوائح الغضب . وكان مورتير يراقبه بسكون وتؤدة فلما رآه كذلك جعل كانه نسي هذه الورقة واراد ان يأخذها فلم يشعر الا وفرجوس يرده بعنف ويقول :

ماهذا الذى أرى

فتظاهر مورتير بالارتباك والاضطراب وأجاب :

هذا شيء لاشأن لك فيه

ومد يده مرة أخرى ليأخذها فمانعه فرجوس بشدة وقبض على يده وقال:

اخبرنى من أين لك بها ؟ هذا خط امرأتى

الفصل الثالث والعشرون

قف فيمين الله انك مخدوع

هذا خط امرأتى ! كلمة قالها فرجوس فى ساعة دهشة وغضب فابرقت اسرة مورتير وازداد فرحه وعلم ان بحثه وتعبه لم يضيعا سدى . كلمة سمعها أوليفييه فبهت واقشعر وكاد ان يكذب أذنيه

هذا خط امرأتى ! اذن فلقد كان بين واندا وكولونا علائق ومكاتبات. اذن فهى التي توعدت كولونا بالشر ان لم يرد اليها رسائلها . اذن . . . . . فهى..... فهى . . . . . . فهى القاتلة .

ولكن كيف ذلك وهي لم تكن تعرف كولونا ولارأته فى حياتها ؟ كيف ذلك والمعروف ان علاقته لم تكن الا مع سونيا والكتابان اللذان كتبهما لهذه بعد طرده شاهدان لايكذبان ؟ بل كيف ذلك وهى باتت ليلة الاحتفال فى مدينة نامت فى فندق بلكور ولم تأت باريس الا فى صباح اليوم الثانى ؟

لا . لا . ان الدلائل كلها مادية ومعنوية تثبت ان ليس لها بالجريمة أدنى صلة

ومع ذلك فمازالت كلمة فرجوس ترن فى الآذان كانما يتماوج بها الهواء . وما زال مورتير وأوليفييه يردد انها فيأخذهما لها ذهول ولستغراب . . . .

قال : مورتير ماذا تقول ؟

أجاب : فرجوس اقول ان هذه الكلمات المتقطعة هى خط امرأتى

قال : هل انت متحقق

اجاب : من غير شك

قال : كلا بل انت مخطىء

فتناول فرجوس الورقة وجعل يدقق فيها النظر بحدة واجاب . لا لا لالست مخطئاً فانى اعرف خطها كل المعرفة واعلم يقيناً ان هذه الحروف رقم يمينها .ومن المحال ان اكون مخدوعا لان اعتيادها على الكتابة الروسية جعل لخطها مميزات اختصت بها وهى واضحة هنا كل الوضوح . وفوق ذلك فانى اعرف لها هذا الورق الذى مازالت تفوح منه الرائحة الطيبة بالرغم عما اصابه من النار

فسكت مورتير مرتبكا وعاد فرجوس يقول .

متى واين عرفت امرأتى ؟ ولأى داع تكاتبها وتكاتبك ؟انها مابرحت منذ جئتنى مريضة لم تفارق الفراش فهى من غير ريب تعرفك وتكاتبك من قبل . فلماذا كتمت عنى مابينك وبينها ؟ ولماذا اخفيت انت عنى انك تعرفها ؟ بل لماذا آراك احرقت كتابها هذا ثم عدت فجمعت بعضاً منه واحتفظت به وعنيت بالصاقه ؟

فلم يجب مورتير وظل مضطربا . فلما رأى فرجوس اضطرابه ارتعب وأخذت تتنازعه الوساوس ذاهبة به كل مذهب .

ارتعب وانتظر ان تفاجئه الايام بداهية جديدة الله أعلم بما سيكون من وقعها فى نفسه وبما سوف تجره عليه من المصائب والمحن . ولم لا وهذا هو خط امرأته عند رجل اجنبى لم يكد يسأل عنه حتى اضطرب وتملكه الحصر؟ بل لم لا والدهر حرب ابنائه عدو الاحرار عنهم لا ينفك يفجعهم كل يوم بالحوادث .

فأية داهية جديدة تضمرها له الايام ؟ واى سهم سيرشق فى فؤاده فيصيب

منه المقتل؟ الا يكشف له ذلك الا هارى ستيوارت فليشدد فى سؤاله يعرف منه الحقيقة.

قال بحنق وغضب. أجب عما سألتك

ولكن مورتير لم يجب

لم يجب لانه منذ أخذ على نفسه أن يوالى البحث فى قضية كولونا واتخذ السطور الثلاثة المحترقه مرشدة الى الجريمة والمجرم دلته قرائن سوف يأتى ذكرها أن واندا إمرأة فرجوس كاتبة هذه السطور فسعي سعيه ليأخذ البرهان الدامغ على ذلك ولم يرد ان يكاتبها لعلمه بان المرض يمنعها من ان تكتب اليه كما لم يرد ان يقدم المستند الى القضاء خوف ان تنكره سيما ولا توقيع لها عليه. فاختار ان يفاجىء به زوجها فى ساعة يكون قاضي التحقيق حاضرها ليسمع اقراره باذنه. ولقد رأينا كيف تنكر بزى هارى ستيوارت وصبر وبذل جهده حتى أتم حيلته وأوقع فرجوس فى الفخ الذى أعده له.

الا أنه وهو يفعل ذلك لم يكن يرمى الا الى غرض واحد هو اقرار فرجوس بخط امرأته ولم يكن يحسب لما يقوم فى نفس هذا الاخير من الغضب وسوء الظن حسابا فلما رأى ماراًى اضطرب وتلعثم ولم يعرف بما ذا يجيب

عندئذ بلغ الغيظ بفرجوس غايته القصوى واتقدت فى صدره نار الغيرة فقال:

تكلم ياهذا واجب

فاجاب مورتير بم تريد ان أجيب؟ انك مخطىء فى ما ظننت لأنى لا اعرف امرأتك ولا كاتبتها ولا كاتبتنى وانت ولاريب مخدوع النظر لان الكتابات قد تتشابه

قال: أتقسم ان هذا الخط ليس لامرأتى

اجاب: دعنى فقد اخبرتك بكل ما عندى

فوقف فرجوس والغضب يطفح فى وجهه وقال مهدداً: من نكل عن اليمين فقد اعترف فيجب ان تخبرنى فى الحال ما هى علاقتك بامرأتى

فتأخر مورتير بكرسيه وأظهر الضجر وأجاب انك لمجنون

قال: تكلم والا ...!

فقطع عليه الكلام مجيباً دعني من تهديدك ووعيدك

قال : تالله ان لم تتكلم لاضربن بك الارض

اجاب : لا كلام عندى

قال : اذن أيها اللئيم فسأريك كيف يكون الانتقام

وهجم عليه فجرى مورتير مذعورا وفى الحال فتح الباب الصغير وظهر أوليفييه معترضا فرجوس وقائلا :

قف قف فيمين الله انك مخدوع

فوقف فرجوس مندهشاً وقال :

ماهذا ؟ انت هنا ؟ أنت يا أوليفييه؟

أجاب أوليفييه نعم انا هنا وقد سمعت كل ما دار بينكماوأقسم انك مخطىء فى ظنونك وان هذا الذى تتهمه بمعرفة امرأتك لا يعرفها وليس له بها ادنى صلة

الفصل الرابع والعشرون

« اين الحقيقة »

لم تفت أوليفييه كلمة من الجدال الذى دار بين مورتير وفرجوس فلما ايقن ان الخط خط واندا عرته هزة السرور وبدأت الآمال المدفونة فى صدره تتقلب وتنتعش وكبرت سونيا فى عينه وازداد اعجابه بشهامتها اذ اعتقد انها أرادت ان تضحى نفسهافداء لامها . ولغلبة السرور عليه ضجر واشتد به الملل ورغب ان يخرج من مخبئه ليعلن براءتها امام ابيها غير مفكر فى ماسيكون لهذا الاعلان من الوقع المؤلم فى نفسه . ولحسن حظه لم يطل الجدال بين الاثنين وانقلب الى عراك فأصبح من واجبه ان يظهر ليحول بينهما وينقذ مورتير من شر لاذنب له فيه .

ولكنه ما ظهر واصبح امام فرجوس حتى شعر بمركزه الحرج ولم يدر ماذا يفعل أيعلن براءة سونيا وهى لا تبرأ الا اذا اتهمت أمها بأشنع التهم ام يسكت فتضحى الى النهاية ؟ ومع ذلك فكيف السبيل الى اخفاء الحقيقة والعدل لا بد ان يأخذ طريقه مقتصاً من الاثيم تاركا البرىء والقضاء لا يحابى زوجا ولا عالما ولا يهمه ان تكون المجرمة بنتاً او اما ؟ اليس اولى ان يعرف فرجوس الحقيقة برمتها من ان تكتم عنه اليوم ثم يعلمها غداً ؟ لذلك نوى ان لا يخفى شيئاً وان ينقذ حبيبته مهما يكن من وخامة العقبى

قال فرجوس اذن قد كنت يا اوليفييه على علم بقدومى فجئت واختبأت لتسترق السمع وتلم بالحديث الذى يدور بينى وبين هذا الرجل. فلماذا ولاية غاية فعلت ذلك ؟

فلم يجب اوليفييه وحينئذ شعر فرجوس كأن النور يخترق صدره وبانت الحقيقة لعينيه فقال :

لقد ادركت غايتك . فهذا الرجل ولا ريب احد اعوانك سخرته ليعد لى هذا الفخ حتى تسمع منى الاعتراف بأن هذا الخط خط امرأتى .ولكن ماغايتك من هذا ايضا ؟ واين عثرت على هذه الورقة

فاجاب اوليفييه استحلفك بالله ان تشفق على نفسك ولا تسالنى شيئاً

فاشتد به الالم وبدأ يجزع وقال وهل من الاشفاق ان تدعنى للشك يقتلنى ويذهب بى كل مذهب ؟ ان يكن رزء جديد فلقد توالت على سهام الارزاء حتى لم تدع فى موضعاً لسهم آخر فقل ولا تخف قل يا اوليفييه وبدد سحب الشكوك التى تساورنى . قل الحقيقة برمتها

اجاب : ولكنى اخاف ان ترزأ فى الحب الذى قدسته طول حياتك

قال ليكن مايريد الله فليس لمخلوق ان يدفع قضاء او يعارض قدراً وأنا اعلم ان الدهر ان رمى توالت نباله وتتابعت ضرباته وماكانت مصيبتى فى ابنتى الا مقدمة لما تضمره لى من النوائب والأرزاء . فبالله الا مابحت لى بالحقيقة لتزول شكوكى واعلم الى اى حد بلغت مصيبتى

اجاب : اذن فسل ما تريد

واخذ كرسيا فجلس عليه وجلس كذلك فرجوس ومورتير حول المنضدة وشرع فرجوس يسأل اوليفييه قائلا :

من اين جاءتك هذه الثلاثة السطور

اجاب: من معملك

قال : من الذى وجدها فيه

فاجاب مورتير أنا وقد اخذتها من جانب جثة كولونا ليلة مقتله

فنظر اليه فرجوس وقال كانك ياستيوارت كنت فى بيتى تلك الليلة

اجاب مورتير نعم فقد كنت موفدا من قبل الجريدة التى انا محررفيها

قال : وما تلك الجريدة

أجاب : هى جريدة الترميدور وانا مورتير

فهب فرجوس واقفاً وقال ! ! انت مورتير ! !

اجاب : نعم ولم يكن تنكرى ومجيئى اليك باسم هارى ستيوارت الذى سيأتيك بعد ايام قلائل الا وسيلة اردت بها الوصول الى ما تبين اليوم . فان كنت قد كذبت عليك فلانه لم يكن لى غير هذا السبيل وانا اسألك الصفح والمعذرة

قال : ألست اول من رمى ابنتى بالتهم الكاذبة

اجاب . صدقت ولكننى كنت مخدوعا وماكاد الريب يد اخلنى فى تهمتها حتى ذهبت فقابلت اوليفييه واطلعته على شكوكى وآليت على نفسى ان اواصل السعى حتى اقف على براءتها وانى لمسرور ان ارى مساعى توجت بالنجاح

قال . وما الذى دعاك لان تتهمها زورا

اجاب لست الوحيد الذى غرته الظواهر بل خدع كثيرون مثلى . وها هم القضاة لم يسمعوها تعترف حتى آخذوها باعترافها وقبضوا عليها

فبلغت الدهشة بفرجوس اشدها وقال . سونيا ! تعترف على نفسها

اجاب . نعم اعترفت غير انها بريئة

قال لا ريب فى براءتها ولكن لماذا تعترف على نفسها كذبا

اجاب هذا هو السؤال الذى وضعته نصب عينى ومن البديهى انها لا تضحى نفسها الى هذا الحد الا لتفدى شخصاً عزيزا عليها وهذا الشخص هو كاتب هذه الورقة

فوثب فرجوس وقال لعلك مجنون

اجاب لست مجنونا بل اقول الحق

قال امرأتى ؟ .. واندا ؟ ... متهمة ؟ ... بماذا !

اجاب بقتل كولونا

قال ولماذا تقتله

اجاب : لتسترد اوراقاً كانت تخشاها طلبتها منه فلم يرد ان يعطيها اياها الا بالثمن

قال معاذ الله ان تفعل ذلك وانه ليدهشنى منك أن تلقى على اعبائها تهمة ثقيلة كهذه بغير برهان

اجاب : لدى البرهان

قال : اين هو

فأشار مورتير الى الورقة وأجاب ها هو بين يديك

ثم قرأ الثلاثة السطور وقال ارأيت قولها « فانى سأعمل كل شىء لاجل استردادها »

فاصفر فرجوس وارتعب وخارت قدماه وارتمى على مقعد منهوك القوة ضائع العزم . وحينئذ اسرع اوليفييه بفتح النافذة وعاد يقول :

لقد اردنا أن نكتم عنك هذا فأبيت واستحلفتنا ان نقول الحقيقة

فقال : مورتير وهل يجديه نفعاً ان نخفى عنه الحقيقة اليوم ثم تذاع له بالرغم عنا غدا

وكان فرجوس قد استنشق الهواء الآتى من النافذة وارتدت له قوته فقال اصبت يا مورتير اذ يجب ان لا يكتم عنى امر كهذا مهما كان مؤلما شديد الوقع .

ثم كانه استرجع عقله وحزمه فهب وقال بصوت اجش :

نعم يجب ان لاتكلم عنى هذه الاباطيـل فانى لا اعرف امرأتى منذ اليوم بل منذ عشرين سنة فلست ارضى لـكما وانما لاتعرفانها ان تكونا اصح منى حكما عليها واخبر بطهارتها ولن اصدق حرفاً مما تتهمونها به

وعندئذ اراد مورتير ان يذكره بالتناقض بين قوله هذا وبين ظنونه السيئة وهياجه حينما هجم عليه ولكنه خشى ان يؤلمه واكتفى بان يقول :

كانك ترتاب فى حسن نيتنا

فأجاب فرحوس كلا ولكنى من جهة اخرى اثق كل الثقة بامرأتى

قال : وما الذى تظنه

اجاب اظن بل اعتقد انك خدعت

قال وان اثبت لك انى غير مخدوع

قال ما برهانك

اجاب ليس لى برهان واحد بل عـدة براهين اولها واهمها ان امرأتى لم تعرف كولونا ولم تره الى اذ سمعت بموته . وهذا هو أوليفييه يعلم ان كولونا لم يتصل بنا الا منذ ثلاثة شهور وانها كانت اذ ذاك فى مونت كارلو

قال كل هذا صحيح غير انها كانت تعرفه

فسأله بماذا تثبت ذلك

قال ألم تـكن فى مونت كارلو فى شهر يناير الماضى

أجاب بلى

قال لقد كان كولونا هناك أيضاً وعرفها وعرفته .

فسأله : وكيف علمت ذلك

قال رأيت فى احدى الصور التى عثر القضاء عليها فى مسكن كولونا مايفيد انها اهديت اليه من صاحبتها جابى دوزون فى اول يناير الماضى اذ كان وكانت

فى مدينة نيس فمر بخاطرى ان نيس ليست الا على مرمى السهم من مونت كارلو فسعيت حتى تعرفت على جابى دوزون وسألتها فأخبرتنى انها أحبته فى الوقت الذى أهدته فيه صورتها وما زالت على حبه الى ان شعرت بخيانته فترقبت له فوجدته ذات ليلة فى بيته مع امرأة اخرى فهجمت عليها وكادت ان تفتك بها لولا انه منعها بالقوة . ولا تزال جابى الى الآن تحقد على تلك المرأة حقداً شديداً لاعتقادها انهاسلبتها حبيبها وبودها لوعثرت عليها فتنتقم منها شر انتقام. غير انها لاتعرف اسمها ولا مكانها فبقيت لاتهتدى اليها حتى اتفق ان رأتها منذ ثمانية ايام فعرفتها لان صورتها لم تبرح من ذهنها

قال فرجوس واين رأتها

فأخرج مورتير صورة واندا التى كانت منذ ايام فى غرفة الاستقبال واجاب:

رأتها فى هذه الصورة التى اردها الآن اليك وثق بأن جابى لاتعرف للآن اسمها ولا تعلم انها امرأتك

فأخذها فرجوس وقال وهل تكفى شهادة امرأة ساقطة لاتهام اخرى شريفة ؟ انها ولا شك كاذبة

فأجاب اوليفييه من السهل ان نتحقق ان كانت صادقة او كاذبة

قال فرجوس وكيف ذلك

أجاب اوليفييه نجمع بين الاثنتين فجأة فان اضطربت مدام فرجوس كان ذلك دليلا على صدق جابى دوزون والا فهى كاذبة

قال ان كنتما لايقنعكما غير هذا فسننظر فيه . ولكن ان صح ان امرأتى هى التى قتلت كولونا فلماذا لاتقتله الا فى المعمل وفى ليلة حافلة ؟ ولماذا تحرق الاوراق التى تخشاها فى المعمل كذلك لتكون آثارها برهانا عليها ؟ ألم يكن فى طوعها وهى تريد ان تخلص من تبعة الجريمة ان تحرق الاوراق فى غرفتها او فى مكان آخر ولو فعلت ما استطاع أحد ان يوجه اليها تهمة

اجاب مورتير نحن للآن لم نكشف الحقيقة كلها ولعل لهذا باعثاً

أجاب لم أجد ما يبعثنى على التحقق لان الشك لم يخالجنى قط فيهاومع ذلك فلدى دليل يقطع بجبيتها فى ليون تلك الليلة

قال : ماهو

أجاب هو انى فى ليلة الاحتفال كلمتها بالتلفون فى الساعة التاسعة مساء ثم كلمتها مرة أخرى فى الساعة السادسة صباحا لاخبرها بما وقع :

قال وهل اجابتك فى المرتين بنفسها

أجاب نعم وقد عرفت صوتها وتأكدت منه .

قال لعلها برحت ليون بعد الساعة الخامسة ورجعت اليها قبل التاسعة

أجاب : يستحيل ان تجيء وتذهب فى مدى ست عشرة ساعة . وما علينا الا أن نرجع فى ذلك الى دليل السكك الحديدية

فتناول مورتير كتابا كان على المنضدة وقال : هاهو الدليل

وفى الحال أكب الثلاثة على الكتاب يبحثون ثم قال : مورتير :

هاهو قطار يقوم من ليون فى الساعة السابعة والدقيقة الاربعين

فأجاب : فرجوس ولكنه يصل الى باريس فى الساعة الخامسة صباحا

قال : مورتير ها غيره يقوم فى منتصف الساعة السابعة

أجاب : فرجوس وهو يصل فى الساعة السادسة فكيف جاءت وعادت ومتى قتلت وكولونا وجد قتيلا فى الساعة الثانية

وفى الحال بان الارتباك فى وجه مورتير وأسقط فى يده فجعل ينظر الى أوليفييه يستنجد به ويستفسره الامر الذى اشكل . أما أوليفييه فذهبت آماله فى انقاذ سونيا ضياعاً وعاوده الانقباض وحار وغشيت وجهه سحابة سوداء

ولم يكن من سبيل الى تكذيب فرجوس فى مايقول لان لهجة الصدق كانت بادية على لسانه ظاهرة فى عينيه ولكن أوليفييه نزع الى الريب لانه رجاؤه الوحيد فقال :

لاتنس أنك بانقاذ امرأتك تلقى التهمة كلها على عاتق سونيا فان كان ماتقوله

صدقا وكانت الاولى بريئة لم يبق مسوغ للقول بان الثانية اعترفت كذبا فداء لامها

فقال : فرجوس ولم هذا التمنت ؟ لم تكون براءة احداهما مستلزمة لاتهام الاخرى

أجاب : أوليفييه لان سونيا اعترفت بالقتل فأما قصدت انقاذ المجرم الحقيقى وأما هى المجرمة

قال : أما زلت تذكر الاعتراف وتحتج به عليها ؟ انى لا أعرف كيف استطعتم ان تؤثروا على عقلها الضعيف لتقول لكم ماتشاؤون فسأراها فى السجن واسألها عن الحقيقة . ولكننى اقسم وأشهد الله على يمينى انى لم أكذب فى شىء مما قلته عن امرأتى . ولماذا اكذب وأنا ان فعلت فانما أخدع نفسى وأرضى بالعار وأغمض جفنى على القذى كله . ومع ذلك فلا أهون من ان تتبينوا الحقيقة فى فندق بلكور فسلوا الخدم وأصحاب الفندق اذهم ولا بد على علم بمبيتها ولعلهم نظروها تكلمنى فى المساء أو فى الصباح .

فنظر أوليفييه الى مورتير وقال : اذن لقد ضللنا الطريق وذهب التعب سدى

فشمخ فرجوس برأسه وأجاب : قائلا اى وربى

فقال : مورتير وبماذا تفسر وجود كتاب بخط امرأتك فى جانب الجثة وهو بالمعنى الذى عرفته ؟

أجاب : فرجوس وما يدريك ان له معنى غير الذى فهمته ؟ وهبه كما فهمت فهل يتحتم من وجوده ان تكون امرأتى التى قتلت كولونا ؟ أليس محتملا ان يكون لوجوده واحتراقه سبب غير الذى تذهب اليه ؟

قال : أوليفييه كل شىء جائز ولكن لاريب انه شبهة تدعو الى اساءة الظن بمدام فرجوس

أجاب فرجوس : هو ماتقول ويخيل لى ان وراءه سراً غامضاً اذا ظهر ظهرت الحقيقة برمتها فأصبح من واجبى أن اعاونكما بما استطيع لكشف هذا السر حتى تتبدد ظلمات الشكوك وتزول الريبة السيئة التى تكتنف امرأتى وابنتى معاً فاطمئنا فسآتيكما بالخبر اليقين

قال : أوليفييه وماذا تريد ان تفعل

أجاب : سترى بعينك انت وموريتير

قال : وما الذى ستراه

أجاب : انكما اللذان اتهمتما ابنتى وامرأتى فسوف تكونان معى لتشهدا بأعينكما كل ماأفعله وتقتنعا انكما مخطئتان

قال : ليحقق الله ظنك هذا فانه أمنيتنا جميعاً

أجاب : بل هو شرفى ورجائى ورجاء امرأتى وابنتى فى الحياة

قال : متى تأخذ فى العمل

أجاب قريباً

ثم قام بتؤدة وسكون فأخذ قبعته وتركهما دون أن يفوه بكلمة

الفصل الخامس والعشرون

مونت كارلو

نقف الآن عند هذا الحد ونرجع بالقارىء الى ديسمبر سنة ١٩٠٥

أرض مخضرة فيحاء وهواء عليل بليل وسماء تصفو وتغيم ومدينة حفت بالحدائق وماجت بالخلائق نهارها زاه زاهر وليلها ازهى وازهر. خصت بالمتناقضات فالناس فيها خليط من كل جنس وأمة وفئة. والعيش اما رخاء مامثله رخاء وأما ضنك ويأس وشقاء، تبسم الحياة فيها يوما وتكشر يوما، تراها فلاتميز بين روادها رفيعاً ولا وضيعا، غنياً ولا فقيراً، شحيحاً ولا كريماً، عالماً ولا جاهلا، فاضلا ولا سافلا، يجلس فيها الامير والكبير، بجانب الحقير والصغير، ويتأخى العظيم الماجد واللص الفاتك، ذهبها حجارة، وحجارتها ذهب، هى لبعض نعمة، ولبعض نقمة، فقوم

يعبدونها من دون الله، وآخرون يودون لو امطرتها السماء النار والقار ودمرتها تدميراً،
تلك مدينة مونت كارلو مدينة الميسر .

. . . .

الوقت أصيل والشمس محتجبة والسماء تجود رذاذاً ينعش خضرة الحدائق واثنان جالسان فى بهو فندق يتجاذبان اطراف الحديث احدهما الامير أورسو كولونا الذى عرفه القارىء والثانى فتى اميركى اسمه ليوت هادئ يناهز الثلاثين طلق المحيا وسيم الطلعة طويل القامة نحيف الجسم واسع العينين نشأ فى حجر ابوين موسرين فدرس الطب زمنا وبرع فيه ثم فقد أباه فجأة فالتف به عشراء السوء وعلموه المقامرة فصادفت هوى فى نفسه وشغف بها الى ان أضاع ثروته وأصبح يعيش عالة على امه

قال كولونا : لماذا لم تأت امس الى نيس كما وعدتنى

أجاب اليوت : ومالى ولنيس ؟ انك تذهب اليها لصواحباتك وأما انا فلا صاحبة لى فيها

فتبسم كولونا وقال : بل قل انك لا ترضى ان تفارق الميسر ساعة فعسى ان يكون ربحت امس

أجاب : وهل يربح من كان النحس ألزم له من خياله ؟

قال : من الذى ربح

أجاب : هوفن

قال : عجيب أمر هذا الالمانى الثقيل فانه لا تفوته ليلة بغير ربح

أجاب : والأعجب انه فى غير حاجة الى الربح ولو خسر عاماً كاملا ما تضعضعت ثروته التى تقدر بعشرات الملايين ولفرج الكرب عن كثير من التعساء

قال : لاجرم ان المال يجلب المال وأن من سنن هذا الكون ان يفترس القوى الضعيف كما يأكل السمك صغاره وكما يمتص النهر النهيرات

أجاب : لقد جاء هذا الرجل شؤما على كثيرين ،

أسمعت بما وقع للمسكين بيير جودى !

قال : كلا فما الذى وقع له

أجاب : لقد خسر أمس ضد هو فمن اكثر من ثلاثمائة الف فرنك يقال انها كل ما بقى له من ثروته ومهر زوجته وجواهرها فقام وهو فى حالة من الغضب والهياج يرثى لها وحاول ان ينتحر فجرح ولم يمت

قال . وهل جرحه خطر

أجاب : علمت انه أراد ان يضرب صدره فارتجفت يده لشدة هياجه وجاءت الضربة فى كتفه . ولعمرى ان ذلك من نحسه وسوء طالعه

قال وهل من النحس ان ينجو الانسان من الموت ؟

احاب من غير شك فان الموت خير من حياة اصبحت عناء ونكدا والله لو ان لى من الشجاعة ماأقدم به على الانتحار ماأردت ان يعدونى الموت

وفى الحال دخل عليهما فتى مصفر اللون فقطعا الحديث ووقفا يحييانه ثم جلس الثلاثة وشرعوا يتسامرون

كان هذا الفتى ارمان بو اتييه فرنسويا كريم المنصر ترك له ابوه معامل كبيرة للحرير فقام فى مبدا الامر على العناية بها خير قيام حتى نمت واتسعت وتضاعفت ارباحه منها . وكان حين وفاه والده ينوى ان يخطب فتاة تماثله حسبا فحالت الوفاة دون نيته واضطر ان ينتظر حولا كاملا لم يأت آخره حتى كان قد اولع بالميسر واندفع فيه اندفاعا أعمى فنسي معامله وخطيبته وانفتحت امامه هوة عميقة لا يشعر بها . غير ان حبيبته جوديت كانت قد تألمت لاعراضه عنها فمازالت تبحث حتى عرفت انه يقامر فى مونت كارلو فحزنت اشدالحزن وذرفت الدموع وآلت على نفسها ان ترده الى الرشد فارسات تستحثه للقدوم بارق اسلوب فاعتذر ولم يطع فكتبت مرة أخرى فاعتذر كذلك فهاجت بها لوعة غم ووجد وبعثت اليه كتابا ذكرته فيه بايام غرامها وبعهوده واقسامه وقالت :

« حصحص الامر يا ارمان وعلمت انك اتخذت مونت كارلو موطنا تقامر

فيه . حصحص الامر وايقنت انك نسيت ايامك الماضية

ولعمرى ليس حزنى على نسيانك أياى باشد من حزنى على ما سوف يصيب امك واختك يوم تتضح لهما الحقيقة فانى لاعلم امك تعبدك وتلهج بذكرك وتفاخر بك وتؤمل فيك اكبر الآمال فماذا يكون منها يوم تعلم انك اتخذت غير طريق السداد وتضيع آمالها فيك : بل ما ذا يكون منها يوم تعلم انك اضعت فى اليسر كل مالك ومالها وأوقعتها واوقعت نفسك فى حضيض الفاقة ؟

« لقد كنت مع امى عندها امس فبدأت تذكرك وتثنى عليك وتفخر بك واختك الطفلة جوزفين تصغى اصغاء شديدا كانها تجد فى كل ما يقال عنك لذة وسروراً فلم تشعر الا وقد خرجت ثم عادت تحمل هدية جميلة أعدتها لك فى اول العام فلما رأتها أمك فاضت دموعها وقبلتها وقبلناها جميعاً

« وما فرغنا حتى جاء وكيلك مارسيل يسأل عنك ويقول ان لديه اخبارا هامة فاخبرته أمك انك لا تزال عند عمتك فى مانتون ــ لان المسكينة لا تعرف انك فى مونت كارلو ــ ثم سألته عما لديه من الاخبار فانبأها ان العمال فى ليون يتوعدون بالاعتصاب والاضراب عن العمل ان لم تدفع لهم اجورهم المتأخرة فى مدى ثلاثة ايام فاندهشت وجزعت وكلفته ان يكتب اليك فى مانتون «ولقد قام بى عندئذ ان اخبر مارسيل بمكانك حتى يخاطبك فيه ولكنى خشيت عليك سوء الظن وضننت بسمعتك ان تشوبها شائبـة ففضلت ان اكتب اليك بنفسى لتذهب فى الحال الى ما نتون فتأخذ كتاب وكيلك وتعود الى ليون . . . . »

فنبه كتابها هذا منه غافلا ورد الى الرشد ضالا وفعلت كلماته فعل السحر فقام يريد السفر فى الحال ولزمه ان ينتظر ساعة فجاء يمشيها مع اليوت وكولونا

جلس الثلاثة ودار الحديث بينهم فقال اليوت

مالى اراك متأهبا كانك ازمعت الرحيل

أجاب ارمان نعم فبعد ساعة اركب الى مانتون

قال : ان كانت الرحلة الى مانتون فقد تعود غداً

في البؤس والضنك بعد النعمة والرخاء . وفي يقيني ان هذا قصاص عادل لان اللاعب اما أن يكون مسوقا للعب بدافع اللذة او بدافع الحاجة فان كان الاول فهو حقيق ان يحرم من مال يبعثره ولا يعرف قيمته وان كان الثاني فما اجدره بالخيبة وهو يطلب الربح والثروة بلا عمل

قال كولونا اذا ففي اعتقادك ان الربح من المقامرة محال ..

أجاب ارمان نعم والسبب في ذلك بسيط يراه اللاعبون بأعينهم ولكنهم يتعامون عنه . انظر الى لعبة الروليت فانها مقسمة الى ستة وثلاثين عدداً غير الصفر فلو فرضنا ان الحظوظ بين اللاعب والنادي متعادلة فاللاعب يربح مرة في كل سبع وثلاثين ولكنه لا يأخذ في المرة الرابحة سوى خمسة وثلاثين مثلا فهو يخسر دائما مرتين في كل سبع وثلاثين مرة . ولو نظرت الى الاوضاع الاخرى كالمربعات والمستطيلات والالوان والاعداد الفردية والزوجية وغيرها لوجدت مثل هذا الفرق دائما في جهة النادي . أما العاب الورق ولا سيما لعبة البكارا فأموال اللاعبين انما تدور بينهم يميناً وشمالا ليبتلعها شيئا فشيئا الثقب الذي أعده النادي لهذه الغاية . فالنوادي هي التي تأخذ أموال اللاعبين والدليل القاطع انك تراها في أبهة وفخامة لا نظير لها الا في قصور العظماء فهل ترى اربابها يدفعون من عندهم ثمن هذا البذخ اوهم يجملونه حلة لصميد الدهر والدينار على ان مصيبة المقامرة ليست في خسارة المال وحدها بل في نسيان المرء نفسه وعمله وذويه واهله وهل الانسان انسان الا بهذا كله اتامنو منكت ؟ حكمت لدمرت نوادي الميسر كلها ولا نزلت للعقاب الصارم بكل لاعب

قال كولونا : لا تحمل على اللاعبين هذه الحملة الشعواء فانهم كغيرهم من المضاربين في الاسواق المالية او المراهنين في سباق الخيل اوسباق الزوارق

اجاب : ارمان صدقت ولعمري ان كل مضارب او مراهن لكالمقامر سواء بسواء اذ الاساس في الحالتين كسب وخسارة بغير عمل غير ان المراهنة أقل من غيرها ضرراً

قال كولونا : أما وقد ذكرت الضرر فالذى اعلمه واعتقده ان الناس لا يحفلون فى كل شيء الا بالنتائج فمن قامر او ضارب او راهن أو غش او نصب اوسرق وساعدته المقادير فربح وفاز قالوا ذكى فطن مقدام بارع يعرف من اين تؤكل الكتف ولم يذكروه وينظروا اليه الا بالتبجيل والاكرام . ولكنه ان ادبر عنه التوفيق وخسر انحوا عليه باللائمة فقالوا غوى متلاف وحقروه ورذلوه . فالغاية عندهم تبرر الواسطة والمال هو المعبود الذى تتجه اليه ابصارهم وقلوبهم فكن ما تشاء علما وفضلا وحكمة ولا مال لك فليس من حافل بك او شاعر بوجودك وعلى الضد من ذلك كن جاهلا غبياً وضيع الاخلاق تقارف الموبقات كلها وانت ذومال فالدهر طوع يمينك والناس كلهم خدم

أجاب ارمان : ربما كنت مصيبا فى حكمك هذا ولكنه احدى النقائص التى تتصف بها المجتمع الانسانى والتى يطلب استئصالها منه كالسرقة والقتل والجرائم بانواعها فانها وان تكن مما لا يخلو منه مجتمع فليس معنى وجودها ان الرغبة فيها واجبة بل الواجب تهذيب النفوس وتدريبها على كراهتها حتى يطهر المجتمع منها شيئاً فشيئا

ثم نظر الى ساعة أخرى فرأى موعد السفر قد ازف فقام . وحينئذ قال كولونا : عسى ان لا نحرم من رؤيتك

فاجاب : ارمان اما هنا فلا وأما فى باريس أوليون فانى طوع امرك

الفصل السادس والعشرون

من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه

فى شتاء كل يوم يفد الناس زمراً زمراً الى نيس ومانتون وكان ومونت كارلو بعضهم يطلب الصحة والعافية وبعضهم يطلب اللهو والتسليه فتموج بهم الفنادق موج البحر الزاخر وتضيق عنهم فسيحات الطرق والمنتزهات

فى الوقت الذى نعنيه اى فى النصف الاخير من ديسمبر سنة ١٩٠٥ كان فى الفندق الباريسى فى مونت كارلو امرأة يأخذ بالعيون حسنها ويملأ القلوب كمالها ذهبية الشعر زرقاء العينين ليست من باريس ولكنها عاشت فيها وعاشرت اهلها طويلا فأصبحت باريسية الزى والرشاقة والادب الباهر . رآها النـاس فعلموا انها من عليـات النساء وفضلياتهن وراقهم ما نسـوه فيها من الدعـة واللطف ومكارم الاخلاق فأعجبوا بها أيما اعجاب فوق ما فتنوا بجمالها وخفتها وسحر عيونها

ولم تكن ترى الا ومعها طفل ضعيف تبين عليه سيما المرض وخادمة روسية تحنو على الطفـل حنو المرضعـات على الفطيم وتظهر لسيدتها منتهى الاحترام والامانة والاخلاص

هذه هى واندا وابنها بوريس وخادمتها أولجا

تركت واندا باريس وزهوها وجاءت بابنها الى مونتون عملا باشارة الطبيب ميرال فـلم تمض ايام حتى استبشرت ورأته يتقدم الى العافيـة فزالت مخـاوفها واطمأنت . ومن ثم بدأ يعتريها الملل من المعيشة فى بلدة منعزلة صغيرة كمانتون خالية مما اعتادته فى باريس من مجـالى السرور . فرأت ان تذهب الى مونت كارلو حيث المعيشة أرقى وارفع والفنادق حافلة بالاعليـاء والعليات من كل جنس وأمة عساها تنفس عن صدرها الضيق والملل

ذهبت الى مونت كارلو فلم ترد وزوجها بعيد عنها ان يلوذ بها أحد فجعلت كل عصارى نهار تخرج للرياضه مع ابنها وخادمتها بعيداً عن المواضع التى يكثر فيها الزحام فتروح نفسها ساعة وتعود . فلما انس الناس منها الابتعاد وحب الوحدة لم يجرأوا على الدنو منها ونزلت فى عيونهم منازل الوقار والهيبة والاكرام

انقضت ايام قليلة وهى على تلك الحال ثم بدأت تلمح نزيلا فى فندقها فتى جميلا تشعر بزته وملامحه بالغنى والنبل والسؤدد ويعترضها ويتبعها انى سارت وأينما تكون فاوجست منه فى قلبها ريبه وتحاشته جهدها حتى لايجد السبيل الى الكلام معها . غير انه غلبها وتمكن من مبادلتها التحية وهو مار ذات يوم فى بهو الفندق فامتعضت ونوت أن لاتسمح له باكثر مما فعل

وحدث فى اليوم الثانى انها رأته قريباً منها والخادم يعطيه رسالة فقامت بها الرغبة فى معرفته فالقت نظرة حادة الى غلاف الرسالة ولكنها لم تميز سوى أن طابع البريد ألمانى فرجحت أنه من عظماء الالمانيين

على هذا المنوال أخذت الايام تمر متشابهة متماثلةفما ودها الملل الذى لاجله فرت من مانتون وبدأت تحس بالضيق فلم تعد ترى فى الفندق الا سجناً وفى الرياضة ساعة كل عصر الا مذكراً بباريس ومنتزهاتها فيزداد مابها من الغم والضجر . ولما لم يكن لها من سبيل الى الرجوع لباريس لان ابنها لايزال فى حاجة الى الصحة هزها شوق قديم كامن فى فؤادها الى القامرة طلباً للتسلية .

ذلك لانها ورثت عن أبيها وجدها حب الميسر فشغفت زمناً بالمراهنه فى سباق الخيل ووجدت فى ثروة زوجهامتسعاً لاطفاء النار التى تتلهب بين ضلوعها فصارت لايفوتها أسبوع بغير مراهنة وزوجها يغضى اغضاء الحليم الكريم المحب لها المحترم لرغباتها الى ان اندفعت ذات مرة وخسرت فى اسبوع خمسة وعشرين الف فرنك فاضطر أن ينبهها بارق اسلوب واجملة ناصحا لها ان تعدل عن عمل غير جدير بها وبكرامتها . واذ كانت لم تندفع الا طيشاً فقد عرفت خطأها وندمت كاتندم الطفلةاذا زجرت عن ذنبهاوعاهدت زوجها ان لن تعود الى المراهنة

ولقد برت بعد ذلك بعهدها فامتنعت عن حفلات السباق ولم تراهن واصبحت تعتقد مثل زوجها ان من الجريمة ان يبذر بلا حق وفى غير مطلب مال هو ثمرة التعب والعناء سيما وهو مال زوجها الذى اخذ بيدها يوم لامعين لها وانتاشها من هوة الضعة والفاقة واحبها ورضيها زوجته حين لامهر لها غير مارزقت من الجمال والادب وغير قلبها الذى وهبته اياه . فلما مرض بوريس واشار له الطبيب بهواء مانتون ومونت كارلو ولزمها ان ترافقه خشى زوجها ان يعاودها شيطان الطيش والغواية وينسيها عهدها فحذرها واستحلفها فحلفت جاهدة ان لاتلعب

حلفت ويعلم الله انها مخلصة سليمة النية طاهرة القلب تقدس رغبة زوجها وتعلم يقيناً ان المقامرة خسر ووبال . بل فى اعتقادها انها لم تكن فى حاجة الى حلف وعهد جديدين لانها ارفع واسما ادراكا من ان تندفع وتعطى النفس غوايتها الا ان ترد شكيمتها ويكبح جماحها بالعهود والاقسام

لاترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

لذلك فضلت فى مبدأ الامر ان تذهب الى مانتون بعيداً عن الميسر ولكن لما تملكها السأم لم تبال ان تذهب الى مونت كارلو طلباً للتسلية وثقة منها بانها احزم رأيا وأشد دفعاً لنزعات الشيطان من أن تخون عهدين وتحنث فى يمينين

والآن وهى فى مونت كارلو وقد آلت على نفسها ان تأوى الى العزلة ومرت بها الايام متشابهة متماثلة من الفندق الى الرياضة ومن الرياضة الى الفندق تحكم الملل فى صدرها وشعرت بالضيق وصغرت فى عينها مونت كارلو على مارحبت وهبت عليها النسمات الآتية من النادى تحمل ضوضاء اللعب ورنين المال بين ذاهب وآت وضجيج اللاعبين قائمين قاعدين متشوقين الى كرة الروليت وهى منطلقة تجرى لبعض بالربح وبعض بالخسارة فهاج فى فؤادها شوقها القديم وتحرك الميل الكامن واشتعلت بين جوانحها النيران .

ولكنها حاربت نفسها واشتدت وقاومت وابت ان تجرى مع الطيش

فلبثت اياماً طويلة تتدرع بالصبر وتتجلد وتجاهد جهاد الجندى الباسل فى ساحة القتال

تجلدت وجاهدت غير ان الملل ازداد بها يوما عن يوم فنغص عليها عيشها وكدر صفوها وجعلها ترزح تحت أعباء ثقال . وما حيلتها فى ميل موروث جرى فى دمها وتمكن من فؤادها فلن يستطيع له رداً ولا دفعاً ؟ او ماحيلتها وقد خلقت قليلة الصبر كثيرة الضجر .

لاغرو ان خار عزمها ووهنت قوتها كما يهن الجندى اذا تكاثرت عليه سيوف الاعداء . ولاغرو ان تنسى يمينها وعهدها وتنسل ذات ليلة الى قاعة الروليت

الفصل السابع والعشرون

معظم النار من مستصغر الشرر

قاعة الروليت تموج باللاعبين وقائل يقول بصوت رنان :

العبو ايها السادة . . .

العبوا . . .

كفوا عن اللعب . . .

فرد أو زوج . . .

أحمر أو أسود . . .

كفوا عن اللعب . . .

ارفعوا ايديكم . . .

ثم انطلقت الكرة انطلاق السهم فجعلت تدور والقلوب تتبعها والانظار تجرى معها الى ان خفت سرعتها فاخذت تمايل وتسقط شيئاً فشيئاً وحينئذ

ساد السكوت واشرأبت الاعناق وتشوفت النفوس والكرة تمر بالاعداد مر السحاب فتتردد وتحجم احجام الحسناء ذات الدلال . وأخيراً سقطت فقال قائل أربعة وعشرون ..

وفي الحال امتدت مجرفتان ذات اليمين وذات الشمال فجرفتا النقود كلها الا ما كان في العدد الرابع والعشرين ثم تساقط الذهب امام الرابحين وقليل ماهم تساقط المطر وعاد اللاعبون يلعبون . . .

كانت بارسا قد تركت بوريس نائماً وسرت الى قاعة اللعب وهي تقول في نفسها :

ستكون هذه المرة الاولى والاخيرة ... ومع ذلك فسألعب بدينار واحد فان خسرته فسأخرج ولن أعود الى اللعب ماحييت ...

ولقضاء يريده الله بها وضعت دينارها على العدد الرابع والعشرين وربحت فلما اجتمع أمامها ستة وثلاثون دينارا تبسمت ورأت انها تستطيع ان تلعب بها لانها ليست من مالها فلعبت وما زالت بين ربح وخسارة الى ان خسرت الستة وثلاثين

عندئذ غلى الدم في رأسها ووقفت كالصادي الذي اهلكه العطش اذامس الماء طرف لسانه . وكانت قد غضبت لادبار حظها فقام في نفسها ان تستعيد ماضاع بالدنانير القليلة التي تحملها فعادت تلعب فخسرت كل مامعها

لبثت بعد ذلك ساعة تنظر الى اللاعبين وترى الارباح تترى حواليها فثار ثائرها وحدثتها نفسها انها ان لعبت مرة اخرى ربحت كغيرها فطارت الى الفندق واخذت ماتشاء ورجعت تلعب وكلما خسرت تحمست وضاعفت لتستعيد في مرة ماتخسره في مرار

لعبت ثلاث ليال فخسرت خمسة آلاف فرنك هي نصف ما اخذته من زوجها لسياحتها مع ابنها فلم يبق لها الا النصف الآخر اذا دفعت منه نفقات الفندق خرجت صفراء اليدين

ساءلت نفسها ماذا تفعل ؟ اترحل فى الحال الى باريس ام تطلب من زوجها خمسة آلاف اخرى ؟

ان رحلت فليس معها ما يكفى لنفقات الرحيل وسيندهش زوجها لرجوعها قبل الموعد المضروب ؟ وان طلبت فبماذا تحتج لضياع ماأخذته لاكثر من شهرين وقد فرغ فى اقل من شهر ؟ واذا احتجت فهل تكذب عليه ؟ وان ابت نفسها الكذب فهل تعترف انها لعبت وحنثت فى يمينها وخانت عهدها ؟

لا . لا انها ترأ بنفسها ان تفعل مايخجلها امام زوجها اذن ماذا تفعل ؟ ... ليس الا ان تخاطر بما معها عسى ان يساعدها الحظ فتسترد ولو نصف ماخسرت فتقنع به وترضى ان تقتر على نفسها وتترك البذخ وتعيش عيشة الفقراء بقية أيام سياحتها

عادت تلعب فخسرت . . . وخسرت . . . وخسرت .

استمرت الحال على هذا المنوال تسع ليال طوال الله اعلم بما اعتراها فيها من الضيق والغم والالم . وفى الليلة التاسعة اشتد هياجها وفقدت رشدها فصارت الدنانير تفر من اناملها وهي لاتعى الى ان مدت يدها فى كيسها الذهبى تبحث عن دينار تضعه على العدد الرابع والعشرين فلم تجد وأصابها الذهول فلم تشعر الا وصوت يرن فى أذنها قائلا :

أربعة وعشرون . . . لقد ربح العدد الرابع والعشرون .

فانتفضت وغلى دمها وتوترت أعصابها وجرت الى غرفتها ففتحت المنضدة التى كانت تضع فيها نقودها ولكنها ما كادت تنظر حتى ذعرت وتراجعت الى الخلف وكاد ان يغمى عليها .

ما الحيلة الآن ؟ ما العمل : ضاعت النقود كلها ولم يبق معها دينار واحد .

من أين تدفع نفقات الفندق ؟ ومن أين تنفق على ابنها المريض ؟ ومن أين يأكل الثلاثة ويشربون ؟

أترهن حليها ؟ . . . ولكنها تركت معظمها فى باريس ولم تأت منها الا بالقليل التافه الذى ان رهنته لم يكفها أسبوعا . وعند من ترهن هذا القليل ؟ وكيف

تقف صاغرة تمد يدها بحليها لتأخذ بضع دنانير؟ وهل تفيدها بضع دنانير لا تتجاوز اصابع اليد؟

كلا ثم كلا. انها تريد ان تسترجع ما خسرت أو على الاقل نفقات الفندق فلا بد لها ان تلعب مرة أخرى وفي يقينها انها سوف تربح لان النحس لا يمكن ان يحاربها الى النهاية

لا بد ان تلعب. ولكن بماذا؟ بما ترهن به ما معها من الحلى؟ انه يضيع حتما في بضع دقائق. اذن ماذا تفعل؟

انها ترى صاحبة الفندق مدام شاستن تخصها بالرعاية والاكرام وتتزلف اليها في كل آن وتستقبلها بالانس واللطف وتشيعها بالتواضع والاحترام وماذلك الا لانها تعرفها واندا زوجة العالم الشهير والغنى الطائر الصيت باسكال فرجوس فماذ عليها لو استقرضتها الفي فرنك

ان الفي فرنك ليست بالشيء الذي يستكثر على مثلها وترد لاجله خائبة. وفوق ذلك فان مدام شاستن لا تجد مدينا ولا مدينة خيراً منها لانها متى وصلت الى باريس رهنت بعضا من حليها ودفعتها بدينها. وان طمعت مدام شاستن في ربا فلا ضير عليها ان تعطيها ماتشاء.

اذن فستذهب الى مدام شاستن وتقول انها لعبت وخسرت وتريد ان تقترض منها الفي فرنك لتلعب بها الليلة فان ردت خسارتها فبها والا طيرت في الصباح خبراً برقياً الى زوجها ليرسل لها ماتشاء. ومما لاريب فيه ان مدام شاستن سوف تثق بقولها وتعطيها ماتطلب

وليس من عار ولا خجل اذا هي اقترضت لانها في مونت كارلو مدينة الميسر وما من لاعب مهما كان غنياً الا ويضطر الى القرض متى أدبر عنه الحظ. ومدام شاستن على الخصوص لا يمكن أن تجهل ذلك وهي صاحبة فندق ينزل فيه معظم اللاعبين. ومن يدرى فعلها اقرضت كثيرين من امثالها؟ أو لعلها هي نفسها لعبت وخسرت واقترضت؟

اذن فستأخذ الفي فرنك وتعود الى الروليت فيدور معها الحظ دورة الاقبال

والسعد وتربح وتسترد ماخسرت ولا تعود تقامر قط

قامت ومشت الى باب الغرفة فما أدركته حتى شعرت بالخجل واضطربت ووقفت حائرة

حارت لانها تمثلت نفسها أمام مدام شاستن ترجوها ان تقرضها فلما سمعت كلمة القرض تحولت من الابتسام الى الانقباض واعتذرت ورفضت فاصابها لذلك هم شامل وحزن قاتل

وقفت تراود نفسها والوقت يمر وعن قريب تؤذن الساعة بانتهاء اللعب فتصبح خالية الوفاض بادية الانفاض لاسبيل لأن تجوز حيلتها على مدام شاستن لانها انما تريد الاقتراض بالليل لتلعب وعلى وعد أن تكتب فى الصباح لزوجها فيرسل اليها مع البرق ماتشاء

حينئذ كادت ان تجن ففتحت باب الغرفة وخرجت .

كانت الساعة الحادية عشرة وكانت مدام شاستن فى مكتبها فى الدور الاول فذهبت اليها فوجدتها جالسة أمام خزانتها تجردها والادراج مفتحة تبين فيها الاوراق المالية مكدسة فوق بعضها حزما حزما . فلما رأتها مدام شاستن تركت الادراج كما هى واقبلت عليها متلطفة باسمه وقالت :

هل من حاجة

فأجابتها : بصوت مختنق نعم

قالت : ماذا

هنا شعرت بمركزها الحرج فاقشعر جسدها واحمر وجهها وكادت ان تذوب حياة فأجابت بلسان يكاد ينعقد :

أريد ان أعرف كم علىّ لك

فتظاهرت مدام شاستن بالاستياء وقالت :

كانك تنوين أن تفارقينا ؟

أجابت : كلا . . كلا . . . ليست هذه نيتى بل . . .

قالت : ماذا اذن؟

وانها لـكذلك واذا بالخادم يدخل عليهما صارخا :

سيدتى ! سيدتى !

فسألته مدام شاستن ماالخبر

أجاب : خبر مزعج

فارتعبت وقالت ماهو

أجاب : أدركى بنتك حالا . . .

فجزعت وقطعت عليه الـكلام قائلة : ابنتى ! ماذا أصابها ؟

أجاب : صدمتها سيارة فجرحتها

فصرخت صرخة التوجع والألم وذهلت عن خزانتها وأموالها وأدراجها المفتوحة ووثبت معولة مذعورة كاللبوة التى فقدت أشبالها. وتبعها الخادم فنزل الاثنان الدرج وخرجا الى الشارع حيث ضوضاء تصم الاذان :

الفصل الثامن والعشرون

قدر فكان

خرجت مدام شاستن وخرج الخادم وبقيت واندا وحدها .

الآن وقد وقف الحديث عند هذا الحد بقضاء مكتوب فما هى فاعلة ؟لعلها تعود الى فتحه مرة اخرى ؟ وكيف تفاتح فى قرض أما مفجوعة والهة تبكى بنتها الجريحة؟اترضى لو انها نجحت فى سونيا ان تأتيها من تـكلمها فى قرض اوغيرقرض

قضى الامر وحالت الاقدار دون بغيتها . قضى الامر ولم يبق الا ان تعود أدراجها خالية اليد مما أملته وان تعترف لزوجها بما وقع منها

ولكن اتقوى على الاعتراف أتقول انها قامرت ونسيت فى حب القمار كل كرامة لها ولاسمه الذى تحمله فأضاعت آخر ماممها وبقيت بابنها وخادمتها ولا شيءمن المال معها ! أتقول انها مدت للدين يدها وجاءت تتزلف لصاحبةالفندق لولا ان حالت دونها حوائل المقادير ؟

أتقول ذلك كله فتجلب على نفسها أمام زوجها الخجل والخزى والازدراء وهل تطيق ان تسقط من عينيه وتراه ينظر اليها بامتهان واحتقار؟أوهل تطيق ان يتجاوز الامتهان الى البغض والكراهة ؟

وان لم يحتقرها ويبغضها أفلا يغتم ويحزن ! أيمكن ان يسره علم انها عادت الى المقامرة بعد ان عاهدته على تركها مرتين ! ألا يعتقداذذاك انهافاسدةالاخلاق وأن حب القمار جار فى دمها ؟ وكم يصيبه من الحزن اذا أعتقد ذلك !

هذا كله قضى عليها به لبضع أوراق مالية ترى حزماً منهامكدسة تكديسا بجانبها فى أدراج الخزينة . قضى عليها به ولو بقيت مدام شاستن دقيقتين اخريين لارضتها راضية مسرورة من هذه الاوراق كل ماطلبت . قضى عليها انتتجرع الغصة وتجرع زوجها كاساً من الحزن مترعة ولو أنها كغيرهامن النساء الساقطات مااحتاجت الا لان تمديدها فتأخذ مايحفظ ماء وجهها ويرد الهدو والسكينة الى قلبها ويدرأ عنها معرة الاعتراف . أف لهذه الاقدار ماأظلمها وأف لهذا النحس الذى يتبعها ويصدم آمالها ويتحكم فيها بالشدة والقسوة

كم تجد من الالم ! وكم تعانى من الحنق والكمد ! لماذا أرادت الاقدار أن تأتى فتجد مدام شاستن تجرد خزينتها وأدراج الخزينة مفتوحة ؟ لماذاأرادت أن يحدث ذلك الحادث المفاجيء ويأتيها علمه من قبل ان تكلمها فى القرض لماذا أرادت ان تذهل وتنسى خزينتها وتخرج تاركة بجانبها هذه الاوراق التى قليل منها فيه راحتها وسلامها ؟

وهل لبضعة أوراق مالية كل هذه القيمة ؟ وهل تتصرف بضعة آلاف من الفرنكات فى الناس الى مثل هذا الحد ؟

ان كانت هذه الاوراق القليلة تعدل كل هذا الشقاء فما أرخص النفوس في هذا العالم وما أجدر ذوى الضمائر الابية بان يتركوه غيرمبكى عليه ويختاروا الفناء! لتجسن هذه الاوراق ولتزننها فى يدها ولتعصرنها عصراً ثم لتطرحنها مشيعة بالمسبة والاحتقار

. . . .

أخذت حزمة برمتها لاتعلم كم فيها وجعلت تجسها وتزنها وتنظر اليها كما تنظر الافعى الى فريستها ثم انتفضت فجأة وقالت بصوت يكاد يسمع :

ماهذا! حقاً انى أكاد اجن . ومدت يدها تريد أن تضع الحزمة مكانها . ولـكنها فى الحال سمعت وقع أقدام خلفها فردت يدها بسرعة وامعنت النظر فرأت قادما يجتاز الباب

كانت الاوراق لاتزال فى كفها فلم تشعر الا وهى تصر عليها باصابعها وتخفى يدها خلفها وترفع رأسها وتلتفت لاستقبال القادم

وكان هذا القادم هو بعينه ذلك الفتى الذى جمل دأبه أن يتعرض لها والذى فتنته ألمـانيا فقال :

معذرة فقد كنت أريد صاحبة الفندق وأحسبها هنا :

فتمالـكت نفسها وقالت : ألم يبلغك الخطب الذى نزل بها ؟

أجاب : لم يبلغنى شىء قط

قالت : لقد صدمت سيارة بنتها امام الفندق فجرحتها . فسألها وأين هى

قالت : خرجت من برهة

قال : اذن فهذه الجلبة التى أسمعها آتية من الطريق لهذا السبب

أجابت : نعم

جرت هذه المحاورة وهى تشعر كأن الاوراق تلدغها لدغ الافعى أو تلذعها لذع النار وتنتظر بصبر نافد أن يذهب لتصيدها حيث كانت ولكنه لم يذهب وإنما أخذ كرسيا وجلس وقال :

سانتظرها فانها لاتلبث أن تأتى

عندئذ لم يسعها أن تبقى فخرجت بالرغم عنها ويدها لاتزال تصر على الاوراق وكانت الجلبة تدنو منها رويداً رويدا فنظرت فرأت الجريحة محمولة على محفة ووجهها مخضب بالدم وأمها تمشى بجانب المحفة باكية معولة . ولم تكن الا أن رن العويل فى صحن الفندق وعلت فيه الضوضاء حتى تفتحت أبواب الغرف وخرج الناس افواجا أفواجا مذعورين ونزلوا يتقصون مبلغ الخطر على الجريحة ويشاركون صاحبة الفندق فى مصابها : فلم تشعر الاوجم كثيف يزحمها ويدفعها واذ كانت لشدة اضطرابها وخوفا من بقاء الاوراق فى يدها وذلك الرجل جالس فى المكتب لايريد أن يفارقه ذاهلة العقل ذاهبة الحس لاتكاد تفهم أو تميز شيئاً مما يجرى حواليها فقد استسلمت للزحام وانساقت معه بغير ادراك الى صحن الفندق

هنالك رأت نفسها بجانب الجريحة والدماء تجرى من جراحها كالسيل فارتعبت وتجسم منظر الدم فى وهمها فخيل لها انها تسبح فى بحر من الدماء . فوثبت تريد الفرار واذا بها تبصر مدام شاستن فانخلع فؤادها وأحست بالخوف يقتلها واسود كل شيء فى عينيها وجرت الى حيث لاتعلم

جرت قليلا ثم عثرت بمقعد وكان التعب قد أضناها فجلست تستريح . وبعد برهة أخذت تجيل انظارها فى ماحولها لتعرف أين هى فاندهشت اذ وجدت نفسها فى بهو النادى وطرق أذنها ضجيج اللعب ورنين الذهب وصوت القائل :

العبوا أيها السادة ...

ثم صوته بعد ذلك :

أربعة وعشرون .. لقد ربح العدد الرابع والعشرون

ماذا تصنع الآن ؟ لقد كانت تتمنى ان تقترض لتلعب وتربح مايكفيها مؤنة الاسراف وسعت لذلك بجدة مجتهدة . والآن هاهى على قيد ذراع من الروليت والمال فى يدها وما من حائل يحول بينها وبين اللعب . هذا الكأس فى الاقتدار

وقفت قليلا تنظر شمالا ويميناً فلم تقع عينها على شيء ولكنها ارتعبت وجرت طويلا

جرت طويلا لان الوهم خيل ان صوتا يرن فى أذانها ويقول : ياسارقه

جرت تريد ان تبعد عن هذا الصوت ولكنه لم يفارقها بل اشتد حتى كاد يخرق اذنيها

ياسارقة ! نعم سرقت واندا ؟ واندا النبيلة الغنية امرأة العالم الشهير باسكال فرجوس ! سرقت عشرين الف فرنك ! هكذا يفعل الميسر .

بعد ساعة وربما بعد برهة تكون مدام شاستن قد فرغت من العنايه بينتها وعادت لخزينتها فتعلم أن حزمة اوراقها فقدت . وعندئذ تذكر ولا ريب انها تركت واندا بجانب الادراج مفتوحة وتلقى عليها تهمة السرقة فما سوف يكون جوابها وماذا أعدت لدفع التهمة عنها

أتنكر وتكذب ؟ وهل الانكار يجدى نفعاً ؟

اذن سوف تطاردها الحكومة مطاردة اللصوص وتقبض عليها وتلقيها فى غيابة السجن

أيصل بها الامر الى هذا الحد ؟ ما اشأم حظها وما أسوأ هذا المنقلب

لا . لا . لابد ان تتقي الشكوى بما استطاعت . لابد أن تجتنب الفضيحة لاخوفا على نفسها ولكن خوفا على بنتها وابنها بل خوفا على زوجها الذى تحبه وتفديه بروحها

زوجها ذلك الذى اكرمها وأخذ بيدها يوم هى وحيدة بائسة فرفعها الى حيث هى واعطاها قلبه ومكنها من نفسه وثروته وقياده وارادها ان تكون عاقلة لاتقارف الدنايا فقارفتها وقامرت وسرقت وجلبت عليه التشهير والهوان والمذلة

كم تشعر الآن بهذا الحب وكم ترى نفسها جانية مجرمة وكم تحس بوخز الضمير وكم تتمنى لو تنقذها العناية مما هى فيه لتكافىء هذا الزوج الذى غدرت بعهده ولم تعرف قدره

كيف وبماذا تتقى الشكوى ؟ ليس الا ان ترد الليلة او غداً الى صاحبة الفندق ماسرقت منها وتضرع لها حتى تسكت ولا تشكو . أما الليلة فحال واما غدا فلا سبيل الى المال الا من زوجها

لو اعترفت له لفداها ولاشترى كرامتها لا ببضعة آلاف بل بمئات ولرضيت سنيا ان تتنازل عن مهرها كله لأنها تعرفهما يحبانها ويعبدانها كما تحبهما وتعبدهما

ولكن مصيبتها انها لا تجسر على الاعتراف . مصيبتها انها ابية النفس عزيزة الجانب لاتطيق ان تحمل أمام أحد خزيا وتفضل الموت على الخجل ..

اذن لاسبيل الا الموت . نعم هو السبيل الوحيد للخلاص من هذا العذاب وخير لزوجها وابنتها ان يعلماها ماتت بشهامة من ان يرياها آثمة يجر اثمها عليهما العار والشنار .

من لها بالمقامرين جميعاً يقفون أمامها صفا صفا صاغين منصتين لتقوم فيهم ناصحة فتقول من لايؤمن الا بالعظة البينة فليتعظ بى من لاتزال تغره الآمال فلير كيف عاقبتها من لايبرح يرجو الربح من المقامرة فلينظر ماذا ربحت

من لها بالناس جميعاً وبمنبر ينص بينهم لتخطب وتقول من لم يعرف كيف تزل الاقدام وتندفع النفوس الى الآثام فليعرفني من غفل عن حوادث الايام واعتز بغنى أو جاه فليذكرني وليذكر كيف اعتززت ثم هويت وذللت . . .

اللهم لاقوى ولا عزيز الا انت .

من رآنا فليحدث نفسه انه موف على قرن زوال
فصروف الدهر لاتبقى لها ولما تأتى به صم الجبال

مشت ... ثم مشت ... ثم مشت .

الليل هادىء كانه ينصت للخواطر التى تتردد فى صدرها والبرد زمهرير كانه موكل بتسكين هياجها واطفاء النار التى تتأجج فى جسمها رحمة بها واشفاقا عليها ولكنها بعيدة عن ان تحس بذلك كله ولاهم لها الا ان تمشى وتتقدم الى حيث لاتدرى

أجست بغصون رطبة تلطم خـدها وزهور طيبة تعترض طريقها وخضرة تغيب فيها أقدامها

خرجت بعد ذلك الى أرض سهلة رملية وسطع نور القمر فرأت على مقربة منها سبيكة من الفضه تمتد الى مـدى البصر فعلمت انها عنـد البحر ففرحت وتقدمت بهدو وسكون .

عثرت عند الشاطىء بصخرة عالية فوقفت عليها وتأهبت لتلقى نفسها فى الماء .

هذا هو الموت قد ساقه الله اليها لتنجو من عذابها

ستثب الى الماء فتضاربه دقيقة ثم يطويها فى جوفه ويرجع السكون وينتهى الامر

سيجد الناس غدا جثتها فيحسبونها غرقت قضاء وقدرا .

سلام عليك ياسونيا . سلام عليك يافرجوس . سـلام عليك يابوريس .
سلام عليكم جميعاً من شقية منكودة الحظ جنت على نفسها وعليـكم من حيث لاتشعر ولا تشعرون

ها هى تموت فعسى أن يكفر دمها عن ذنبها .

ها هى تهم بأن تلقى نفسها فى الماء . . .

الفصل الثلاثون

قدر فكان

قفى مكانك

دوت هذه الكلمة فى الفضاء وقبضت يدان شديدتان على ذراعها فاستحال عليها الوثوب ووقفت حيرى ذاهلة

نظرت الى جانبها فرأت ذلك الرجل بعينه ذلك الرجل الذى فاجأها فى المكتب وتبعها الى النادى

ماله بها ؟ لماذا يتبع خطواتها ؟ ماذا يريد منها ؟

آليس هو الذى منعها من ان ترد الاوراق الى مكانها ؟

أليس هو الذى اضطرها ان تخرج والاوراق فى يدها ثم كان ماكان ؟

أليس انتحارها وما سوف يصيب أسرتها من عار السرقة نتيجة مماكسته اياها ؟

فما باله يأتى الآن ليمنعها من ان تنتحر ؟ ماذا اعدت الاقدار لها من الحوادث على يده ! وماذا كتب له معها ؟

رفعت رأسها مندهشة مذعورة حاقدة غضبى وقالت بصوت يتهدج :

انت ! هل تبعتنى الى هنا ؟ ومالك بى ؟ ومن انت ؟

اجاب انا من يريد بك خيراً ويبذل كل غال لانقاذ حياتك

قالت وبماذا تهمك حياتى ؟ وباى حق تتداخل فى ماهو من شأنى

أجاب أتداخل لأن من أشرف الاعمال اغاثة الملهوف وانقاذ البائس اليائس فثقى بأن أمامك رجلا يريد لك الخير ويحزنه ان يراك تختارين الموت لبضعة آلاف من الفرنكات اضعتها فى اللعب

قالت ومايدريك ذلك

أجاب لقد تبعتك ورأيت كل مالعبته وعلمت انك خسرت عشرين ألف فرنك وتالله انه ليدهشنى ان تيأس وتنتحر لمبلغ كهذا امرأة فى هذا الصبى وهذا الجمال وزوجها العالم الموسر باسكال فرجوس

فانتفضت واندا اذ رأته يعرفها ويعرف اسم زوجها . أماهوفاستمريقول:

فما هى عشرون الفاً لامرأة مثلك يدوى ذكر اسمها واسم زوجها فى انحاء أوروبا ؟ ولكن يبين لى انك لم تيأسى كل هذااليأس الا لانكاقترضتها ويتحتم ان ترديها فى الحال . . .

فاصفرت وارتعبت واستمر يقول :

فان أصاب ظنى فاعلمى انى ربحت الليلة ورأيت من اقبال الحظ مالم أره فى حياتى ولا شىء أحب الىّ من ان تقبلى مساعدتى وترضى بأن أقدم اليك ماأنت فى حاجة اليه . واعتقدى انك ان رضيت شملتنى بنعمةاشكرك عليها مدى الدهر

وكان وهو يقول ذلك قد ترك ذراعها ووقف متلطفاً محتفياًرافعاقبعته رغم عن البرد القارص فراقها منه هذا الاحترام وأدهشها أمره وجعلت تتساءل :

من يكون هذا ؟ وما غايته من ان يبادر الى مساعدتها فى اللحظة الاخيرة؟ أهو كما يقول رجل حسن النية سليم الطوية يسعى لاغاثة اللهوف ويريدلها الخير أم عاشق يحاول ان يأسرها بمروءته وعوارفه أم مراب يطمع فى الكسب من فرصة عزيزة المنال ؟

ثم هل رآها وهى تأخذ أوراق مدام شاستن ؟هل يعلم انهاسارقةوأن يأسها ولانتحارها ليسا الا خشية العار والفضيحة ؟ . . . . . لاريب ان عمله وكلماته يشيران الى ذلك فما أشد خزيها وما أضيعها فى يديه ! . . . . . . ولكنه على مايبين منه لايريد بها شراً

ترددت فى ذهنها كل هذه الخواطر وكان قد فرغ من الكلام فاجابت بصوت مضطرب :

لاريب انى اشكرك وأثنى على مروءتك وحبك للخير وأعتقد أن لم يبعثك

على ماتفعل الاشرف نفسك وطيب عنصرك . ولـكنى ارجوك صفحااذارفضت اليد التي تمدها الىّ لانى لاأجد مسوغا يبيح لإمرأة مثلى ان ترضى بالغوث على هذه الصورة من رجل لاتعرفه . قال : معذرة وعفوا فقد قضت الضرورة ان نأخذ مباشرة فى الحديث وانستني الدهشة ان اعرفك بنفسي ولـكن ان فاتنى هذا الواجب من قبل فهو لايفوتنى الآن

ثم انحنى بتواضع واجلال وقال :

اسمى اورسو كولونا وأنا ولله الحمد فى غبطة من العيش وسعة تسمحان لى بأن امد اليك يد المساعدة فاقبلى ماأقدمه وتيقنى انى شريف الغرض لا أبتغى غير اسداء الجميل والمروءة لمن آعرفها وأعتقد انها أهل لـكل مروءة . ثم كونى على ثقة بانى أكتم الناس للسر وابعدهم عن التحدث والمفاخرة وأن لسانى لن يبوح بكلمة مما يقع الآن بيننا

فأعجبتها كل هذه الشهامة وقالت :

اذن فانت لاتسدى الىّ هذا الصنيع الا مروءة وكرما ؟

فاجابها بلى

قالت : ولا تضع فى سبيله عقبة ولا شرطا ؟

أجاب : لاعقبة ولا شرط الا ان تكتبى سنداً بالدين

قالت : هـذا لاريب فيه

أجاب : ولك ان تعينى موعد الدفع كما تشائين

قالت : كما تشاء انت

أجاب : انما أريد ان لايحس زوجك انك وفيت دينا فاختارى الموعدالذى تستطيعين فيه الدفع بغير كلفة ولاتعب

قالت : ليس يهمنى الموعد فان عشرين الف فرنك ليست مما يحشمنى التعب بعد هذه المحاورة اعتقدت واندا انه أحد أولئك المرابين الذين يدورون حول اللاعبين حتى اذا خسروا وخلت ايديهم من المال تقدموا اليهم فى زى المروءة

وعرضوا عليهم المال بالربا الفاحش طمعاً فى الكسب . فارتاحت لهذا الاعتقاد ورأته خيراً من أن تحمل مروءة لرجل لاتعرف شيئاً من صفاته واخلاقه .

وعلى كل حال فسواء صح اعتقادها او لم يصح فالذى يهمها هوان تنقذ نفسها وها قد لاحت لها فرصة من اجمل الفرص فلتنتهزنها ولتعضن عليها بالنواجذ مهما تجشمت فى سبيلها من المصاعب

جرت هذه المحاورة وهما على الصخرة فلما سمع كولونا جوابها بالقبول فرح وتبسم وقال :

أتسمحين ان نعود

أجابت : نعم فانعد الى الفندق لاكتب السند

قال : يبين لى انه ليس من الصواب ان يراك الناس راجعة معى الى الفندق فى هذه الساعة او ان يعلموا انى اقرضك مالا فان حسن لديك فعلى مقربة منا حانة صغيرة هى من غير شك لاتليق بك ولكنها اكتم للسر وادرأ للشبهات فلنذهب اليها

فارتاحت الى رأيه وقالت : أصبت فهيا بنا

وفى الحال رجع الاثنان يمشيان جنباً الى جنب فتبينت واندا الطريق فعلمت انها كانت قد خرجت من المدينه وسارت شوطا بعيدا متجهة الى روكبرون . وبعد ربع ساعة بانت انوار مونت كارلو وضواحيها فاخذ الاثنان السير حتى وصلا الى حانة قذرة يظهر منها نور ضئيل ولا أثر لصوت أوحركة فيها فقال كولونا :

هاهى الحانة .

فاشمأزت واندا من منظرها وأوجست ريبة وترددت ولكن كولونا فتح الباب بيده واشار اليها بالدخول فلم يسعها الا ان تدخل . وما اجتازت العتبة حتى وجدت رجلا وامرأة جالسين فى زاوية امام منضدة بالية وهما يأكلان لحما يقطعانه اربا اربا بسكين كبيرة حامية ذات حدين كحدى الخنجر . فحينما رأياها قاما يستقبلانها باحتفاء واحتفال وينتقيان لها ولكولونا المقاعد النظيفة وبعد ذلك

التفت اليهما كولونا وقال : بلهجة السيد الآمر :

اعطيانى مايلزم للكتابة ثم اخرجا معا الى الطريق ولاتعودا الا أن آذن لكما

فاجاب الرجل باللغة الايطالية :

سمعاً وطاعة

وفى مثل لمح البصر اعدت ادوات الكتابة ورفع الطعام الذى كان على المنضدة ماعدا السكين وخرج الرجل والمرأة وأغلق كولونا الباب من الداخل بالمفتاح

عندئذ شعرت واندا بخجل شديد واستنكرت وجودها مع رجل أجنبى فى حانة قذرة والباب مغلق والساعة الثانية بعد نصف الليل

ماذا تقول صواحباتها اللواتى يجللن مقامها ويكبرن شممها لورأينها فى تلك الساعة ؟ بل ماذا تقول سونيا التى لاترى شرفاً ولا فضيلة ولا وقاراً الا فى أمها بل ماذا يقول فرجوس الذى يعتقد ان ليس فى سمو الآداب والعفاف والاخلاق غاية لم تنلها امرأته ؟ هكذا تفعل فيها الحوادث وهى التى آلت على نفسها منذ وطئت أقدامها أرض مونت كارلو ان تأوى الى العزلة مادام زوجها بعيداً عنها! هكذا المقادير تعين عليها هذا الرجل الذى لبث يتعرض لها أياماً فلم يظفر منها بكلمة ؟ هكذا تمينه مرة واحدة بل فى ساعة واحدة وفى ليلة واحدة

كم مر عليها من الحوادث فى هذه الليلة ! لعبت وسرقت ولعبت مرة اخرى وأرادت الانتحار فمنعها هذا الرجل ثم أخذها وانفرد بها فى حجرة مخيفة وأغلق عليها الباب !

وهذى السكين بل هذا الخنجر الذى تراه وترمقه شزراً لماذا نسيه صاحب الحانه ؟ وهل نسيه حقاً أو تناساه ؟

ولكن لم كل هذه الهواجس وكولونا لايزال يحترمها ويتأدب فى مخاطبتها دون أن يظهر عليه مايشعر بخيانة أو نية سيئة ؟

دعاها كولونا الى الجلوس أمام المنضدة وقدم اليها الورقة والدواة والقلم وقال:

هل أنت مستعدة للكتابة

أجابت : نعم

فأخرج سفتجة صغيرة مملوءة بالاوراق المالية وعد اثنين وعشرين الفه وقال : هاأنا قد زدت الني فرنك لتنفقي منها حتى تعودى الى باريس

ثم وضع الاوراق بجانبه ووضع عليها السكين ببطء وتأن وتؤدة فأخذها شيء من الضجر وقالت :

أرجو ان تسرع فى العمل

قالت ذلك لأنها تعلم ان عليها ان تعود فى أقرب مايمكن لتضع بدل الاوراق التى أخذتها قبل ان تشعر مدام شاستن بضياعها . ومن يدرى ان كانت تستطيع وتجد فسحة فى الوقت

ولكن كولونا لم يبال بضجرها وازداد تأنيا كانما يسره ان يعذبها العذاب كله قبل أن ينقذها

أخيراً قال : هيا اكتبى

ثم شرع يملى عليها :

« أنا الموقعة على هذا واندا فرحوس كريمة المرحوم دانيلوف . . . »

فرفعت عينيها منذهلة تعجب وتتساءل من أين له أن يعرف اسم أبيها .

ولكنه لم يعن بها واستمر يملى :

« اعترف ان علىّ للأمير أورسو كولونا . . . »

فرفعت رأسها مرة اخرى وقالت : أأمير انت ؟

فتبسم وأشار اشارة الاحترام وأجاب : نعم أنا خادمك الامير أورسو كولونا

ثم عاد الى الاملاء :

« اثنان وعشرين الف فرنك اقترضتها منه ليلة الخامس من شهر يناير سنة ١٩٠٦ منها عشرون ساردها بدل التى سرقتها . . . »

فوثبت يتطاير الشرر من عينيها وقالت : بصوت أجش : سرقتها !!! أنا !!!

أجاب : نعم فقد سرقتها من خزينة مدام شاستن وهى التى خسرتها فى اللعب

قالت : كذب كل هذا . كذب محض

أجاب بشدة : من العبث ان تنكرى فانى رأيتك بعينى رأسى : دعى التحمس فليس معنا هنا ثالث واجلسى وا كتبى

قالت : ماذا ا كتب

أجاب : ا كتبى « التى سرقتها . . »

فرمت القلم بعنف وقالت : كلا والف مرة كلا

أجاب بفتور وسكون : افعلى ماشئت

ثم أخذ الاوراق المالية والسفتجة ولبس قبعته وقام وقال :

لم يبق من داع لوجودنا هنا فارجوان لا أكون أسأت اليك وهبى انك لم تنظرينى .

وفى الحال اتجه الى الباب ولكنه لم يخط خطوتين حتى ذعرت واندا وصرخت بالرغم عنها :

قف . قف

صرخت لانها بعد أن رأت الامل فى النجاة دانيا منها راعها ان يذهب مرة واحدة ولا شىء آلم للنفوس وأقتل لها من أمل بينما هو دان اذا به يضيع فجأة ولا يبقى له أثر :

وبديهى ان كولونا ادرك معنى صراخها وأيقن انه علامة الفوز فوقف وقد ترك ماكان يظهره من التأدب وتحول الى السخرية فقال :

لعلى نسيت شيئاً ؟

ولكنها كانت فى حالة من الهياج والغضب والحزن جعلتها لا تفطن لسخريته فقالت

اذن لامناص من كتابة السند بالصورة التى تريدها

أجاب : نعم لامناص من ذلك

قالت : أليس فى الامكان تحوير الكلمات الاخيرة وجعلها مبهمة

أجاب : كلا

قالت : وما غايتك من تخجيلى الى هذا الحد ؟ هل اسأت اليك لتنتقم منى

وتبالغ فى تعذيبى ؟

أجاب . معاذ الله ان أريد بعملى هذا انتقاما أو تعذيباً

قالت : اذن فلماذا كل هذه القسوة وهذا الحقد

أجاب : تالله انى لابعد الناس قسوة عليك وحقداً وحسبى دليلاعلى صدق نيتى وصفاءسريرتى وحبى لك الخير انى جئت انقذك من الموت والعار وانت لاتعرفينى فاخلصى النية مثلى ولا تضعى العراقيل فى سبيل الصنيع الذى اريدان أسديه اليك

قالت : وهل ومن صدق النية وصفاء السريرة أو هل من الصنيع وحب الخير ان تلزمنى بأن اعطيك سلاحا ماضياً ينغص عيشى ويجعلنى فى قبضة يدك مدى الحياة

أجاب : لو كنت خبيث النية اريد بك شراً لتركتك للموت ولم اهتم بك فى هذا الليل وهذا البرد لانقذك من مخالبه

قالت : اريد ان تصرح لى بغايتك من تحرير السند على هذه الصورة

أجاب : غايتى التى اسعى اليها هى انقاذك من البلاء المحيط بك ولكنى أردت ان يكتب السند بهذه الصورة ويجب ان تحترم ارادتى

عندئذ اعتقدت ان لا فائدة من المحاورة وارتمت على الكرسى واعتمدت رأسها بيديها وجعلت تفكر فى سبيل للخلاص من الهاوية التى سيقت اليها كرها فلم تجد وكان كولونا واقفا يتفرس فى كل شارة تبدو على وجهها فلما علم كنه ما يقوم فى نفسها اراد ان لا يدع لها وقتا للتفكير والتدبير فقال :

علام عولت ؟ أأخرج ام أبقى ؟

فرفعت رأسها وقالت هب انى كتبت السند كما تطلب فهل ترده لى عندالوفاء

اجاب : بلا ريب

قالت : وهل تعدنى وعداً صادقاً ان لا تظهره لاحد

اجاب : ثقى بانى ارفع من ان آتى عملا وشيئاً كهذا ليس لى منه فائدة قط لعمرى لست ادرى لماذا ترفضين طلبى فدعى العناد واعلمى ان شأناً هاما يضطرنى لتركك بعد ربع ساعة فان لم تطيعى وتكتبى الان ضاع الوقت وافلتت من يدك هذه الفرصة السانحة

فهبت بشهامة وإباء وقالت لست كاتبة شيئاً

قال : اذن فانت لاتريدين النقود

اجابت : نعم لا أريدها

قال : ارى سوء العاقبة فانى اعتبر هذا الرفض اهانة لى وقد اضطر لان اعاديك فأذهب توا الى مدام شاستن واخبرها بما كان من سرقتك لها

اجابت : اتجسر ان تفعل ذلك

قال : نعم

فاصرت على اسنانها بسخط وغضب وقالت حقا انك لئيم دنى فلماذا . . . لماذا تحاربنى هذه الحرب الشعواء ؟

ولكنه لم يجب فقالت بصوت اليائس : خير لى ان اموت فان الموت احب الىّ مما تدعونى اليه

أجاب : افعلى ماشئت ولكن لا يغيب عنك ان الموت وان انجاك من شر الفضيحة فهو لا ينحى ذويك من عار سرقتك التى سوف يشهد بها شاهدان عدلان لاترد لهما شهادة

فاخذتها الدهشة وقالت شاهدان ؟ ؟

أجاب : نعم

قالت : من هما

اجاب : انا الاول وانت الثانى فاما انا فقد رأيت بعينى راسى واما انت فان أنتحارك بعد الخسارة التى خسرتها الليلة من النادى مما لا يدع موضعاً للشك فى السرقة واذ ذاك يلبس زوجك وولداك ثياب الهوان والمذلة تلك هى الحقيقة التى تتجاهلينها وتتغابين عنها فان كانت تسرك وترضيك فهاهى السكين فانتحرى

ثم ألقى الخنجر تحت قدمى واندا فارتدت للوراء جازعة كأن نصله اصاب جسمها ثم أخذت تعض كتفيها من الغضب وتقول لمضطهدها

ويل لك يا قاتل

ثم خطر لها خاطر كالبرق فقالت له

ألا تعلم انني ان قتلت نفسي هنا وانت منفرد معي وقد اغلقت علينا الباب تتهم بقتلي

قال : ربما ولكن لا يخفاك انك جميلة فلا بد ان القوم يتساءلون عما حملك على المجيء معي مثل هذا المكان في مثل هذه الساعة : وانت تعلمين ان سوء الظن من سجايا الناس : وما اظنهم يتهمونك اذ ذاك الا بما هو افظع من السرقة افهمت

فارتدت واندا وزأرت كاللبوة وقالت

حقاً انك لص مغتال

قال : لا تطيلي يامولاتي واكتبي

وغابت واندا على أمرها فارتجفت من الحنق والخجل ثم تناولت القلم وقالت بصوت أجش

أمل عليّ

قال لها متمماً عبارة السند

« التي سرقتها من مدام شاستن من خزانة الفندق وخسرتها في اللعب هذه الليلة وأتعهد برد المبلغ للامير أورسو كولونا »

والآن فما عليك يامولاتي الا تحديد الاجل

قالت : ليكن أقرب اجل لأتخلص منك : فهل ترضيك عشرة أيام

قال وهل ترغبين في ان يكون سنة

قالت : كلا بل شهراً على الاكثر وربما أقل

قال : ليكن ما تشائين اكتبي شهراً

أجابت : ولي ان أرد المبلغ قبل انقضائه

قال : لك ذلك يامولاتي . فما عليك الا ان تتكرمي باخطاري حينئذ باليوم والساعة التي اتشرف فيها بمقابلتك . والآن فتكرمي بالتوقيع على هذا السند

فترددت قليلا وكانت يدها ترتعش . واخذت تفكر فيما سيطلبه منها هذا الشقي ثمنا للسند فاسترخصت في سبيله حليها وملابسها أذا شاء . ثم وقعت على

الورقة فقال لها الملعون تكرمي يامولاتي بذكر اسم زوجك وأبيك فى التوقيع فاكتبي « واندا فرجوس بنت دانيلوف » ثم ضمى التاريخ

ففعلت كما طلب ثم آخذ كولونا الورقة فقرأها بامعان وقال :

حسنا . حسنا .

ثم قدم لواندا رزمة الاوراق المالية قائلا

هذا المال مالك يامولاتي فخذيه

فتمتمت قائلة : لقد اشتريته بثمن عظيم .

ثم عرض لها خاطر قبل أن تلمس المال فقالت

فاتك امر

أجاب : ماذا

قالت : انك لم تذكر فائدة المبلغ الذى اقرضتنيه فى السند

ثم تبسمت مستهزئة وقالت : ايرضيك خمس وعشرون او خمس وسبعون فى المائة ؟

قال : لاتهتمي بذلك يامولاتي

فاجابته مندهشة : عفوا ياسيدى فانى لا اخالك تقرضنيه بلا فائدة فاعلم أنى لااتنازل لقبول تلك المكرمة من مثلك

فتبسم وقال : اطمئني يامولاتي فستدفعين ثمن تلك المكرمة انما دعي تسوية امر الفائدة ليوم الوفاء

فاحدثت كلماته فى نفس واندا ماأحدثت أوعدتها تهديدا ولكن ماالعمل ؟

فتناولت المسكينة المال ووضع كولونا السند فى محفظة اوراقه ثم تقدمت واندا نحو الباب قائلة

اظن الامر قد انقضى

اجاب عفوا يامولاتي فلى سؤال أني تريدين أن اقابلك عند حلول الاجل افى مونت كارلو ام فى الفيلا التى تقطنها

فارتعدت واندا اذ رأته عالما عنوانها أما هو فاستمر قائلا

اظنك تفضلين المقابلة فى مكان بعيد

اجابت بعجلة وهى تتمنى الخلاص منه ـ نعم

قال : حسنا فلتكن مقابلتنا فى منزلى « دار التين » نمرة ٩ شارع فرنييه بنيس فقد عزمت على الاقامة فيه من الغد حيث ابارح فى الصباح مونت كارلو خصوصا وقد ازهدنى فيها طاهيها الذى لايحسن تحضير الاطعمة التى اشتهيها . ومع ذلك فلم يبق لى بها الآن مايدعونى للاقامة فيها واذا شئت يامولاتى ان تشرفينى بزيارتك فاكتبى لى بعنوان « الامير اورسو كولونا بدار التين نمرة ٩ شارع فرنييه بنيس» وتكرمى بتحديد ساعة الاجتماع فى خطابك هذا وارجوك أن تحتاطى فى قدومك فلا تستصحبى أحدا معك وليكن قدومك مساء لانك تفضلين طبعا ان لايراك احد وان لايطلع أحد على سرك وسيلبث هذا السر مكتوما فى صدرى واقسم لك بشرفى على ذلك ثم اعذرينى يامولاتى الان فان واجبات مقدسة تدعونى ان أكون هذه الليلة فى غير هذا المكان وقد تشرفت اليوم بتقديم نفسى لك فاستودعك الله الان

ثم تقدم الايطالى للباب ففتحه واتخذ جانبا واحنى قامته حتى مرت واندا

ولما خرجت واندا للطريق واستنشقت الهواء احست كأن روحها ردت اليها كسجين أطلق سراحه بعد تعذيب طويل

وأخذت تسائل نفسها عن هذا الرجل الغريب وعما يسعى اليه ورأت أن فى اعماله لغزاً لم يتح لها حله ولما تصورت السرقة التى ارتكبتها وان صاحبة الفندق ربما تكون فى تلك الساعة لاحظت فقد الاوراق المالية زاد صدرها انقباضا وأوسعت الخطى راجية ان تصل الى النزل قبل حلول القدر

الفصل الحادى والثلاثون

رد ماسرق

قالت مدام ديهوليبر تصف بيت الميسر « لهذا الدار ثلاثة أبواب : الامل والعار والانتحار فيدخل اللاعب من الاول ويخرج من أحد البابين الاخرين » وماتحققت واندا اصدق هذا المثل ماتحققته تلك الليلة. فقد قدمت مونت كارلو نزيهه شريفة مبجلة محترمة وفى ليلة واحدة فقدت شرفها فقامرت وسرقت واصبحت سمعتها وربما حياتها أيضاً تحت رحمة وفى قبضة شرير اتيح لها تلك الليلة معرفة ماانطوت عليه نفسه من المهارة والخبث . فالى أية بيئة سيسوقها هذا اللئيم ؟

ما كانت واندا تستطيع تصور ماتمده لها الاقدار وقد جسمت لها مخيلتها حوادث المستقبل فى شكل مريع ..

ولما وصلت الى باب الفندق وقفت برهة مترددة تخشى ان تلج الباب وتكاد تميد بها الارض وقدماها لايقويان على حملها . واصغت فسمعت ساعة الفندق تدق الثالثة بعد منتصف الليل فرفعت نظرها فرأت كل نوافذه تقريباً مظلمة الا انها لمحت نوراً من خلال نافذتين فى الدور الثانى وكانت احدى النافذتين نافذة غرفتها وفيها خادمتها أولجا ساهرة بجوار ولدها العزيز بوريس. أما النافذة الثانية فكانت نافذة صاحبة الفندق مدام شاستن الساهرة بجانب ابنتها وقد كانت فتاتها منذ حين ممتلئة صحة ونشاطا وهى الآن تقاسى الآلام والاوجاع

ولكن لم يكن لدى واندا متسع لمراودة تلك الافكار انما خطر لها ان مصائب قوم قد تكون عند قوم فوائد فربما يسر لها انشغال مدام شاستن بابنتها ان ترد الاوراق التى سرقتها الى خزانتها ان لم تكن شعرت بفقدها

واخيراً تشجعت واندا وقرعت باب الفندق ففتح ومرت امام غرفة البواب

فوجدت خادمين ساهرين فخاطبت احدهما قائلة

كيف حال مدموازيل شاستن

قال الخادم كسرت رجلها واصيبت بجروح فى رأسها واضطروا الى اجراء عملية جراحيةُ لهـا ولـكن لم تتحمل الـكلوروفورم وهم لايقطعون مع ذلك الامل من نجاتها وامها ساهرة بجانبها فى الدور الثانى ؟

أجابت . وحدها ؟

قال : وحدها

سألت : الم يجدوا لها ممرضة

اجاب طلبوا ممرضة بالتلفون من نيس وستحضر غداً صباحا

قالت مستفهمة هذا كل ما عندك ؟

وكأنها أرادت بتلك الجملة ان تعلم اذا كان خبر السرقة شاع فى الفندق ام . اما الخادم فعجب لهذا السؤال وقال لها

نعم يامولاتى

ولـكنه قال فى نفسه « اما كفاها ماحدث من المصائب »

وتنفست واندا ارتياحا لجوابه ثم صعدت الدرج مسرعة حتى وصلت أمام غرفة مكتب الفندق فى الدور الاول وكانت الغرفة مظلمة والمكان قفراً فأرادت ان تدخل الى المـكتب فوضعت يدها على قبضة الباب لتفتحه فلم ينفتح لانه كان مغلوقا بالمفتاح فجرى العرق باردا على جبين واندا وقالت فى نفسها لابد ان مدام شاستن بعـد ان عاد لها رشدها عقب مصـاب ابنتها تذكرت خزانتها فعادت بعد خروج واندا واغلقت الخزانة وباب المـكتب ولم تهتم بعد الاوراق لاضطرارها الى العودة بجانب ابنتها . فاجلت واندا رد الاوراق للغد ولـكن خشيت أن تستبين مدام شاستن السرقة قبل تمكنها من ردها فحاولت فتح الباب وأخذت تفكر فى طريقة تمكنها من ذلك . ألا ان خادم الفندق الذى رآها صاعدة ظنها بلغت حجرتها فاطفأ النور الـكهربائى فاستولى الظلام على السلم . وخطر

لواندا ان تجرب فى الباب مفاتيح غرفتها فجربتها باحتراس حتى لايشعر أحد بصوتها فلم تجدها مطابقة للقفل وأنفت من حالتها وهى تحاول فى الظلام فتح باب كاللصوص الاشرار ففكرت فى تدبير آخر وخطر لها ان ترسل فى الغد الاوراق المالية الى مدام شاستين بالبريد فتودعها غلافا تكتب عليه كلمة «مردود» ولكن ستذكر مدام شاستين انها لم تترك سواها فى الغرفة وانها تركت ادراج الخزانة مفتوحة أمامها ولا تلبث ان تستفهم من اللاعبين فتعلم أنها فقدت تلك الليلة نفسها عشرين الف فرنك فى اللعب فتيقن ان واندا هى السارقة وهذا ماتحاول واندا تجنبه وخطر لواندا ان تستشير اولجا فيما تفعله وهى واثقة بامانتها وكتمانها للاسرار فضلا عن كونها تجهل اللغة الفرنسية بالمرة ولكن طردت واندا هذا الخاطر ولم تشأ ان يعلم باثمها أحد وأما كفى بكولونا علما به ومع ذلك افتكرت واندا بانها تستطيع ان تتخذ اولجا واسطة لتنفيذ رغائبها وأولجا متعودة مثل عبيد الروسيين على الطاعة فلا تهتم بالاستفسار عن سبب ماتؤمر به

وتذكرت واندا كلمات الخادم اذ قال لها وهو يحدثها عن المصابة انهم « اضطروا الى إجراء عملية جراحية لها ولكنها لم تتحمل الكلوروفورم »فخطر لها خاطر غريب فصعدت الدرج الى حجرتها حيث تنتظرها خادمتها جوار ابنها الراقد

***

وكانت مدام شاستن فى غرفة ابنتها المصابة ممددة على مقعد بجوار فراشها وقد استولى عليها النعاس لشدة ماأصابها من الحزن والاكدار وكانت سلسلة المفاتيح معلقة على منطقتها ومدلاة بجانبها ولم تشعر بفتح باب الحجرة من ورائها ودخول شبح منه أخذ يقترب رويداً رويداً منها . ولما دنا الشبح من منضدة عليها جملة قنانى وقف برهة فتأمل فيها حتى اذا رأى احداها على ضوء القنديل وفوقها ورقة مكتوب عليها كلمة « كلوروفورم » اقترب منها بهدو فتناولها ثم فض غطاءها باحتراس وسكب منها بعض نقط فوق خرقة فى يده

اليسرى وادنى الخرقة من أنف مدام شاستن فغرقت فى بحر نوم عميق من تأثير هذا المخدر ولما أتم الشبح فعلته نزع سلسلة المفاتيح من منطقة صاحبة الفندق وناولها الى شخص قائم بجانب باب الغرفة

وكان ذلك الشبح أولجا وذلك الشخص واندا فاخذت اولجا المفاتيح وغابت: أما اولجا فلبثت بجوار مدام شاستين وهى تجس بيدها اليمنى نبضها ويدها اليسرى لاتزال مدنية المخدر من انفها وهذا المخدر من خواصه أفقاد الشعور موقتا ولكنه اذا طال احتماله قد يؤدى الى الموت

ومضت عشرة دقائق على تلك الحالة ثم عادت واندا فوضعت فى منطقة مدام شاستن خلسة المفاتيح كما كانت بعد أن تمكنت من فتح المكتب والخزانة ورد المال المسروق .

وردت واندا زجاجة الكلوروفورم الى مكانها

واستوثقت من تنفس مدام شاستن ثم انسلت هى وخادمتها عائدتين الى حجرتهما

ولما استيقظت مدام شاستن شعرت بثقل فى رأسها ولم تتمكن من استجماع افكارها الا بصعوبة ثم احست برائحة كلوروفورم شديدة فى الغرفة فتساءلت عن مصدرها ولكن تذكرت العملية التى أجريت لابنتها وتخديرها بتلك المادة ففهمت سر هذه الرائحة واتجهت أفكارها للخطر المحدق بابنتها ولم تعلم انها كانت على وشك الوقوع فى خطر أشد ستلبث جاهلة سره ماشاءت الاقدار

الفصل الثاني والثلاثون

دار التين

نجت واندا وبقى لديهـا الفا فرنك تتمكن بها من قضاء حوائجها الضرورية

نعم نجت ولـكنها مازالت مهددة فى حياتهـا وشرفها بذلك السند المشؤم مادام فى قبضـة الشرير كولونا . ورأت ضرورة الحصول على الاثنين وعشرين الف فرنك وفوائدها لتردها اليه باسرع مايمكن . ولـكن أنى لها بهذا المبلغ العظيم . اتبيع عقدها الماسى الذى كان أهداه لها فرجوس

نعم : قيمته خمسون الفا ولـكن أنى لها به الآن وهو فى باريس . أما من حيلة تأتيها به ؟

خشيت واندا ان يعلم زوجها بطلبها العقد فيخامره الظن فعزمت على الاقدام بنفسها فتركت بوريس فى رعاية اولجـا وقصدت باريس وفى نيتها أن تحتج بان شوقها طال الى زوجها وابنتها فقدمت لتراها وتقضى معهما يومين

وفى اليوم الثانى من قدومها باعت العقد خلسة بثـلاثين الف فرنك وهى فوق ماتحتاجه لشراء السند المشؤوم

وبعد ذلك بستة ايام وصلت الى كولونا الرقعـة الآتية محررة بخط واندا بعد عودتها الى مونت كارلو وهي تقول له فيها

« انتظرنى هذا المساء بدار التين الساعة العاشرة » « و »

لم تستطع واندا انتظار الاجل المضروب فارادت ان تستخلص السند وعملت بوصية عدوها فحددت موعد مقابلته مساء

وفى اليوم نفسه أتاها الخطاب الآتى من كولونا

« لاأستطيع هذا المساء . فقد جاءنى خطابك متأخراً فهل لك فى بعد غد ؟ »

« لافائدة فى مجيئك ان لم تكونى وحدك

« اذكرى لى ساعة قدومك

« واقبلى احترامى » « أورسو كولونا »

فلما قرأت واندا هذا الكتاب انفعلت ولكن تناولت قرطاساً وخطت عليه ما يأتى بيد مضطربة

« ليكن ماتريد . فانتظرنى بعد باكر مساء الساعة العاشرة وسأحضر وحدى

« انما أنا متكلة على كتمانك « و »

ثم القت الخطاب بيدها فى صندوق البريد . ولكنها ندمت بعد القائه اذ خامرها الريب فى طلب عدوها منها ان تأتى له وحدها وأخذت تفكر فى سر هذا الشرط فخشيت ان يكون اللئيم قد أعد لها شركا آخر ليلقيها فيه خصوصاً وهى لم تطأ قدماها تلك الدار التى يدعوها اليها وهنا طرأ على ذاكرتها أقواله فى الحانة اذ قال لها « ستدفعين ثمن تلك المكرمة أنا دعى لى تسوية أمر الفائدة ليوم الوفاء » . فماذا عساه يطلب منها عند ماتكون تحت رحمته وفى قبضته ؟ وأخذت تخامرها الظنون بعضها اغرب من بعض فظنت ان هذا اللئيم قد دبر مادبر ليقتلها ثم يخفى جثتها فى جب مستتر فى حديقة الدار

ولكنها ابعدت هذا الخاطر لان كولونا لو كان يبغى موتها لما منعها من الانتحار وقد اقدمت عليه . اذن فهو يبغى أمراً آخر ... ولاتخاله الاطامعاً فى مالها . بمالم . . .

وهنا خطر لها خاطر صبغ وجهها بالاحمرار وتذكرت نظرات هذا اللئيم التى كان يرمقها بها فى تلك الحانة القاصية وما كان يلمح اليه فى بدء حديثه معها أفيبغي ذلك ثمنا لذلك السند المشؤوم كلا . وألف مرة كلا . فلا تشترى عاراً بعار أفظع وادنس . انها لم تخن زوجها قط فلما خطر لها ان ذلك الشرير قد يقصد ان ينال منها ماتمنعه ثار ثائرها أنفة واستكباراً وأملت ان يكون هذا الخاطر وهما أيضاً . ومع ذلك فانها رأت ان هذا الرجل ولوأنه سامها العذاب

قد استعمل معها بعض الادب حتى بعض الاحترام . وحيث ان غايتها الوحيدة الحصول على السند فلتتقدم على المخاطر ولتقاتل للنهاية . فلبثت تنتظر بنافذ الصبر حلول الموعد المضروب

ولما وافى الميعاد اوصت خادمتها أولجا بمضاعفة العناية بابنها موريس فانه كان لم يزل ضعيفاً ثم خرجت ولم تمهد بسرها لخادمتها بل اكتفت بان قالت لها انها ستغيب تلك الليلة عن الفندق ولمحت الخادمة ان سيدتها قبلت ابنها قبل الرحيل بتأثر لم تمهده فيها من قبل

سترت واندا وجهها بنقاب كثيف وأخذت معها الثلاثين الف فرنك وقصدت نيس وفيها استدلت على دار التين

وكانت تلك الدار قائمة فى أرض فضا وتحيط بها منطقة من شجر الصفصاف ونظرت واندا من خلال السياج فرأت اشجار الحديقة قائمة فى الظلام كانها مخالب الوحوش فارتعدت ولكن تشجعت ومدت يدها ودقت الجرس ففتح البـاب فأغمضت واندا جفنيها واجتازت سور الحديقة يتقدمها خادم وهو صامت

أدخلها الخادم الى غرفـة صغيرة ثم تركها وانسحب فرأت اثاث الغرفة ثميناً وهو على الطراز التركى ويضيئه قنديل نوره ضئيل ورأت على جدران الغرفة سيوفاً عربية معلقة وفى وسطها نارجيلات وكراسى منقوشة بالعاج . ثم لمحت على تلك الجدران صوراً فوتغرافيه معلقة وهى كلها صور نسائية ومن بينها صورة امرأة مغنية فى احدى المراسح وعلى الصورة تاريخ اهدائها وهو اول يناير من السنة الجارية وتحت الاهداء توقيع باسم « جانى دوزون »

ولم تهتم واندا بكل ذلك لانشغالها فيما أتت لاجله وكانت تنتظر قدوم كولونا بفارغ الصبر وأخيراً اقبل فقال لها معتذراً بصوت المتملقين

لاتؤاخذينى يامولاتى على التأخير وخصوصاً على تأجيل موعد مقابلتنا فان الاعمال . . . ولكن تكرمى يامولاتى بالجلوس

قالت ارجوك ياسيدى ان تختصر من تلك العبارات ولنتكلم فيما جئت بخصوصه
أجاب . أنا طوع امرك يامولاتى
قالت : جئتك الآن لأفى بدينى اليك فقد اقرضتنى اثنين وعشرين ألف فرنك مقابل سند أمليته علىّ ووعدتنى برد هذا السند عند الوفاء فدونك هذه ثلاثون ألف فرنك . منها اثنان وعشرون قيمة الدين والباقى ثمن ذلك الجميل وكتمان السر . فان لم ترضك هذه القيمة فما عليك الا ان تطلب ماتشاء فأتيك به انما رد لى السند اولا

فتناول كولونا الاوراق المالية ودعكها بين يديه وكانت واثقة بمفاجأته بمسألة المال ترجو ان تسد عليه السبل فلا يفاتحها فى امر آخر أما هو فما كان لتجوز عليه حيلتها فقال

عجباً يامولاتى . ؟ مثلى انا الامير أروسو كولونا يخاطب بهذا اللسان . اتظنين يامولاتى أنى من المرابين وهل يخطر ببالك انى اقرضك اثنين وعشرين الفاً لاستردها ثلاثين . ما كنت يامولاتى لاهان تلك الاهانة وهى قاسية على لصدورها على الاخص منك

وقد نطق كولونا بتلك الكلمات والانفعال باد عليه حتى خجلت ونداكل الخجل مما بدأته به ورأت ان ظنونها فى نياته الاخرى بدأت تتحقق فتضاعف حذرها منه وقالت : له وقلبها يخفق

اذن فما تريد ثمنا لجميلك

أجاب : لا اريد ثمنا يامولاتى . . . وكفانى ثناء سرورى وتشرفى بالقيام بخدمتك

قالت : اذن فاصفح عن خطأى يامولاى وتكرم برد الورقة مقابل المبلغ المستحق

اجاب : لك ذلك انما حيث انى لم اقبل فائدة ذلك المبلغ فاظنك تسمحين لى باشتراط أمر صغير قبل رد الورقة

فوقفت مستعدة للدفاع وقالت :

آه . أى شرط تعنى

أجاب : ارجوك يامولاتى ان تتكرمه بالجلوس فان ماساعرضه عليك يقتضى الاصغاء التام فزاد اشتغال بال واندا ولكنها اطاعت فجلست وجلس كولونا قريبا منها واخذ ينظر فى الخواتم التى فى أصبعه ثم قال :

لايخفاك ان العلوم العصرية قد تقدمت فى هذه السنين الاخيرة تقدما عظيما

قالت : وما المناسبة

أجاب : صبراً يامولاتى وتكرمى بسماع بقية كلامى تدركى المناسبة. وان بين المخترعين فى العصر الحاضر رجلا طبق ذكره الافاق واشتهر فى جميع الاقطار وهو الاستاذ بسكال فرجوس . وقد استحق هذه الشهرة لاكتشافاته الثمينة .ويقول بعضهم انه اخترع اشياء عجيبة مثل تلك الآلة الكهربائية المعروفة باسم محرك فرجوس المفيد فى الصناعة

قالت : وبعد ؟

أجاب : ولم يقصر هذا الاستاذ سعيه على مايفيد الصناعة بل اهتم أيضاً بما يفيد فى الحروب فقد اخترع على مايظهر مدفعاً لم يسمع للآن بمثل قوته المدمرة ويقال بان هذا المدفع الكهربائى يستطيع ان يبيد فرقة باسرها فى بضع دقائق. اصحيح ذلك يامولاتى ؟

قالت: ربما

أجاب : الاستاذ فرجوس يخابر الآن الحكومة الفرنساوية فى امر هذا المدفع. ويظهر ان الحكومة أعجبت بهذا الاختراع وتريد ان تساوم الاستاذ عليه. ولكن الحكومة الفرنساوية لاتعرف قيمة اختراع زوجك الحقيقية. وهذا مادعى احدى الحكومات الاجنبية على ان تعرض عليه جملة ملايين من الفرنكات ثمنا الرسوم هذا المدفع وسر اختراعه . أتعلمين ذلك يامولاتى

قالت ــ نعم واعلم أيضاً ان زوجى لوطنيته الصادقة رفض غاضباً ماعرضته عليه تلك الحكومة وهو يقول أن مثل اختراعه لايجب ان تستفيد منه الاحكومة بلاده

أجاب : هذا راى مسيو فرجوس وله رأيه . اما الدولة التى أحدثك عنها فلها

رأت عناده ورأت ان ذلك المدفع يضمن للحائز عليه السيادة فى الحروب على عدوه صممت على الحصول على هذا الاختراع بكل الوسائل شرعية كانت أو غير شرعية

قالت : وبعد ذلك

اجاب : ألم تفهمى قصدى

ثم اقترب منها وقال . لها بصوت منخفض

انا من تلك الدولة وقد وعدتها بحصولى على رسوم ذلك المدفع الكهربائى والوقوف على سر اختراعه . ولما علمت انى لا افوز بطائل من جهة الاستاذ فرجوس خطر ببالى ان الاستاذ لا يكتم عن زوجته هذا السر

فهبت واندا قائمة وقالت : مهددة

سيدى !

فمد لها يده الحديدية واضطرها الى الجلوس وسماع باقى اقواله واستمر فى الحديث موجزاً قائلا

وقد استعلمت عنك فعلمت انك زوجة امينة ولكنك مغرمة بالميسر فعلمت من اين يؤكل الكتف فتبعتك الى مونت كارلو مقتفياً أثرك مرتقباً ساعة تحتاجين فيها لمعونتى فما عتمت الفرصة ان تهيأت فاغتنمتها . وها أنت الان فى قبضة يدى

قالت : وماقصدك

اجاب : قصدى ان اتكل عليك فى حصولى على رسوم المدفع المذكور

قالت : علىّ أنا

أجاب : نعم. فانى أعلم أن زوجك يهواك ويحيطك علما باعماله فلا بد انك تعلمين مكان تلك الرسوم وطريقة الحصول عليها بدون أن يشعر

اجابت : نعم

قال : اذن فما عليك الا أن تملكينيها

اجابت : واندا وقد ثار ثائرها : أن ماتطلبه منى خيانة فظيعة بل جريمة ضد زوجى وضد فرنسا

قال : وما يهمك من فرنسا وأنت عنها غريبة لأنك روسيه وأنا كذلك غريب يجرى فى عروقى الدم الايطالى والبيرونى ؟ . . . هيا يامولاتى اسعفينى بتلك الرسوم وانا أرد لك السند المسجل به اعترافك بالسرقة والمتوقف عليه شرفك بل وأتنازل لك عن الدين . وأنا مستعد زيادة على ذلك ان اقدم لك ماتحتاجينه من النقود فانه لايخفى علىّ ان سيدة مثلك تحتاج أحيانا لما تصرفه على لوازم زينتها

أجابت : خسئت يالئيم اتظننى من طينتك

وقامت غضبى منفعلة مبدية احتقارها المر لمخاطبها فاثرت فى نفسه هذه الاهانة وصعد الدم الى وجهه فاحمر ثم قال : لها

اترفضين اذن ؟

أجابت : مندهشة . وهل هذا يحتاج الى سؤال اتدرى من انا حتى تجسر ان تخاطبنى بهذا اللسان وتعرض علىّ مثل هذا العمل الخاسر . نعم قادنى الغى الى الميسر وقادنى الميسر الى السرقة وقادتنى الظروف الى اقتراض المال ولكن ما كنت لأخون شخصا احترمه واهواه شخصاً عاشرته فكان نعم الرفيق واخرجنى الى السعة بعد الضيق زوجى فكيف اخونه . كيف اختلس ثمرة اتعابه التى قضى فى سبيلها اثمن ايامه وكيف اشفع ذلك الاثم باثم افظع منه فاخون وطنى نعم وطنى فان فرنسا اتخذتها وطنا ومقاما كلا . كلا . فلست بنائل منى مراما

قال : قد كنت منتظراً منك هذا الانفعال فقد عهدتك عصبية المزاج . ولهذا خشيت مفاتحتك فى الموضوع من أول الامر عند اجتماعنا فى الحانة ولكنى واثق انك سترجعين عن عزمك اذا فكرت فى الامر

أجابت : لن ارجع

قال : سترجعين

أجابت : كلا

قال : سترين

أجابت : كفى

قال : فليكن ماتشائين . والان فلديك من الوقت مايسع التفكير والتدبير انما انبهك الى امر

وهنا انقلب صوت كولونا من التهديد الى الوعيد فقال :

اعلمى أنك اذا خرجت من هنا هذا المساء فوشيت بى لاى انسان أوحذرت زوجك او أحداً من أهلك منى أو ابحت لهم بسرى اوعصيت امرى ولم تشاركينى فى عملى فأنى اشهر جريمتك فلا يلبث ان يعلم بها زوجك وولداك وقومك ولدى برهان عن تلك الجريمة محرر بخط يدك

اجابت ـ ويحك يالئيم

قال ـ ولدى سلاح آخر فاقدم للاستاذ فرجوس خطابيك المحررين بيدك والموقع عليهما بحرف من اسمك ففى اولهما تقولين «انتظرنى الليلة الساعة العاشرة بمنزلك بدار التين » وفى الثانى تقولين « ليكن ماتريد فانتظرنى بعد غد مساء فى الساعة العاشرة وسأحضر لك وحدى انما ارجوك كتمان السر »

فهذان الخطابان على ايجازهما يفضحانك ويفضحان عما لك معى من العلائق سواء كانت علائق جاسوسية او علائق غرامية اخرى

اجابت ـ ويل لك ايها المحتال

قال ـ قال احدى القضاة « مكنى من بعض سطور بخط متهم فاقضى عليه بالاعدام» اما انا فاقول ان مالدى من الخطابات والسند يمكنى من ثلم عرض اطهر النساء

أجابت : ـ ويل منك ياقاتل

قال : ـ ليتك يامولاتى بدل السباب تفكرين فى أمرك . وهاقد أنذرتك وما علىّ الا البلاغ .

انى لاأريد ان آخذك على غرة شان الخونة حفظاً لشرف كلمتى أدع لك من الوقت مايكفيك للتفكير فاذا مضى الاجل أحدد لك موعداً اما هنا وأما فى باريس وهناك تبلغينى ماعزمت عليه واذا لم توافينى فى ذلك الاجل والموعد اذهب فى غده لمفاتحة زوجك فرجوس فاحذ الحنق بواندا كل مأخذ وارغت

وازبدت وصارت تفرك بين صوابعها الاوراق المالية التى فى يدهاوتقول

ـ ان مثل هذا التهديد لايصدر الا من لئام الناس ولولاهذاالمال المشؤوم لما كنت سلمت بنفسى للص مثلك فخذه خذه فانه مسموم وأنى لاشم فيه رائحة الجاسوسية والخيانة فاف منك ومنه

ثم رمت الاوراق فى وجهه فلطمته وتبعثرت فى أرض الغرفة فلم يتأثر كولونا لتلك الاهانة ولم يطأطىء هامته لالتقاط الاوراق أما واندا فاتجهت نحو الباب ولكنها وقفت فجأة اذ رأت على عتبته امرأة واقفة ويداها على صدها وكانت تلك المرأة شقراء الشعر ممتلئة الجسم بيضاء البشرة ذات زى مشوش لايدل على رفعة القدر . صاحت تلك المرأة بكولونا قائلة

ويحك ياخسيس اتخوننى مع هذه المرأة

فنبهت هذه الكلمة واندا فعادت الى نفسها وشعرت بموقفها اذ رأت ان حركات انفعالها وقت الجدال كانت ازاحت عنها قبعتها ونقابهافاسترسلت شعورها الذهبية على كتفيها وهى لاتشعر وهذا الذى جعل المرأةالقادمة تظن ماظنت لانها لم تسمع حديثهما وهما يتجادلان

ولم يكن كولونا منتظراً قدوم هذه المرأة فبهت ولبث صامتاً لاينبس ببنت شفة واحمر وجه واندا خجلا وحنقاً من المسبة التى وجهتها لها تلك المرأة

وزاد يقين تلك القادمة فى صحة ظنها لما رأته من اضطراب واندا وصمت كولونا . وكانت القادمة جابى دوزون عشيقة ذلك الرجل فاستمرت قائلة

انت تخون عهدى اذن مع هذه المرأة . فهمت الآن سبب اعتذارك لى الليلة قائلا ان لديك الآن شؤون هامة . هذه السيدة هى شؤونك الهامة اذن اهنيك ياصاحبى على ذوقك السليم فانك تحسن اختيار صواحباتك . اتظن ان مثلى تخدع فانتظر سأريك كيف تنتقم جابى لنفسها

ثم اندفعت المرأة كاللبوة المفترسة على واندا ولم تكن واندا منتظرة منها هذا الاعتداء ولا متأهبة للدفاع عن نفسها فلم تتمكن من صد غارة عد و

وسقطت على الارض من هول الواقعة فالقت جابى بنفسها فوقهـا وهى ثائرة ووضعت ركبتيها فوق صدرها واستعدت لخنقها فأخذت واندا تدافع بكل جهدها واعملت اظافرها فى عنق عدوتها فاغتاظت جابى وضغطت عليها بيمناها وصارت تفتش بيسراها عن سلاح . وكانت قبعتها لم تزل على رأسها مثبتة بدبوس طويل فنزعت جابى الدبوس بسرعة واغمدته فى جسم واندا فصرخت واندا من الالم وانبثق منها ينبوع من الدم فلطخ ثوب عدوتها وبساط الغرفة .

حدث كل ذلك فى بضع ثوان .

أما كولونا فزال عنه ارتباكه من مفاجأة عشيقته لها ورأى ان يتداخل بين المرأتين . ذلك لان حياة واندا عزيزة لديه الان مادام محتاجا لها لتنفيذ مأربه فخشي ان تذهب ضحية الغيرة بيد تلك المرأة المفترسة

وكان من صالح كولونا أيضاً بصفته جاسوساً لحكومة اجنبية ان يجتنب مامن شأنه تداخل البوليس فى أموره وكان القوم يجهلون انه جاسوساً حتى جابى نفسها حيث كانت تظنه أحد الموسرين الاجانب اتى لفرنسا بداعى لذاته

هجم كولونا على جابى وخلص منها واندا ثم أمسك بعشيقته بين يديه وهى تحاول ان تعضه فى وجهه وصاح بواندا قائلا

انجى بنفسك

وكانت واندا جرحت فى ذراعها ولم يكن جرحها بليغاً وكانت مالكة روعها فقامت تتردد انفاسها فى صدرها وهربت وهى تجر وراءها خطا أحمر من الدم اما جابى فتملكتها نوبة عصبية فصارت تصرخ بصوت كصريخ الدجاجة ينزع عنها ريشها وهى حية واراد كولونا ان يسكتها فلم تسكت فامسكها من شعورها ورمى بها على مقعد واوسعها ضربا

الفصل الثالث والثلاثون

تهديد بتهديد

اجتازت واندا الحديقة ثم السور الذى دخلت منه وكانت جانى تركت بابه مفتوحا عند دخولها

ومن حسن حظها كان الطريق قفراً ولكنها شعرت رغماً عن ذلك بالخوف مستولياً عن فؤادها . ولا ندرى امن تأثير الجرح وقد خشيت ان يكون مميتاً او من تأثير الوحشة ولها فى النفوس المضطربة وقع مرعب

أثر الخوف والاجهاد فى نفس واندا فاستندت الى حائط خشية السقوط . ولكن لحسن حظها مرت بها عربة فنادت السائق وصعدت اليها قائلة الى المحطة

ومن ألم الجرح استوقفت السائق لدى صيدلى ولكنها لبثت تتردد فى الدخول اليه كأنها تخشى ان يظن بها سوءاً لوجودها فى مثل هذه الساعة المتقدمة من الليل بلا نقاب ولا قبعة شعورها مسترسلة وثوبها ملطخ بالدم . او يذهب الظن بالصيدلى الى ان يقول انها قاتلة هربت عقب ارتكاب الجريمة . ولكنها تشجعت ودخلت اليه وروت له حديثاً لفقته قالت ان اللصوص هاجموها فى الطريق فجرحوها . ولم يشأ الصيدلى ان يناقشها فى أقوالها وهى تضطرب فى كلامها مما يدل على التلفيق بل اهتم بواجب صناعته وضمد لها جرحها ثم غسلت لها امرأة الصيدلى بقع الدم التى على ثوبها واعطتها نقابا قاتم اللون تستر به وجهها ورأسها حتى لا تستلفت الانظار فى طريقها . فشكرت واندا فضل الصيدلى وزوجته وقدمت لهما بعض النقود وتمكنت من اللحاق بالقطار القائم الى مونت كارلو

ولما أمنت واندا واطمأنت أخذت تفكر فيما أصابها ويعاودها انفعالا كلما

تذكرت مايعرضه عليها كولونا ثمناً لسرها المستودع لديه

نشأت واندا روسية لكنها بعد اقترانها بفرجوس صبحت فرنسية موطنا وانتسابا . . . وبصرف النظر عن الوطنية فواندا زوجة أمينة لاترضى بخيانة زوج احبته فتنتزع منه ثمرة اتعابه واعماله وتصيبه فى أعز عواطفه اذ تصيبه فى وطنيته . أنها لاتنكر ضعفها واندفاعها فى تيار بعض الشهوات ولكنها تنكر استعدادها للاقدام على جريمة خسيسة مثل جريمة الخيانة ولكن مابال تهديدات كولونا لاتزال تخامرها . . . ترى لو صدق كولونا فاطلع فرجوس على السند والخطابات وابلغه ماشاء من المفتريات بأى لسان تخاطب زوجها ؟

اتعترف له بالحقيقة ؟ انها تخشى ان لايصدقها اذذاك لغرابة الوقائع التى تعترف له بها . اذن ماالعمل ؟ سدت فى وجهها السبل وقلت بها الحيل . فقضت ليلتها مهمومة محمومة وخطر لها ان تبلغ الامر للشرطة وترجو مديرها ان يقبض على كولونا ويستولى على مالديه من الاوراق ولكن . كيف تعترف لمدير الشرطة بجريمتها وتقر له بذلتها ؟ مستحيل

واخيرا عولت على أمر وهو مكافحة كولونا ومحاربته بنفس السلاح الذى يحاربها به فتهدده كما هددها وتهديد بتهديد ولكنها ليست خبيرة مثله فى هذا الباب فلم تعرف كيف تأتيه منه بل كتبت له تقول

« خذ حذرك . . . فأنا الآن المطلعة على سرك . . واعلم بأنك ان لم ترد لى فى ظرف اربع وعشرين ساعة السند والخطابات ابلغ امرك للشرطة الفرنساوية . . وازيد فاقول لها انك اعددت لى شركا فدعوتنى اليك وعرضت على ان اخون اهلى وبلادى ولما لم اوافقك على الغدر غدرت بى وعزمت على قتلى بواسطة شريكة لك فى الجريمة . وجرحى مصداق على ماأقول ...

أعلم انى لست ممن يعبأون بوعدك او يدفعون لتهديدك ثمنا . فلن تنال ماترجو ولن اعطيك نقوداً . مستحيل الآن ! ليس عندى نقود فان لم ترد لى اوراقى فانى سأعمل كل شىء لاجل استردادها » « و . ف »

(تلك السطور الاخيرة هي التي عثر مورتير عليها فى بقايا الورق المحترق فى المعمل)

وورد لواندا رد خطابها . ولم تنتبه الى قلة خبرتها بمثل هذه الامور الا لما اتمت قراءته واثرت فى نفسها الفاظ التهكم التى فيه . وهاك نص خطاب كولونا

« سيدتى

« اشكرك كل الشكر على اهتمامك بانذارى بمقاصدك فقد ورد لى خطابك فنبهنى الى مايجب على عمله

وعند حضور رجال الشرطة الى منزلى بناء على بلاغك لن يجدوا فيه احدا اذ اكون اجتزت حدود الاقطار الفرنساوية وأصبحت دار التين خالية منى . . ومن الاوراق التى تخشينها .

ولوفرضنامع ذلك ان الشرطة القت القبض على فلن يغير ذلك من امرك شيئاً اذ الاوراق التى تؤملين استيلاء الشرطة عليها ثم كتمان الشرطة لسرك المفضوح فيها حبا بك وارضاء لخاطرك اصبحت الان فى مكان حصين

هذه الاوراق الان بين يدى شخص ثالث مخلص لى وقد كلفته بتوصيلها لزوجك فى صباح اليوم التالى للقبض على وتبليغه ما شئت تبليغه اليه بيانا للعلائق التى كانت بينى وبينك

ستقولين لن يصدق ... ولكن ستكون تلك المرأة التى تعلمينها خير شاهد على صدق ماأقول فلا تحاولى ياسيدتى الوقوف فى سبيلى واشهار الحرب ضدى فالقوى بيننا ليست متكافئة كونى حليفتى ولا تكونى عدوتى فذلك خير لك وابقى

هذا واؤكد لك ان جابى دوزون وان كانت رأتك الا انها لاتعلم من انت ولا تدرى من امرك شيئا بل وهى تجهل حقيقة امرى

تلك المرأة لم تكن بالنسبة لى شيأ مذكورا صحبتها لشهوة وقتيــة وقطعت معها الآن كل صلة عقابا لها على مافعلت معك كما انى آسف على مافعلت واؤكد لك انى كنت جاهلا بالمرة قدومها ونواياها

ولا يمكنك يامولاتى الادعاء علىّ بأنى دبرت لك شركا لسرقة مالك فانك لا تنكرين انك انت التى رميت بالاوراق فى وجهى انت مدينة لى باثنين وعشرين الف فرنك فتركت لى ثلاثين الفاً . فأتشرف برد الفرق وقيمته ثمانية آلاف فرنك اوراقاً مالية تجدينها طيه

« وسأوافيك قريباً بأخبارى . انما اوصيك الآن بالصمت والسكون وذلك فى مصلحتك ومصلحتى

« واكرر لك يامولاتى اسفى على ماحصل لك فى الليلة السالفة واسأل الله ان يتم شفاء جرحك عاجلا

« وتكرمى بقبول وافر احترامى « ا . ك »

ووجدت واندا طى الخطاب اوراقا قيمتها ثمانية آلاف فرنك . انما لاحظت امرآ غريباً مدهشاً وهو ان الخطاب محرر بحبر ازرق باهت وان سطوره آخذة فى الزوال رويداً رويدا كلما تقدمت فى قراءته حتى اذا اتت على آخر الخطاب كان الخطاب فى يدها ورقة بيضاء لتأثير الهواء على المادة الكيماوية المركب منها الحبر . وهذا غاية فى الدهاء

وقد اضطر كولونا لاتخاذ هذه الحيلة خشية أن تتخذ واندا من كتابه حجة عليه ولما رأت واندا تلك المقدرة المدهشة علمت وتأكدت أنها ليست من هذا الرجل فى شىء وأنها ليست نائلة منه بالعنف منالا فزاد رعبها وقالت فى نفسها : رباه الى أى طريق تسوقنى المقادير

الفصل الرابع والثلاثون

خطاب من سونيا

مضى على الحوادث التى سردناها خمسة عشر يوماً كانت واندا فيها مشغولة البـال كثيرة الافـكار حتى اذا كان ذات يوم أتاها خطاب من أبنتها سونيـا به عبارة قضت على مابقى لديها من الآمال

قالت لها سونيا فى الخطاب :

« أصبح لى يا أمى عاشق جديد لـكنه ليس كالعشاق الذين نصادفهم كل يوم فى الحياة انمـا ممن نقرأ عنهم فى الروايات فاسمحى لى ان استعير بعض أوصافه منها فهو فارس جميل الطلعة مهيب الجانب حسن الزى ... تعرفت به ووالدى فى ليلة راقصة احيتها سفارة البيرو هنا . ووجده والدى مولعاً بالطبيعيات فمـال اليه « طبعاً » ولا يزال هذا الامير ـ فانى ان اخبرك انه أمير وأنه يدعى البرنس أورسو كولونا ـ يتودد الىّ ويتقرب منى أما أنا فلا أرده ولا أصـده بل أتباهى بتودده وما ضرنى أن يكون فى مقدمة جيش عشاقى أمير . . »

قرأت واندا هذا الخطاب فأصاب منها مقتلا وقالت فى نفسها قد خاب أمل هذا اللئيم منى فعزم على التقرب من ابنتى وخدع زوجى اذ افهمه أنه ولوع بالعلوم الطبيعية ليكيد له . وخطر لها ان تكتب لزوجها وابنتها تحذرهما من هذا الشيطان الدخيـل لـكن رأت انهما ربما يطالبانها بالاسـباب فماذا تجيب ؟ ارتأت ان تكتب الخطاب ولا تمضيـه . وبعد ... واذ هى تساورها الافـكار جاءها هذا الخطاب من كولونا متضمناً تهديداً جديداً فاضطرها الى تغيير خطتها قال كولونا فى خطابه :

« تعرفت بالاستاذ فرجوس وبالآنسة فرجوس فلا أوصيك بالـكتمان

والبقاء على الحياد فانت أدرى بصالحك . على انك ان سكتى سكت وذلك خير لنا نحن الاثنين . ثم انى أنبهك الى أمر وهو انى اذا وجدت من جهة الاستاذ آو سونيا بعض الفتور فانى انسب ذلك الى دسائس واذ ذاك . . . . انت تعلمين مااصنع : واقبلى خالص الاحترام « ا . ك »

وكانت تصل الى واندا خطابات تتضمن الثناء على اخلاق ذلك الوغد والاطراء فى محاسنه فكانت تلجمها وتقيد ارادتها . الا انه بقى لها امل واحد وهو ثقتها فى غيرة زوجها على سر اختراعه فلا يبوح به وثقتها فى ثبات سونيا على صغر سنها فلا تطلع احداً عليه . ولكن اذا توصل كولونا بدهائه الى الاستيلاء على قلب الفتاة ؟ خطر هذا الخاطر لواندا انما ابعدته عنها لتأكدها بالغرام المتبادل بين ابنتها وأوليفييه دى لورا ونسبت مدح ابنتها فى كولونا الى مجرد الاستحسان ولكنها ما لبثت اذ علمت من خطاب لفرجوس أن كولونا خطب اليها بنته فقالت فى نفسها تلك مقدمة لتنفيذ مآربه فانها تسمح له بكثرة التردد على زوجى والاطلاع على شؤونه الخاصة حتى اذا ظفر منه بسر الاختراع نجا به وترك القوم بعد يندبون

قرأت واندا خطاب زوجها فلم تطق صبراً وكتبت اليه تقول له انها لاتستطيع ان تبدى رأيها وهى بعيدة عن ابنتها وجاهلة احوال الرجل الذى يخطبها ودعته الى تأجيل الفصل فى هذا الامر الى حين قدومها لباريس . وكان غرضها من ذلك أن تكون لها فسحة من الوقت تدبر فيها تدابيرها

ومن حسن حظها ان وافاها فى الغد خطاب من زوجها ينبئها فيه بكشف أوليفيه لاسرار كولونا واعتراف هذا الأخير بما دبره لسونيا والفصل بينهما . فاطمأنت واندا من هذه الجهة ولكنها لبثت تخشى عدوها أن يتفرغ لها فقد خاب عمله مع أهلها فلا يبعد ان يكون مدخراً لها شيئاً خبأته الاقدار وقد صدق ظنها كما سترى

الفصل الخامس والثلاثون

السكين فوق النحر

لما رأى كولونا خيبة مسعاه الاول مع واندا وانها لاتسلم له بما يريد أراد ان يوقع ابنتها سونيا فى حبائله ظنا منه انها لصغر سنها تغتر به فتيسر له تحقيق آماله ولم تكن سونيا شريكة لوالدها فى اعماله ولا من المطلعين على اسراره انما اراد كولونا اتخاذها واسطة فتظاهر لها بالحب والغرام ليوقعها فى شباكه فاراد الله ان يقع هو فى الهوة التى احتفرها لها فاصبح تصابيه صبابة وتعشقه عشقا . والحب كالنار تحرق من يلهو بها . اراد كولونا ان تقع الفتاة فى حبه فوقع هو فى حبها وما زال به الحب حتى ألهاه عن الغرض الذى يسعى اليه والحب يعمى ويصم . وكان يجهل الحب المتبادل بين سونيا وأوليفييه حتى انه كان يظن ان سونيا تهواه هو ولهذا كان يأسه عظيما لما انفضحت حيلته وخابت مساعيه. وهذا اليأس هو الذى دفعه الى تحرير الخطابين اللذين ذكرناهما فى صدر هذه الرواية ويقول لها فى ثانيهما ان لديه اسلحة ستدعوه خيبته الى استعمالها عند اللزوم

وكان كولونا يلمح بذلك الى الاوراق التى تحت يده والتى اذا نشرها تنفضح الام ومعها البنت ويكون انتقم لنفسه من العائلة التى اهانته بطرده منها

ولم تكن سونيا تعرف هذه الاوراق حتى تفهم مراده من التلميح . اما أوليفييه فعند ماعرض عليه هذان الخطابان فى التحقيق استنتج منهما مايشين سونيا لغيرته عليها

ورغماً عما حدث لكولونا فانه لم يخطر فى باله مطلقاً أن لواندا يدا فى ذلك فانه كان يعلم انها ترهبه وتخشاه فلا تجسر على الاقدام على مايغضبه . وظن أن بعض اعدائه من المطلعين على أسراره ابلغ أوليفييه امره فى كتاب مجهول مصدره

ولما لم تجب سونيا على خطاباته علم أن لاخير فيها فعزم على قطع آماله من جهتها وتغيير خطته وكان كولونا فى خدمة احدى الدول الاجنبية بصفةجاسوس وقد وعدته دولته باعطائه مليوناً من الفرنكات اذا تحصل على رسوم المدفع الكهربائى الذى اخترعه فرجوس . ولفقر كولونا رأى ان الغنيمة ثمينة تغنيه للابد وهو لايملك من دنياه شروى نقير ويكتسب رزق يومه بالحيلة والنصب والميسر : وطمعه فى المبلغ هو الذى دعاه الى مساعدة واندا وقت الضيق وشجعه على تقديم الاثنين وعشرين الف فرنكا لها واستكتابها السند بالنص الذى رأيناه وهو الذى دعاه الى التقرب من فرجرس وابنته فخاب تلك الخيبة وكان السبب فيها وقوعه فى شراك حب الفتاة . فلما رأى ان ضعف قلبه سيذهب بأعز آماله صمم على مقاومة عاطفة الحب بكل قواه : اسكت الطمع صوت الغرام فى قلبه : وحيث بقى لديه أمل من جهة واندا فهو موافيها وعلى ذلك بارح كولونا باريس قاصداً مونت كارلو : ولم يشأ ان يدعوها الى داره بل قصدها فى الفندق الذى هى فيه

ولما اعلنت واندا بقدومه ارتعدت . ولكنها اضطرت لمقابلته فدخل اليها وهى تضطرب فبدأته بالكلام قائلة

ماذا تريد منى . اظنك آتياً لتؤاخذنى على طردك من بيت زوجى ظناً منك انى السبب فيه .

أجاب : كلا يامولاتى فانى عالم انك ضعيفة لاتستطعين الاقدام على مثل ذلك وقد أتيت اليوم لاعاتباً ولا مهدداً . انما اتيتك مجدداً ذكر ماعرضته عليك فى دار التين : قالت : أما كفاك . . .:

فقاطعها قائلا قد كنت يامولاتى منفعلة اذذاك فتركت لك من الوقت مايسع التفكير فلعلك رجعت عن عنادك : أجابت : لن أرجع

قال : خذى حذرك يامولاتى . فانى عزمت على قطع الشك باليقين : واليك الآن كلمتى الاخيرة فاعلمى ان زوجك عزم على أحياء ليلة راقصة فى داره قريباً احتفالا بنواله نيشان الشرف وسيكون المدعوون منقبين وسأحضر تلك الحفلة

منقباً مثلهم . وطبعاً ستكونين فيها . فنى اثناء الرقص سأقترب منك فاذ كر لك اسمى همساً من تحت النقاب فتخرجين وأتبعك الى حيث أخفى زوجك تلك الرسوم ولا يشعرن بخروجنا أحد من الخدمة والمدعوين. وهناك تسلمينى الرسوم فاسلمك الاوراق يداً بيد فما قولك ؟ أجابت : واذا رفضت ماتقول

قال : واذا رفضت ؟ . . . انك أدرى اذن بما يكون اذ اتقدم لزوجك وهو بين مدعويه فاعلن أمامه على رؤوس الاشهاد أنك سارقة مقامرة وأنك سلمت لى فى نفسك لا كتم سر جريمتك ولا مدك بما أنت محتاجة من المال . وانك وعدتنى باعطائى أوراق زوجك واقدم السند والخطابات برهاناً على ماأقول فيعلم القوم فى باريس ان مدام فرجوس سارقة عاهرة خائنة لزوجها وبلادها ثم سيقبض علىّ بصفة جاسوس ولكن يقضى على زوجك وابنتك معنا ويهدم شرف اسرتك

قالت : ـ ويل منك ياقاتل

ثم خطر لفكر الام مابين ابنتها وأوليفييه من الحب المتبادل وكانت خطابا تهما الاخيرة فائضة بوصفه فرأت أن هذا الجاسوس قادر على هدم أمالهما والقضاء على سعادتهما فضلا عن العار الذى تلبسه اسرتها جميعاً فى نظر العالم الباريسى . فاطرقت برأسها وقد اناخت بها الافكار فقال لها كولونا

ـ لعلك صممت على رأى

أجابت : قلت لك مستحيل

ـ قال : حقاً انى بهيم . فقد عرضت عليك أمراً فصلا وما علىّ الا الصبر والتنفيذ . فاعلمى ان الحفلة التى حدثتك عنها ستقام بعد ثمانية أيام فالى الملتقى

أجابت : ارحمنى : قال : لاتزيدى

وفى تلك اللحظة سمع الاثنان وقع اقدام فالتمست واندامن كولونا ان يختبىء فى غرفة مجاورة فدخل اليها وهو يبتسم ظافراً . وكان القادم بوريس ومربيته فاقبل الغلام على امه وهو يرفل فى ثياب الصحة والعافية فقال

احقا ياامى اننا سنعود الى باريس قريباً وان والدى يقيم لنا حفلة جميلة

آجابت : نعم ياحبيبي وسترى اباك وسونيا

فصفق الغلام بيديه وقال : وافرحتاه

ثم انطلق يعدو . وأولجا تتبعه وعينا امه تشيعه : وعقب خروجه. خرج كولونا من مخبئه فالقى الى واندا نظرة ذات معنى وقصد الباب قائلا . الى الملتقى

الفصل السادس والثلاثون

اسرع من القطار

لبثت واندا مدة الثمانية الايام السابقة على الحفلة فى حالة ارتباك واضطراب لاتوصفان يتجاذبها عاملان : عامل صيانة شرفها من الفضيحة والعار وعامل هناء ابنتها وسعادتها مع من تحب . ولا بد لها من تضحية أحدهما فى سبيل الآخر

وترددت واندا فيما تضحيه حتى اذا اتاها خطاب من سونيا تبلغها فيها استعدادها للاقتران قريباً بمحبوبها عزمت الام على تضحية كل غال ومرتخص فى سبيل هناء بنتها وصممت على عدم حضور الحملة فأخذت تفكر فى تدبير تأتيه حتى لم يبق على ليلة الاحتفال الا يوم واحد فخطر لها خاطر انتهت اليه فركبت القطار الى باريس ومعها بوريس واولجا

وصارت تبدى لاولجا فى الطريق خوفها على ولدها الصغير من متابعة السفر الى باريس حتى انها احتجت بصحة الولد ولما وصل القطار الى مدينة ليون قالت لخادمتها

انى افضل صحة ولدى على حضور أعظم حفلة فلا بدلنا من تمضية الليل بليون ولا بأس ان فاتنا الاحتفال .

ونزل الجميع الى ليون وركبوا الى فندق بلكور . وماكادت واندا تبلغه حتى حررت رسالتين برقيتين احداهما الى زوجها تخبره فيها ان انحراف مزاج

ولدها اضطرها الى قضاء الليلة فى ليون وتأسف لعدم امكانها حضور الاحتفال والثانية الى كولونا وكانت تعلم منه عنوانه فى باريس . اما نص الرسالة الثانية فهو

« ولدى مريض فبقيت بليون ولن احضر الحفلة فأصبر وقدعزمت على أجابة طلبك وسأقابلك قريباً بباريس »

ولم تضع اسمها على الرسالة احتياطاً منها .

وأرادت واندا أن تخفى حيلتها على خادمتها فأستدعت طبيباً فأمر للغلام بالراحــة التامة

وما وصلت الرسالة الى فرجوس حتى حادث زوجته بالتلفون مستعلماً عن صحة ولده فطمنته ووعدته بأنها ستكون فى الغد فى باريس فاطمأن. ولما تركت واندا آلة التلفون سلمها خادم الفنذق رسالة برقية من باريس هذا نصها

« حجتك واهية لاتخفى عليّ . منتظرك الليلة بباريس بشارع لندره لغاية بعد نصف الليل بنصف ساعة آخر ميعاد فأذا مضى الميعاد ولم تحضرى انفذ ما أوعدت

« ا. ك »

لم تجز حيلتها على كولونا فما العمل ؟ خطر لها أن تكتب لزوجها أو تطير اليه فتعترف أمامه بكل ماتم لها وربما رأى فى امتناعها عن خيانته مايشفع لها عنده . ولــكنها لم تجسر على هذا ولا ذاك فنظرت للساعة فوجدتها الخامسة ثم تناولت دليل القطارات فلم تجد أمامها الا قطارين أحدهما يقوم من ليون الساعة السابعة والدقيقة الاربعين مساء ويصل باريس الساعة الخامسة صباحا والثانى يقوم الساعة الثامنة ويصلها السادسة صباحاً

ياويلتها. ماللاقدار تناوئها وتماندها . كانت الطريق ممهدة لها عند ماصممت على رفض مايدعونها اليه . ولما صممت على قبوله ووطدت العزم على استبقاء شرفها بارتــكاب جريمة الخيانة . اقيمت فى طريقها الموانع المادية التى لاتغالب . فما العمل؟

وبينما هي غارقة فى لجج الافــكار واذا بها تسمع دوى سيارة تمر تحت نوافذها فخطر لها فجأة خاطر وقامت فالتفت برداء كبير والقت على رأسها نقاباً كثيفاً

وقالت : لخادمتها انها مضطرة لدواع عظيمة ان تتغيب تلك الليلة وأوصتها ان تكتم خبرغيابهاالمرة عن كل انسان . ثم خرجت من الفندق ولم يلاحظ خروجها احد فقصدت مخزنا من مخازن السيارات وقابلت مديره فخاطبته بلهجة تدل على انها انكليزية وقالت له انها راهنت بعض اصحابها على ان تجتاز فى ليلة واحدة المسافة بين ليون وباريس ذهاباً واياباً وانها تريد ان يجهز لها سيارة تمكنها من ربح الجعل فتناول الرجل قلما وأجرى عملية حسابية وبعدهارفع رأسه قائلا: يلزمك يامولاتى سيارة قوتها ثمانون حصانا ولكن يلزمك سواق ماهر

فضاعفت له الاجر وقالت : لايبعد عليك وجوده

وفى الساعة الخامسة ونصف جهزت السيارة وخرجت بها من ليون بسرعة البرق تطير فى طريق باريس وواندا تهتز وتضطرب وتتمنى ان يصيب السيارة فى الطريق مايقضى عليها فيها فتنتهي من حياة كلها اوصاب واكدار

الفصل السابع والثلاثون

تحت النقاب

وصلت السيارة بواندا الى مسكن كولونا فى الميعاد فامرت السواق أن يذهب فيعدهاللاياب وينتظرها وراء كنيسة هناك. ثم طرقت على باب كولونا ففتح لها بنفسه ولمارآها تبسم ابتسام الظافر وقال: تأخرت بعض دقائق وكنت على وشك الخروج

ثم قادها الى غرفة فى الدور الاسفل وأشار لها بيده الى غلاف كبير فوق منضدة وقال : هذه هى أوارقك

فدفعها دافع الى مديدها اليها فامسك يدها بقبضة من حديدوأخذ الاوراق فوضعها طى ثيابه وقال: لم يأن الاوان فسلميني الرسوم التى اريدها اسلمك هذه الاراق

قالت بقلب منكسر : لك ماتشاء

فعلم كولونا انها اصبحت طائعة فقال لها : اخبريني اولا . اين مكان تلك الرسوم

اجابت : فى خزانة حديدية بمعمل زوجى

قال : اتعلمين اين مفتاح المعمل والخزانة

اجابت : اعلم مكان مفتاح المعمل . اما الخزانة فقفلها ذو حروف

قال : اذن تفتحين لى المعمل والخزانة الليلة

اجابت : مستحيل ان افعل ذلك بنفسى فان قومى يعلمون انى فى ليون فما على الا ان ارشدك الى ماتريد فتذهب وتأخذ تلك الرسوم ثم تأتينى هنا حيث انتظرك فترد لى خطاباتى

قال : افضل ان تأتيني انت بتلك الرسوم اذلا يبعد على ان اضل مكانها اما خوفك من ان يعرفك القوم هناك فقد اتخذت له تدبيراً وها قد جهزت لك ثوباً ونقابا تلبسيهما

وسرعان ماتناول ثوبا يقال له فى عرفهم (دومينو) فالقاه على كتفى واندا وسحبت واندا نقابها وطرحت فوق وجهها نقابا آخر اسود يخفيه

ولبس كولونا نقابا مثلها وهذا الزى مألوف فى المراقص المقنعة ثم جرها الى خارج الدار فاستوقف عربة اصعدها اليها وصعد بجانبها قائلا للسائق:فيلا سعيد بآخر سرعة

فانطلقت العربة كالريح

كانت واندا داخلها كانها جسم بلا روح تتمنى لوكان على مقربة منها سلاح فتغمده فى قلب هذا الغادر وتريح نفسها والعالم من شره

ولم يشأ كولونا ان تقف به العربة على باب الدار فترجل هو وواندا على مقربة منها . و رأت واندادارها مزينة بالانوار فانقبض صدرها وتصورت زوجها وابنتها محاطين فى تلك الحفلة بنخبة القوم وهى صاحبة الدار تتسلل فى الظلام مستترة مقدمة على ارتكاب جريمة

ودعاها كولونا للدخول معه فى الدار فامتنعت وقالت له: ادخل انت وانا انتظرك هنا . فاجابها لست بتاركك حتى استولى على تلك الرسوم فلا تحاولى ولا تجهدى نفسك عبثا . ثم انظرى كيف ينظر المارة الينا أتريدين الفضيحة ؟ . . دونك ذراعى فاتكئى عليه

ففعلت رغما عنها وقصد الاثنان باب الدار فاحس كولونا بان قواها تخور فقال لها : تشجعى ولا تخافى فما من احد يعرفنا . واذا كانت ردهة الدار خالية من الناس لا يعسر علينا الوصول الى المعمل

وجرها الى داخل الدار فصادفا فى طريقهما خادمين لا تعرفهما ثم وصل بها الى الدرج قائلا : يلزمنا الآن ان نختلط بالمدعوين فنجتاز الغرف ثم نخرج كيلا يرتاب فى امرنا الخدم فتبعته وهي مستسلمة

وكان فى اسفل السلم مدعوان يتحدثان ثم صعدا فصعد وراءهما كولونا وواندا متكئة على ذراعه

واجتازت معه الغرف فصارت تمر بجوار اصدقائها وصديقاتها وقد نزع بعضهم عنه النقاب فعرفته . وبينما وهى كذلك اذ وقعت عيناها على زوجها وابنتها بين المدعوين وسمعت ابنتها تخاطب الدكتور ميرال قائلة : نعم انى متأسفة على عدم حضور امى هذه الحفلة الزاهرة ولكنى أتعشم ان تأتى باكر فقد زاد شوقى اليها

سمعت واندا هذه الكلمات فخارت قواها وهمست فى اذن كولونا قائلة . ارحمنى واخرجنى من هذا المكان

فجرها كولونا بعيداً . وفى تلك اللحظة اخذت الموسيقى توقع لحنا جديداً واخذ الراقصون يستعدون للرقص

وقصد كولونا وواندا السلم ومنه ردهة الدار فلم يجدوا هناك الا خادما واحداً (هو اوجين تيتار الذى سبق لنا الكلام عليه)

مرا من امامه ولم يكد يشعر بهما ثم قصدت واندا تمثال زوجها فتناولت من ورائه مفتاح المعمل وفتحته ثم نزعت المفتاح فاستبقته معها ودخلت الى المعمل ودخل كولونا على أثرها وأغلق وراءه الباب

دخلت واندا الى المعمل وصارت تسرح نظرها فيه فرأت الالات الكهربائية مصفوفة ولمحت فى ضوء القمر صورتها وصورة ابنتها فى صدر الحائط فاخذت تتنازعها العوامل والافكار حتى كادت تلهيها عما اتت لاجله واذا بكولونا قد قصد فى الجهة اليمنى من المعمل مكان الخزانة الحديدية ودعا واندا الى فتحها فوضعت يدها على اجزاء القفل ورتبتها بحيث كونت حروفها كلمة «ماء» فانفتح باب الخزانة . . .

فتحت الخزانة ووقفت واندا امامها باهتة لا تستطيع مد يدها داخلها وأحست بقلبها كانه وقف عن الخفقان وشعرت بان الارض تميد بها وان جدران الدار ستنقض فوق رأسها . . .

ولكن لم تمد الارض ولم تسقط الجدران . . .

وما زالت الدار داراً واصوات الموسيقى ترن فى الاذان . ما اضعف الانسان واخيراً مدت واندا يدها فتناولت اوراقا من الخزانة وهى لا تكاد تفقه ماتفعل. ثم مدت يدها الى الجاسوس بالاوراق فتناولها بعجلة فقالت له: ردلى الان اوراقى

قال لها . صبرا حتى اتحقق مما ناولتنيه فانى اخشى ان تخدعينى والآن فقفى امامى حتى لا يرى أحد من الخارج الضوء

ثم انزوى فى احدار كان المعمل واشعل كبريته ونظر فى الاوراق فاطمأن وقال هى هى

كانت تلك الاوراق تحتوى على رسوم المدفع الكهربائى الذى اخترعه فرجوس وفيها بيان سر تركيبه واستعماله وكان من مزايا هذا المدفع ان البارود يلتهب فيه بواسطة التيار الكهربائى وبدون انفجار فلا يخشى على خدمة المدفع شر منه ويكون الخدمة بمأمن من نار العدو وراءه

فاستولى على كولونا فرح عظيم من استيلائه على هذه الاوراق والتفت الى واندا قائلا : لم يبق لى غير كلمة . فخذى

ثم اخرج من ثيابه بيده الاخرى الغلاف المخبأ فيها فتناولته واندا بسرعة وفتحته فوجدته متضمنا جميع الاوراق التى تخشاها ووجدت فيه السند والخطابات حتى الرسالة البرقية المرسلة منها بالامس فلم يبق امامها الا أمر واحد وهو اتلاف

هذه الاوراق ومحو أثرها من الوجود فى أقرب لحظة وعلى ذلك مزقت هـذه الأوراق اربا اربا ثم القتها فى مدخنة المعمل وتناولت الكبريت فاشعلت فيها النار ولبثت تنظر لها حتى اذا اخمدت النار تنفست الصعدآوكان ازيح عن صدرها حمل ثقيل كيف لا وقد نجا شرفها وعرضها بل ردت لها حياتها . .

ولما اتقت واندا شر الاوراق بحرقها خطر لها خاطر كالبرق فتقدمت لكولونا قائلة : الان لا أخشاك فرد لى هذه الرسوم فاندهش الرجل ولم يكن منتظر منها هذا اللسان فقال : ماذا تقولين

أجابت : أقول لك ان لم تسلمنى هذه الاوراق افتح هذا الباب واستنجد بالحاضرين وأقول انى فاجأتك هنا وأنت تسرق فيقبض عليك وتساق الى السجن

فتبسم كولونا وقال : انك لمجنونة اتظنين انك فاعلة ماتقولين ؟

قال ولماذا لا أفعل ؟

قال : لان فى ضياعى ضياعك اذ اقول انك انت التى اتيت بى الى هنا وانك شريكتى فى الجريمة

أجابت لن يصدقك احد

قال : بل اروى لهم قصتى معك من البداية للنهاية وشهودى جابى دوذون وصاحبا الحانة التى حررت فيها السند فارجعى يامولاتى الى صوابك وافتحى لى الباب كى اخرج

اجابت : لن افتح لك حتى ترد لى هذه الاوراق وقبضت واندا بيدها على مفتاح المعمل الذى خبأته فى ملابسها

قال الرجل حسنا

ثم تقدم نحو النافذة ليقذف بنفسه منها الى الحديقة فاسرعت اليـه واندا كالبرق الخاطف وتعلقت به وقد تضاعفت قواها من الحقد واعملت أظافرها فى عنقه ولم يكن الرجل منتظرا منها هذا الهجوم فسقط على ارض المعمل تحت النافذة وسقطت هى فوقه وهنا ابتدأ بين الاثنين عراك عنيف فى الظلام لا ينبس أثناءه

احدهما بكلمة بل تتردد فيه أنفاسهما متقطعة وفى اعلى الدار تدق نغمات الموسيقى وفى السماء يقصف الرعد ويخطف البرق الابصار

الفصل الثامن والثلاثون

« الاعتراف »

ذكرنا فى الفصول الماضية ملخص الحوادث السابقة فلنترك الان المتصارعين ولنعد الى الحديث حيث كنا تركناه

يتذكر القراء الوعد الذى صدر من فرجوس الى اوليفييه ومورتير ويتذكرون أيضا ان الصحافى كان اتهم واندا بناء على الورقة التى وجدت فى مدخنة المعمل وان فرجوس بعد ان افرغ جهده فى رد هذه التهم بدلائل بينات تعهد بأن يستطلع خفايا هذه القضية بنفسه أمامهما

وكان فرجوس يسعى الى ظهور الحقيقة لاليقنع أوليفييه ومورتير فقط بل ليقنع نفسه أيضاً ببراءة واندا لانه رغماً عن ثقته بها كان لايزال فى نفسه ريب من جهتها لامرين أولهما وجود قطع الخطاب المحرر من واندا وثانيهما اعتراف سونيا ولم يكن علم به الا من عهد قريب فأراد ان يستجوب سونيا أولا فتحصل على تصريح من اوليفييه بزيارتها فى سجنها . ولما قابلها تردد أولا فى مفاتحتها لان الموضوع دقيق ولكنه تشجع أخيراً وباغتها قائلا

وصل الى علمى أمر لا أكاد أصدقه فقد قيل لى انك اعترفت بانك قاتلة كولونا

فكادت الفتاة تختنق وصعد الدم الى وجنتيها وقالت : أقالوا لك . . . .

ثم عراها الغضب فاستمرت قائلة : ياله من خائن . ياله من خائن . . ولكنه وعدنى بان يكتم سر اعترافى وعلى الاقل عنك يا أبتاه

فقال : فرجوس مندهشاً : سر اعترافك اذن فصحيح آن اعترفت

أجابت بثبات عزيمة : نعم

قال : أأنت التى قتلت كولونا

أجابت : نعم أنا

قال : وذلك لانك كنت . .

فقاطعته الفتاة متوسلة قائلة : رحمالا ياأبت رحماك . . . لاتسألنى فلا فائدة من سؤالى . . . نعم قد صدقوا فى كل مابلغوك اياه . . . أنا جانية ...قد جنيت ماتظنه . . . أنا لاأستحق الانتساب اليك . فتبرأ منى والعنى . . . انى كنت أرجو ان لايصلك نبأ اثمى . . وانم امى على الاخص . . امى العزيزة التى كنت أود ان لايصيبها اذى . فأقسم لى ياابتى انك لاتبلغها شيئاً . . لانها تجهل للان خبر القبض على

ولمح فرجوس يأس ابنته لكنه اندهش لصراحة اعترافهـا حيث تقر له بجريتها وعلى الاخص باثمها . وقد كان ينتظر أن تضطرب فى أقوالها بدل تلك الصراحة فداخله الشك فيما تقول وخشى أن لاتكون الفتاة قد صممت على أن تقدم نفسها ضحية بهذا الاعتراف وهى لاتدرك مبلغ الجرم الذى تنسبه لنفسها وفى هذه الحالة يكون مارتأه مورتير صوابا ولكن اذا كانت سونيا كاذبة فى أقوالها ؟ أنما لابد أن يكون لها غاية من الكذب اذن فهى تخدم بذلك شخصاً تفديه بنفسها . ومن عساه يكون ذلك الشخص

وابتدأ الريب يتجسم فى قلب فرجوس وداخلته الغيرة لانه كان يعبد زوجته عبادة فعزم على قطع الشك باليقين ومعرفة الحق الصراح . فترك السجينة وهو فى حالة اضطراب عظيم ولكنه اجتهد فى اخفاء ما به عن ابنته .

وكانت واندا ملازمة الفراش من الحمى من خمسة وثلاثين يومامضت فكانت تجهل نتيجة الحوادث التى وقعت ولا يستغرب القارىء جهلها اذ يكفيه ان يتذكر ماحدث فى دار فرجوس يوم القبض على سونيا وليسمح لنا القارىء بتذكيره ذلك

يتذكر القراء ان فرجوس بعد ان طرد اوليفييه من منزله ولعنه تولته نوبة عصبية فسقط مغمى عليه فاسرع خدامه اليه وعملوا على تنبيهه فافاق بعد قليل لما شمموه الاتير وكان أول ماخطر له فعله لما عاد الى رشده ان يخفى على زوجته المحبوبة المصيبة التى أصابته فى ابنته خشى المسكين ان تعلم الام بسجن ابنتها فتجن وعزم ان يكتمها هذا الامر وأن يلفق لها خبرا يفسر به غيابها فارتأى ان يخبرها بانها اصيبت بما اوجب نقلها الى المستشفى ولكنه رأى ان تأثير هذا الخبر على أمها قد يقضى عليها وكان يعلم أن واندا فى مثل هذه الظروف لايقر لها قرار حتى تطمئن على ابنتها فتطلب ان تراها فماذا يكون من وراء ذلك ؟

استولت الحيرة على ذلك الاب التعيس فاطرق مفكرا بينما يعمل . وفيما هو كذلك اذ دخل عليه الطبيب ميرال وكان أتى لعيادة واندا كما وعد فاخبره فرجوس بما حدث وبحيرته فاطرق الطبيب قليلا ثم قال لاتجزع . فسأدبر الامر . ولكن قل لى أأنت واثق من ان ان مدام فرجوس لم تسمع شيئاً

قال : بلى فانها كانت راقدة فى غرفتها من الدور الاعلى والستائر مسدلة اما هى فكانت فى غيبوبة من تأثير شراب الكلورال الذى أمرت به أمس

قال الطبيب . ومن يمرضها

أجاب : خادمتنا الروسية أولجا

قال أتظن انها كتمت عنها الامر ولم تبلغها شيئاً مما جرى ؟

قال أنا واثق من انها لم تخبرها بشىء فان أولجا تفضل أن تقذف بنفسها فى النار عن ان تعرض مولاتها لاى تأثير يؤلم فانها تكاد تعبدها . ولا أظنها تكون الا آخر من ينبئها بهذا المصاب المؤلم . ومع ذلك فاولجا لم تعلم لانها لم تترك مرقد سيدتها تلك الليلة . ثم انها لاتتكلم الفرنسيه مطلقاً

قال الطبيب : وخدامك الآخرون : اجاب . امرتهم انلاينبسوا ببنت شفة

قال : أأنت واثق منهم : أجاب . كل الثقة

قال : اذن فعلى تدبير باقى الامر . فهيابنا : وصعد الرجلان الى غرفة المريضة

«١٧»

وكانت واندا قد استيقظت منذ قليل وطلبت ان يؤتى لها بزوجها وابنتها . فلما دخلا الى الغرفة أزاح الطبيب بعض الستائر جلباً للنور وليتمكن من فحص المريضة ثم اقترب منها ورأسها ملقاة على الوسادة فرأى بعض بقع حمراء غير عادية بهيئة طفح فوق الجلد فجس نبضها وتغير وجهه فاضطرب فرجوس وسأله قائلا

كيف تراها أيها الطبيب قال : قد احدثت عندها هذه المسألة المشؤومة اضطراباً فى الدورة . وأرى ان الذى بها هو حمى حصبية

فتنهدت واندا فقال لها الطبيب : لاتنزعجي يامولاتى : فانا ضامن شفاءك اذا أطعت ماآمرك به فان مرضك اذا اهمل بسبب أوخم النتائج ولكنه اذا تدورك بعناية يصبح كأنه لم يكن . فقط يلزمك الآن عدم الخروج لافى مدة المرض ولا فى دور النقاهة ثم اعلمى ان من مساوىء هذا المرض انه معد فيجب عليك أن لاتجعلى أحداً يقترب منك خلاف الممرضة

اجابت : وزوجى أيها الطبيب وأولادى ؟

قال : زوجك حر يفعل مايشاء فتدور الدائرة عليه ان لم يرضخ لتعليماتى أما أولادك فيجب قطعياً نهيم عن الاقتراب من غرفتك

أجابت : آه ياسونيا ويابوريس أأظل محرومة من رؤيا كما تلك المدة . وما قدرها أيها الطبيب ؟

قال لها : اثنان واربعون يوما على الاقل

اجابت : هذا أشد مافى هذا المرض فألمه يطاق ولايطاق ألم الفراق . ولكن حيث لامندوحة عن ذلك فصبراً . ان صحتهم عندى اثمن من كل شيء

قال لها : اصبت يامولاتى : ثم استأذن الطبيب ولم يكتب تذكرة الدواء كالعادة وصحبه فرجوس الى الغرفة الخارجية وهناك شكره على حيلته فقال له الطبيب : ولكنها ليست حيلة ياسيدى فاعلم انه لحظنا ولسوء حظنا قضت الظروف بأن تكون اصابة مدام فرجوس بالحمى الحصبية حقيقة

فأظلم وجه الكيماوى فطمنه الطبيب قائلا : اطمئن فانى سأشفيها باذن الله

وعلى كل حال فذلك يسمح لك باخفاء ماحدث عنها وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

****

ولما عاد فرجوس الى غرفةزوجته اجتهد فى اخفاء اضطرابه ففاجأته زوجته بالسؤال الذى يخشاه اذ قالت له : قل لى ماذا تقول هذه الصحف الخبيثة وماذا وصلت اليه حالة هذه القضية المشؤمة

اجابها : لقد سكتت الصحف عنها . ومع ذلك فاوليفييه قرر حفظها

فأشرق وجه واندا بعد الكمود وقالت : اذن فتلك التهم التي كانت موجهة الى سونيا ...

فتمتم قائلا : سقطت من نفسها

قالت : الحمد لله على براءتك يابنتى العزيزة . ماشوقنى الى ضمها لصدرى فأين هى الآن ؟

أجاب فرجوس : ارسلتها للغابة لتروح عن صدرها وتستنشق الهواء

قالت واندا : نعم .. ثم ان ابناء عمنا دوسمون بانتظارنا فى ضيعتهم الغناء بلوفنسين فارسل ولدينا هناك ليسرحا عن نفسيهما وخصوصاً سونيا : فانها تحتاج لترويح الخاطر بعد ماحدث وكذلك بوريس فانى أخشى على صحته

قال فرجوس . سأرسلها قريبا والآن خذى الشراب

ثم تناول الكيماوى قدحا فسكب فيه الدواء وقدمه لزوجته بعناية وشفقة العشاق فتناولته منه وقد أثر فيها اهتمامه وقالت له : ماأطيب قلبك

أجابها : أنها ليست طيبة . بل حب أنى أحبك ياواندا وارجو أن تكونى سعيدة فهل تحبيننى انت ؟

فاغمضت واندا عينها وقالت : أحبك أكثر من حياتى : ثم وضعت يدها وهي تلتهب من الحمى بين يدى زوجها وكان النعاس قد استولى عليها فاطمأنت

اليه . ولم يسمع فى الغرفة غير دقات الساعة وتردد انفاس المريضة وكان زوجها واقفا بجوارها غارقا فى بحار الافكار والهموم يحمد الله على كل حال على بقاء زوجته له وتمكنه من كتمان الامر عنها

***

ومن تلك الليلة عمل كل من فى المنزل بامر رب الدار فلم يلفظ أحدهم بكلمة ثم مما جرى فيه وكان الخطر قد زال عن واندا ودخلت فى دور النقاهة ولبثت اربعين يوما وهى تظن ان القضية حفظت وان سونيا وبوريس بلوفنسين عند اولاد عمها دوسمون : وكان بوريس فعلا لديهم ولكن لم يخف عنهم خبر القبض على سونيا انما تواطؤا مع فرجوس على كتمان الامر عن واندا فكانوا يرسلون اليها خطابات يبلغونها فيها اخبار ولديها كانهما لديهم وكان بوريس يكتب لها ايضا عنه وعن اخته وعلمت سونيا وهى فى سجنها بتلك الحيلة فسرت لها وصارت تكتب لوالدتها موهمة لها انها فى لوفنسين وارادت سونيا ان لا تجعل امها ترتاب فى شيء فصارت تحدثها فى خطاباتها عن عزمها على الاقتران بأوليفييه فكانت واندا تظن بأن العلائق بينهما عادت الى مجراها بعد حفظ القضية

وقالت سونيا فى بعض خطاباتها ان اوليفييه يأتى مراراً الى لوفنسين ويحدثها فى موضوع زواجها القريب: واطمأنت واندا من جهة ولديها فصارت ترقب بنافذ الصبر انقضاء المدة التى قررها الطبيب لتذهب فتضم الى صدرها ولديها وكانت فى دور النقاهة تعد الساعات وهى تنظر من خلال الزجاج الى الطبيعة المبتسمة والشمس المشرقة

ولما كاد يقضى الاجل قالت واندا لزوجها فى الليلة الاربعين

اذهب يا بسكال غدا الى لوفنسين وائتنى بولدى

فتمتم قائلا : نعم . نعم غدا غدا وضاق صدره لسجن ابنته الذى طال

وفى مساء تلك الليلة زاره سراً اوليفييه وسأله قائلا

لقد قابلت ابنتك فما كان تأثير هذه المقابلة على نفسك ؟

فارتبك فرجوس ولكنه قال

لايمكنى الحكم الآن

اجاب . اتظن انك اقتربت الحقيقة والاتزال عازماعلى وفاءالوعدالذى وعدتنى ومورتير

قال : نعم فان زوجتى شفيت الان ولايخشى عليهامن تحقيقى الامر بحضرتكما

أجاب : متى ؟

قال : غدا . ولكنى اخشى ان وجودكما أمامها وخصوصا وجودك انت يلجمها ولذلك ارجوك ان تقبل ان يفعل بك مافعلت بى اى ان تكون فى غرفة اخرى بجوارنا تسمع مايقال ولا ينظرك احدو تلك الغرفة متصلة بسلم الخدم انما ارجوك ان لاتأتى بمورتير فانه لايصعب عليك اذا وضحت برآة امرأتى ان تخبره بعد ءاتم

اجاب القاضى ليكن ما تشاء فالى الغد

واقبل الغد فلبثت واندا مساء فى غرفتها تنتظر بذاهب الصبر قدوم ولديها من لوفنستين ولما شعرت بوقع اقدام زوجها هبت مسرعة نحوه وقلبها يخفق من الفرح . وفتح الباب فظهر فرجوس مع ابنها بوريس

فأقبلت الام على ولدها تقبله ثم قالت : وأين سونيا

فأشار فرجوس لولده بالانصراف ثم التفت الى زوجته قائلا : ما اشقى حظك ياواندا

وكأننا به وقد خشى وقع كلماته فى نفس زوجته فقال : تشجعى ياواندا ففى مثل هذا الوقت تلزم الشجاعة

فاصفر لونها وأحست بوقع مصاب فقالت : ماذا جرى

قال : مصاب مؤلم

اجابت : مصاب . أى مصاب ؟

قال : لاتسأليني

اجابت : بسكال لاتخف عنى . . . اود ان اعلم ماذا جرى .. انك تقول مصاب أاصاب سونيا شيء

قال : نعم

فاضطربت وقالت :

وهل حياتها فى خطر ؟

قال : لا . ليس الخطر على حياتها ولكن على أعز من الحياة

اجابت : وى ماذا جرى ما الخبر ؟

قال : ألم تفهمى . قلت لك على أعز من الحياة

اجابت : تعنى شرفها ؟

قال : نعم شرفها ثم حريتها أيضاً

فزاغ بصر الأم وقالت : شرفها وحريتها؟

ثم وضعت رأسها بين يديها كأنها تخشى ان تنفجر واجابت :

قل . قل واسرع . فانك تكاد تقتلنى بهذا الايجاز

قال اذن فاعلمى انهم وجدوا قاتل كولونا فبهت لونها واجابت: كيف وجدوه ؟

قال : وجدوه فقبضوا عليه ثم سجنوه

أجابت : قبضوا عليه . . . سجنوه . . . القاتل ؟

قال : نعم وهى ابنتنا ابنتنا سونيا

اجابت : أفتراء وبهتان . افتراء وبهتان

قال : لاريب فى انها الجانية لانها اعترفت بكل شىء

اجابت : اعترفت . . . سونيا

قال : نعم . فانها قالت : انها كانت خليلة ذلك الرجل وانها قتلته لتستخلص خطابات تدل على اثمها معه وكان هددها باطلاعنا عليها

اجابت : كذبت سونيا . انها بريئة . . . وانى انا قاتلة كولونا

قال : انت !

اجابت : نعم انا واندا فرجوس قتلته واقسم بأنى انا القاتلة

اعترفت واندا بصراحة وبدون ان يضغط أحد عليها اعترفت بشهامة لاتدع مكانا للريب فى صدق اعترافها

نعم وذلك سر المحبة الوالدية فان تلك المرأة التي لاقت مالاقت من الذل والهوان لتخفى جرمها عن زوجها وقضت فى ذلك السبيل لياليها قلقة حائرة تلك المرأة التى خانت نفسها وزوجها لتدفع العار عن بيتها اصبحت الآن لاتخشى ولاترهب تعترف بجريمتها وتسلم نفسها للقانون حرصاً على فلذة كبدها واستبقاء لولدها

وقد عرف فرجوس كيف يخاطبها فاصابها فى اوتار قلبها فحركها فتحركت شفتاها فاضحة سرها الدفين فى اعماق فؤادها

نجحت التجربة وانقلب الشك الى يقين بدليل ماستولى على فرجوس المسكين من الحزن واليأس . ولكن عاد اليه اداركه لخطورة الحالة فقال الامر أنه ونفسه يردد فى صدره أنت . . . أنت . . امرأتى واندا . . . انت التى قتلت هـذا الرجل . . . أنت . . . مستحيل . أنى فى حلم . أنك لم تكونى هناك أنت لاتعرفينه أنك تكذبين أنت تكذبين لتخلصى ابنتك آه نعم نعم هـذه هى الحقيقة أليس كذلك؟

وكان صوته متهدجا كأنه يتوسل لها ان ترجع فى اعترافها ويمنى نفسه ببراءتها فقالت : له بسكون وثبات : كلا يا بسكال

ثم استمرت تفسر له ماأبهم عليه بعبارات منقطعة فقالت : أنا الجانية وجريمتى فظيعة كنت أؤمل ان اخفيها عنك كنت ارجو ان اكتم عنك هذا السر للابد ولـكن لما ظهرت تلك المقالة التى اتهمت فيها سونيا خطر لى عشرين مرة ان أبوح لك بكل شىء آه ما كان أشد عذابى وقتئذ كم تعذبت فكان نصيبى تلك الحمى الخبيثة نعم لما رأيتهم يتهمون ولدى أردت ان ابوح واعترف ولـكن من الامور مالا تستطيع الزوجة أن تبوح بها لزوجها فاردت أن اكفيك شر المـكاشفة بها فكانت الـكلمات تقف على شفتى ويختنق صوتى فى صدرى ولايطاوعنى قلبى على الاعتراف شفقة بك ثم كنت ارجو ان تتوصل سونيا بسهولة الى اثبات براءتها من تهمة كاذبة الصقت بها افتراء وكنت اتعشم ان لاتلبث القضية حتى تحفظ فنخلص نحن جميعاً ولهذا سكت وتعلقت بهذه الآمال ولهذا لما جئتنى وانا على فراش المرض فبشرتنى بحفظ القضية فرجت عن صدرى فتنفست وزال همى وظننت ان

قضى الامر ولكنك خدعتنى ألم تخدعنى اذ ذاك

قال : فرجوس نعم خدعتك لأنى رايتك مريضة فأردت كتمان الحقيقة أنا أيضاً اشفاقاً عليك أما الان فاعلمى ان ا بنتك بالسجن منذ أربعين يوماً

اجابت : ليتك اخبرتنى من أول يوم فكنت اعترفت فى الحال فتتخلص هى من سجنها حبيبتى سونيا كيف سجنوك ؟

ثم استولى الحزن واليأس على قلب واندا فصارت تعض يديها وتقول : هيا بنا نسعى فى خلاصها حالا وهل من قاض اعترف بين يديه واقر له بالحقيقة المؤلمة لانها تقضى علىّ وعلى شرفى ولكنها مفرحة لأنها تخلص ولدى حبيبتى سونيا الىّ بالقاضى الىّ بالقاضى

قال فرجوس متألماً ليس القاضى ببعيد عنك . فهو هنا يراك ويسمعك

فظنت واندا أنه يعنى نفسه فتنفست الصعداء وقالت : نعم كن قاضى يا بسكال واحكم علىّ بما تشاء . فانا رهينة أمرك

ثم ترامت على قدمى زوجها راجية متوسلة خائرة القوى فقال لها زوجها بقسوة : ا كنت اذن تعرفين هذا الرجل وقد خنتنى . . . معه ؟

قالت : نعم . . . خنتك

قال : آه . . .

وكأن « آه » نافورة من نار خرجت من أعماق فؤاده تتلظى فيها نفسه من الغيظ والغيرة فأثر هذا الصوت فى نفس واندا وقالت : اخطأت يا بسكال . انك لم تفهم ماأقول انى خنتك ولكن لا كما تظن . . فأعلم ان نفسى وان كانت دنستها الخطايا . . . الا أن جسمى لايزال طاهراً لم يمسسه غيرك وانى اقسم لك على ماأقول

فأضطرب الرجل ثم تنفس كأن حملا ثقيلا اريح عن صدره ولكن أخذته الدهشة لتضارب أقوال زوجته فقال لها : افصحى

فابتدأت تعترف له بكل شىء بفصاحة تامة ووضوح فذكرت له دخولها الى قاعة اللعب فى مونت كارلو وخسائرها فيها ثم سرقة الاوراق المالية فى أوتيل

بريستول وكانت وهى تذكر له تفاصيل تلك السرقة له وهوزوجهاالمشهور بعلمه وأدبه وفضله تكاد تخنقها الفاظها من الخجل ثم حدثته بأمر كولونا وتداخله عند ماخسرت وما عرضه عليها وما هددها به وورقة الاعتراف بالدين والاعتراف بالسرقة التى اضطرها الى كتابتها ثم بيع حليها المـاسية والمقابلة فى دار التين وما عرضه عليها الجاسوس الخائن من خيانة زوجها ووطنها ومعارضتها له ثم غلبها على أمرها وترددها وتسويفها له وما أصابها من الهول من تهديده لها بافشاء السرثم موافقتها أخيراً له وحضورها بالسيارة (الاوتومبيل) ليلة الحادثة الى باريس

واستمرت واندا فى اعترافها حتى أتت على تفصيل حوادث الليـلة الفظيعة فذكرت قدومها مستترة الى منزلها اثناء الحفلة وهى متكئة على ذراع الرجل وكل من فى المنزل يظنونها بعيدة عن المدينة ثم دخولهـا الى المعمل مع كولونا واتلافها الاوراق المضرة بها بحرقها فى مدخنة المعمل وهذه الاوراق هى التى وجد موريتير ليلة الحادثة قطعة منها سلمت من النار) ثم ذكرت ندمها بعد أن سلمت له رسوم المدفع الـكهربائى وما حدث من العراك عندما أرادت ان تستخلصها من يد ذلك الجاسوس الغريب وكيف قتلته اثناء هذه المقاومة

وسمع فرجوس كل هذه الوقائع ولـكن ابهم عليه معرفة كيفية القتل خصوصاً بعد ان قرر الاطباء الشرعيون عجزهم عن معرفتها فسألها قائلا : قتلته . . . قتلته ولـكن كيف قتلته ؟

قالت : سأفصل لك ذلك . كنت أقاوم هذا الرجل وهو يقاومنى. فأنا أريد ان استخلص منه تلك الاوراق وهو يريد ان ينجو بها هارباً من النافذة فسقطنا معاً على الارض . وتوصل هوحينا الى أن يبرك على ركبتى وحاول ان يخنقنى . فمن الالم والغيظ اخذت اتلمس بيدى على الارض فى الظلمة شيئاً اتخذه سلاحا لادفع به هذا الرجل عن نفسى وكدت افقد الشعور لولا ان أصابت يداى شيئاً بارداً من المعدن واذا به الآلة التى تستعملها أنت فى تحويل التيارات الـكهربائية الشديدة ولاحظت ان عدوى متكىء بظهره وكل قواه على الاسلاك الموصلة

للكهرباء فعرض لى خاطر كالبرق ورأيت ان انا سلطت التيار الكهربائى عليه صعقته فى الحال ولكنى خشيت على نفسى ان اصعق معه لاتصاله بى اما لم اهتم بنفسى مادمت أتوصل لرد كيده وكانت الآلة المحولة على مقربة من يدى اليمنى الخالصة والدنيا مظلمة فلا يستطيع كولونا ان يرى ماأنا فاعلة ففتحت الالة فى الحال فشعرت برجة شديدة اخترقت كل جسمى ثم اغمى علىّ وبعد قليل افقت لنفسى وبى دوار غير شديد فقمت ووجدت عدوى ملقى تحت قدمى جسما بلا روح فوضعت يدى على قلبه فى الظلام فوجدته واقف الحركة فتحققت موته واندهشت للتيار الكهربائى كيف قضى عليه وصعقه ولم يصبنى بسوء وما أظن ذلك الالأنه كان متصلا مباشرة بالاسلاك: فهذه هى كيفية قتله وقد بحثت فيها كما ترى

قال فرجوس اصعقته بالكهرباء ادركت الان سر جهل الاطباء لسبب الوفاة عند التشريح والكهرباء اذا لم يكن تيارها قويا تحدث فى الجسم حروقاً أما اذا كان التيار شديداً فانه يصعق الجسم فيموت الشخص ولا يظهر عليه أثر لأن من تأثير التيار الشديد ايقاف القوى الحيوية فجأة مرة واحدة ومن ضمنها أعصاب القلب فتتم الوفاة

وكانت واندا بعد قتل كولونا قد وضعت الرسوم فى الخزانة الحديدية وقفلتها ثم أرادت ان تبعد الجثة فتلقها من النافذة الى الحديقة ومن هناك تجرها الى أرض فضاء واقعة وراء النزل وذلك هو القصد الذى أدركه أوليفيبيه من التحقيق

ولما لم تتمكن واندا من رفع الجثة الى حافة النافذة القتها حيث هى ثم أخذت تفكر فيما يقولونه اذا وجدوا جثة كولونا فى معمل زوجها وخشيت أن يطول بها الموقف فعملت على الفرار واقتربت من شق الباب فنظرت فوجدت ردهة الدار خالية فوضعت الثوب الذى كان يسترها وكان سقط منها اثناء العراك ثم فتحت باب المعمل وخرجت منه خلسة

ومن حسن الحظ لم يكن الخادم واجين تيتار موجوداً (يتذكر القراء ان ذلك الخادم قال فى التحقيق انه تغيب خمس دقائق فى تلك الليلة لقضاء حاجبه)

ففى تلك الاثناء خرجت واندا من المعمل الذى رآها تيتار داخلة فيه ثم أغلقت الباب ووضعت المفتاح تحت التمثال واجتازت الحديقة الى الشارع

وفى اقل من لمح البصر خلعت واندا لباسها وركبت عربة الى ميدان التثليث حيث تنتظرها السيارة التى جاءت بها فصعدت اليها وكانت الساعه الثانية وربع بعد منتصف الليل وانطلقت السيارة بسرعة الريح قاصدة ليون وكادت واندا تلاقي حتفها فى الطريق عشرين مرة لسرعة السيارة ولكنها وصلت اخيراً سالمة الى ليون حوالى الساعة التاسعة صباحا وبمجرد وصولها قرع جرس التلفون وخاطبها زوجها فرجوس يقص عليها نبأ اكتشاف جثة كولونا فى المعمل اثناء المرقص فتظاهرت بالاندهاش ولكن عقبه اضطراب لما علمت انهم وجدوا بجوار الجثة ابنتها سونيا غائبة عن الرشد

ولم تطق واندا صبراً فسارت لساعتها الى باريس وهناك اطمأنت لما علمت من فم سونيا نفسها تفسير الواقعة وعبارة زجاجة الاتير

أما شهادة أوجين تيتار فكانت صادقة فى مجملها كما استنتج مورتير اذ رأى فى اول مرة واندا وفى الثانية سونيا فظنهما واحدة لتشابه الزى والشعر والقوام سنهما

ولما تأمل فرجوس فى جميع هذة الامور وضح له ما كان مبهماً عليه وعلى غيره واستمرت واندا فى حديثها قائلة

وقد قلت لك الان كل شىء فحاكمنى واحتكم فىّ وعاقبنى اذا شئت فانى راضخة لحكمك سواء عاقبتنى بالطلاق او الابعاد أو ماتشاء

ثم ارتمت ثانية على قدمى فرجوس وهى تشهق ولبث فرجوس ينظر اليها وقد تضاربت فيه عواطفه فاضطربت أفكاره . وقد اهاجه فى البدء اعترافها فحرك فيه عوامل الشرف والغيرة ولكن أثر فى نفسه ختامه فترك فيها جرحا يكاد لا يندمل

نعم واندا جانية خائنة سارقة قاتلة هذا لاريب فيه . ولكن كيف يستطيع ذلك الرجل تصورها قادرة على كل هذه الآثام والجرائم وقد كان يظنها اطهر

جنات حواء واكرمهن نفساً انما ... ألم تكن معذورة . مغلوبة على أمرها تحت سلطان الاكراه . ارتكبت اول هفوة ولكن ماأفظع الخطوة الاولى فى سبيل الجرائم . فانها تدفع الى السير فى هذا السبيل . قتلت واندا لتخفى أثر خيانتها وخانت لتعوض عن سوء ماجنت قبل ... ثم ان فرجوس علم طهارة ذيل زوجته من الزنى وكان داخل قلبه ريب من هذا القبيل . فلما اطمأن خف عنه بعض همه وماكان ليعفو عنها لو كانت آثمة ذلك الاثم

كل هذه الافكار صارت تراود رأس الكيماوى وامرأته تحت قدميه تبكى والسكون شامل حولهما . وبعد قليل نظر اليها زوجها نظرة يخامرها الحزن واليأس وقال : ماأتعس حظك أيتها المرأة

اجابت : أتحتقرنى

قال : كلا . وانما آسف عليك

فارقت اسرتها وكأن قبسا من الامل لاح لها فقبلت ركبتيه واجابت

اذن فانت تصفح عنى

فمد يديه وانهضها وضمها الى صدره فارتمت عليه غائبة عن الوجود

الفصل التاسع والثلاثون

كيف المخرج

أثرت فى نفس واندا طيبة قلب زوجها فقالت له : هيابنا الآن نطلع أوليفييه دى لورا على الامر ونخلص سونيا

اجاب لاداعى للذهاب فهو منا قريب

وفى الحال فتح باب الغرفة المجاورة وظهر منه أوليفييه فصاحت واندا قائلة أنت هنا . اذن فقد سمعت ماقيل : قال القاضى بصوت المحزون

سمعته كله . وقد كنت اتهمك وزوجك يدفع عنك التهمة وأراد ان يقنعنى ببراءتك عالما انك لاتخفين عنه شيئاً فجعلنى بحيث أسمع ماتقولين فانقلب الامر وأقنعت باداتك وباء هو بخجله

قالت واندا سواء أخفاك هنا أو لم يخفك فانى كنت بائحة بكل مابنفسى أمامك وأمام غيرك لان غايتى لاتتحول وهى خلاص ابنتى وسلامة شرفها وقد تأكدت الان انها مااتهمت نفسها الا لتخلص اباها وأمها. انى أعلم انها تهواك فما اشد اعترافها أمامك على نفسها بجريمة فظيعة تحط بقدرها عندك وتذهب بحبك لها

قال فرجوس . ولكن كيف علمت انك الجانية : اجابت لا أعلم

قال أما عهدت بسرك لاحد : أجابت ابداً

قال اذن فكيف علمت

قال أوليفييه ربما كان كولونا أخبرها قبل الحادثة بقصتك معه فى نيس

فاعترض فرجوس قائلا وما غرضه من ذلك

اجابت واندا: ذلك ماسنعلمه من سونيا نفسها فانى سأحاول استطلاع سرها

قال أوليفييه مهما كانت الواسطة التى علمت بها سونيا ذلك السر فمن المحقق

انها تعرفه وتصرفاتها معنا لاتدع مكانا للريب فى ذلك أن عملها يدل على شرف النفس وعلو الهمة ولن تكفيني حياتى ندما على سوء ظني بها واتهامها فهل تصفح عنى ياترى ؟

اجابت واندا الصفح قريب لدى المحبين وما كانت سونيا الا لتعجب بنزاهتك واعتدالك حيث ضحيت غرامك فى سبيل واجباتك

قال أوليفييه بحزن واأسفاه ياسيدتى فان واجباتى لاتزال تدعونى الى اعمال قد تبعدنى من ابنتك وتعترض هناءها

اجابت واندا عجباً انى لاأفهم ماتقول الا زلت ترتاب فى براءة ابنتى بعد ما اعترفت لك : قال كلا

اجابت اما زلت تحبها : قال من كل قلبى

اجابت وهى تحبك من صميم فؤادها وكانت مخطوبة لك ولما حدثت حادثة كولونا اشترط والدك ان يقوم البرهان على براءتها ليرضى باقترانك بها وها انا قد جئتكم بالبرهان وانا مستعدة لاعادة اعترافى على مسمع من أبيك ولاأظنه يرضى بظلم ابنتى متى علم انى انا الجانية وحدى فانى أعلمه عادلا شفوقاً فلا يطاوعه قلبه على حرمان سونيا ممن تحب

واصغى أوليفييه لهذه الكلمات وهو مطرق وقد تولته الحيرة فاندهشت واندا لاطراقه وسألته قائلة : ألديك أمر آخر ؟ قل لى بربك أيعترض هناءك وهناء ولدى عائق ؟

قال من الأسف نعم يامولاتى وقد فاتك أنى هنا الان لست بصفة خطيب ابنتك وانما بصفة قاض مكلف بتحقيق قضية جنائية فلا يفوتنك أنى اذا قضيت باطلاق سراح ابنتك وجب على بيان الاسباب التى دعتنى الى ذلك وانا مدين ببيان هذه الاسباب لا لوالدى فقط ولكن للعدالة أيضاً وللنائب العمومى الذى كلفنى بالتحقيق ثم للمدعية المدنية ليونا كوستا مانيا فلهذا ترينى مضطراً الى أمر من أمرين : اطلاق سراح ابنتك والقبض عليك او ابقاؤها فى السجن

وصرف النظر عن اعترافك . وفى كل من الامرين يقع العار على العائلة التى ارغب مصاهرتها هذا يامولاتى ماتدعونى اليه واجبات وظيفتى نعم ربما حكم القضاة ببراءتك ولكن سيعلم الناس جميعاً انك قتلت وسرقت فهل تظنين أن أبى يرضى مع ذلك باقترانى بابنتك وهل تظنين ان ابنتك ترضى الاقتران بالرجل الذى قضى على امها بالسجن وكان سبباً فى اباحة سر ضحت فى سبيل كتمانه شرفها وحريتها وغرامها . مولاتى أنى باستماعى اعترافك وقعت من مصيبة فى مصيبة فما اتعس حظى انى أجدنى اشقى أهل الارض طراً .

فلما سمعت واندا هذه الكلمات كادت تميد بها الارض وكانت لم تنتبه وهى فى اضطرابها الى ماينجم من اعترافها من النتائج التى افصح لها اوليفييه عنها. اما فرجوس فغضب وقال للقاضى :

ماهذه الاوهام ياسيدى . لاشك ان ذمتك ليست كباقى الذمم . اماوضحت لك براءة ابنتى . أما تبينت ان زوجتى ارتكبت القتل وهى فى حالة دفاع شرعى لترد كيد جاسوس اجنبى اراد الاستيلاء على ماتحت يدها ليكيد لفرنسا . عجباً . أنك تدعى حب ابنتى . فهل يعسر عليك ان تقرر حفظ القضية ويلبث الجمهور جاهلا ما أتته امرأتى فيها . نعم لااستنكر ان يعلم والدك الحقيقة لانى اعلمه كتوماً للاسرار أما ليونا كوستامانيا فيمكننا مساومتها على التنازل عن دعواها الان غايتها منها كسب المال . أما النائب العمومى فلا يبعد عليك ان تجد له سبباً تبنى عليه تصرفك فى هذه الدعوى لتدفع العار عن سونيا وأمها وعن العائلة التى تريد مصاهرتها وأظن ان نفسك لاتطاوعك على رفع قضية قد أيقن ضميرك ان رفعها يكون ظلما ولايخفاك ان كولونا هلك ودفن معه السر فليس ثمت مايدعو الى التخوف من افتضاحه يوماً ما

قال اوليفيه : كأنى بك نسيت شهادة اوجين تيتار أفما علمت انه قد يبوح بها ثم لاأخالك نسيت ان بين يدى مورتير برهانا قويا ضد زوجتك وانه يريد استطلاع الحقيقة . هما كافة ذلك

وهناك ايضا جابى دوزون فان غيرتها حركت منها عامل الحقد وعرفت أن مدام فرجوس هى عدوتها لما أراها مورتير صورتها الفوتوغرافية. فاذا تصادفت المرأتان فى احد المجتمعات الباريسية وهو امر ليس ببعيد فان جابى تعرفها لساعتها ولا يبعد عليها انها تستقصى عنها فتحرك الدعوى التى اكون ساعدتكم على حفظها

قال: فرجوس. الا نستطيع ان نشترى سكوت هذه المرأة

أجاب اوليفييه. لأظنك قادرا على شراء سكوتها بالمال فقد قال: لى مورتير أنها حاقدة على تلك التى تظنها السبب فى هجر كولونا لها وانت أدرى بحقد النساء ولا يرضيهن الا الانتقام

قالت واندا: صدقت. فلم يخطر ذلك فى بالى ويلى أأكون أنا السبب فى شقاء ابنتى ثم هبطت الى مقعد تعتمد رأسها بيديها متمتمة تقول: ماالعمل ؟ماالعمل؟

ولبث فرجوس وزوجته وأوليفييه صامتين تتنازعهم الافكار ويبحثون على مخرج من ذلك المأذق الذى هم فيه واذا بواندا رفعت رأسها بغتة وقد لمع برق من عينيها وقالت: اسمعوا فقد خطر لى خاطر. أنا السبب فى هذا الحال وعلى اصلاحه فبلغوا غداً النائب العمومى والجمهور والجرائد البيان الآتى:

« قد دلت التحريات على ان كولونا جاسوس لأحدى الدول الاجنبية وقد تقدم لعائلة فرجوس بصفة خاطب لابنته ليتمكن من سرقة رسوم المدفع الكهربائى الذى وضعه الاستاذ وسعى لنجاح حيلته فى أغواء الفتاة ولكنها نفرت منه وطلبت الى أبيها ان يقصيه عنها ففعل. الا ان ذلك الجاسوس لم ييأس من الحصول على مراده فدخل خلسة الى المعمل مغتنما فرصة انشغال اهل الدار فى المرقص. وأراد هناك ان يسرق الرسوم وأخذ يجرب المحرك الكهربائى الذى اخترعه فرجوس ولم يكن كولونا يعرف سر تركيبه فانفتح التيار الكهربائى فى الآلة فجأة وصعقه لساعته »

قال: أوليفييه: قد يصدق كل ماتقولين. اىما كيف يفسر القوم وجود سونيا بالمعمل

أجابت : سونيا . . . لما دخلت المعمل لتبحث عن زجاجة الاثير فوجدت جثة كولونا اغمى عليها من الرعب . وهذه هي الحقيقة

قال أوليفييه : والى م ينسبون اعترافها

اجاب : فرجوس تقول سونيا انها لما رأت كولونا مقتولا ظنت انى اناقله لتجاريه على سرقة أسرارى وأرادت لشدة محبتها لوالدها ان تتهم نفسها لتدرأ عنه التهمة . ولما رأتني قادراً على اثبات براءته منها اعترفت بالحق

قال أوليفييه : لو فرضنا ان هذا يسكت النيابة والرأى العام : فانى لنا أقناع مورتير وليونا كوستامانيا وجابى دوزون

قالت واندا : امهلونى اربعاً وعشرين ساعة فان لم اتكم بحل هذه المشكل اسلم نفسى للسجن

أجاب اوليفييه : لك ماتريدين

ولم يلاحظ القاضى اضطراب صوتها عند اقتراحها تلك المهلة .

أما هى فقالت : ائتونى بسونيا

فأحنى اوليفيية رأسه وخرج

وبعد ساعة أتت أولجا بسونيا وكانت ذهبت الى سجن سان لازار لاحضارها ولم تعلم سونيا بما جرى فلما دخلت دارها ووجدت امها وأباها مخليين ارتمت فى احضانهما فضمتها واندا الى صدرها تقبلها وهى تبكى وتقول لها

علمت يا ابنتى انك اتهمت نفسك لتخلصينى فامتقعت الفتاة ولم تشأ الاجابة أمام والدها ، فطمنتها امها قائلة لاتحاولى الانكار يا ابنتى فاذ أباك عالم بكل ماجرى وقد اعترفت له بكل شيء وهو قد صفح عن جريمتى

فالتفتت سونيا لأبيها قائلة ، آه يا أبتى ما اكرمك

وسألتها واندا كيف علمت يا ابتى باسرارى ولم اطلع عليها احدا

قالت علمتها من فمك يا أمى

سألتها: كيف علمتها

اجابت اطالوا عذابى فى التحقيق فذهبت ذات مساء الى الكنيسة الروسية بشارع دادو اسأل الله ان يظهر الحق ويخفى الباطل فى هذه القضيــة وبينما انا راكعــة اذ سمعت حركة فرفعت رأسى فرأيت شبحين يمران فى صحن المعبــد ثم فتح احدهما باب غرفة الاعتراف وكانت قريبة منى فعزمت على ترك مكانى لولا ان سمعت صوتاً من الغرفة اضطرنى الى البقــاء حيث كنت وذلك الصوت هو صوتك ياأمى وقد سمعتك تعترفين للقسيس بما فعلته وكنت كلما أريد الهرب من الـكنيسه وعدم سماع الاعتراف أخشى ان يستلفتك خروجى الى وجودى فلبثت حتى وضع القسيس عنك أوزارك وغفر لك خطاياك

وتذكرت واندا انها ذهبت حقيقة للـكنيسة المذكورة لتخفف عنها وخز الضمير على ماارتكبت (وكان ذلك فى اليوم الذى تتبع فيــه ليلورين ولافلور سونيا فى الطريق) واستمرت سونيا قائلة

ثم انك خرجت من الـكنيسة ولم تشعرى بوجودى اما أنا فقضيت ليلتى اتقلب على فراش الآلام من هول ماسمعت وفى الغــد صممت على اتخاذ خطة ادفع بها عن سمعتك الشين . فاتهمت نفسى

وجدت انى اذا اعترفت بأنى القــاتلة ابقى عليك ياامى وعلى شرفك وادفع عن ابى اكبر هم لانى عالمة بحبه لك وشفقته عليك فاعترفت وذهبت فى الاعتراف الى القول بأنى كنت خليلة كولونا ليبنوا الجريمــة على سبب مقبول . وما دعانى ياام الى الاندفاع فى الاعتراف الاوعد كولونا بأنه يكتمه عنكما وانه يحفظ القضية لانى كنت اخشى انك اذا بلغك خبر اعترافى تـكبرين منى تضحية نفسى لاجلك فتكذبيننى وربمــا دفعتك شفقتك الى الاعتراف بجرمك . ورأيت ان حفظ القضية كافل لخلاصنا جميعاً . نعم انه يقضى على هنائى وحبى لان اوليفييه ينصرف قلبه عنى ولـكنى فضلت تضحية هنائى ومستقبلى فى سبيل بقاء وسعادة امى وابى

ولـكن لسوء حظى لم تأت التقارير الطبية الشرعية مصدقة لما أقول وكنت ياامى لم تذكرى فى اعترافك كيف قضيت على كولونا فلما سألونى فى ذلك اضطربت

وسكت ... ومن ذلك اليوم صممت على أمر واحد الصبر على ماتأتى به الاقدار وكتمان ما بقلبى من الاسرار . وانما تعلمانى ماحدث بعد ذلك من القبض على وسجنى

فضمت الام ابنتها الى صدرها وقالت :

لقد فعلت ياابنتى فعل الشهداء الابرار وضحيت لاجلى شرفك وهناءك . . لانه يلوح لى انك لاتزالين تحبينه

فاحمر وجه الفتاة خجلا وكان خجلها أفصح جواب بالايجاب فقالت واندا :

نعم انك تحبينه اطمأنى فقد علم اوليفييه انك بريئة وفهم سر اعترافك فاعجب بشهامتك واكبر شجاعتك وزادت محبته لك فكونى سعيدة معه وتلك غاية آمالى : قالت سونيا : اتظنين انه يرضى بى زوجة بعد ذلك ؟

أجابت : لاأشك فى ذلك : فكاد الفرح يطير بالفتاة فألقت بنفسها فى أحضان أمها : أما فرجوس فكان واقفاً يسمع ويرى ولما نطقت امرأته بالجملة الاخيرة نظر لها وهز رأسه كانه فى ريب من صحة ماتقول . فوضعت واندا اصبعها على فمها مشيرة له بالسكوت . فسكت وهو لايعلم مايخامر قلب امرأته من المعانى

الخاتمة

ولما اصبح الصباح قبلت واندا ولديها وزوجها وقالت : لهم انها عازمة على مقابلة أوليفييه .

فأراد فرجوس ان يصحبها اليه فقالت له : دعنى انفذ وحدى ماارتأيته وادبر نفسى هناء ابنتى مع من تحب

قال لها : ولكنى أخاف عليك وصحتك الآن تستدعى العناية

أجابت : قد تقويت الآن بفضل الله فسألها : وما الذى ارتأيته

اجابت : ستعلمه الليلة

قال ؟ الا زالت تحيط بك الاسرار . ياواندا ولكن ماأجملك اليوم

وكانت واندا قد لبست فى ذلك الصباح أجمل ثيابها وزينت أحسن زينة وحلت

ملابسها بالزهور وتظاهرت بالصحة والثبات

ولما نزلت من الدار أطل لها فرجوس من النافذة فرآها سائرة فى الحديقة فسألها قائلا

ألا تنتظرين اعداد العربة

قالت : كلا سأتخذ المترو فأصل بسرعة

واندهش فرجوس لثبات امرأته وسكونها ولكن لم يطمئن قلبه لخروجها بهذه الصفة . أما هى فبلغت محطة المترو (والمترو ترام كهربائى يسير تحت الارض فى شوارع باريس) واشترت تذكرة لدرجة اولى ثم نزلت الى رصيف المحطة . ولما مرت أمام العامل المكلف بصرف التذاكر وقفت واستندت الى حاجز وأخرجت من جيبها منديلا معطراً فاستنشقته فقال : لها العامل

أراك يامولاتى متألمة

قالت : ليس بى شىء . انما هو دوار بسيط .

ثم تقدمت الى الرصيف تنتظر القطار مع المنتظرين ومالبث القطار ان اقبل من النفق يدوى كالرعد فالتفتت الاعناق لتنظره والتفتت واندا وقد مر بها فى تلك اللحظة خاطر كالبرق الخاطف ولم يكد القطار يدخل الى الرصيف حتى صرخت واندا قائلة

الى اغيثونى فقد اختنقت

وقبل ان يتمكن الحاضرون من تداركها هوت بين فوق الرصيف امام القطار ومرت فوقها العجلات قبل ان يتمكن السائق من ربطها

حدث كل ذلك فى بضع ثوان وأصبح ذلك الجسم الرشيق كتلة من اللحم ممزق وعظم مهشم فوق القضبان وقد انصبغت الارض تحته من الدم بثوب قرمزى : وارتفع من كل مكان صوت المسافرين بالحزن والاسف . وهكذا انجزت واندا ما وعدت

اما وعدتهم بحل مشكلهم قبل انقضاء اربع وعشرين ساعة . وهل لمشكلهم حل الا هذا . . .

انتحرت وسيظن القوم ان ما أصابها كان قضاء وقدراً فليطمئن الآن أورليه ...

وليحفظ القضية فلن يؤاخذه ضميره وليهنأ بسونيافقدوضحت له براءتهم جابى دوزون ماشاءت ان تبحث فلن تهتدى الى تلك المدوة التى لم ترها فى حياتها الا مرة . . وليقنع الرأى العام بهذا الختام

وفى مساء ذلك اليوم صدرت جريدة الترميدور وفيها التعليق الآتى على هذا الحادث محرراً بقلم مورتير

« وقد اخطأت مدام فرجوس باقدامها على الخروج وحدها وهى لم تقم من فراش المرض الا قريبا فاصابها دوار التى بها بين عجلات القطار

وقد كان وقع نعيها اليما فى نفس زوجها الاستاذ فرجوس وهو كما يعلم القراء مخترع المدفع الكهربائى الذى ساومته عليه الحكومة الفرنساوية وفى نيتها استعماله ومما يزيد أسفنا ان حضرة الاستاذ توالت عليه المصائب هذه الايام »

ثم عطف مورتير فى التعليق على قضيـة كولونا واثبت براءة سونيا بالصفة التى اقترحتها وا ندا على اوليفييه بالامس وبلغها اوليفييه للمحرر وهى كما علم القراء تدل على أن كولونا مات مصعوقا بيده وهو يجرب المحرك الكهربائى وتنفى التهمة عن فرجوس وآل بيته . ثم جاء فى التعليق .

« سيختم جناب القاضى التحقيق بعد ان افرج عن المتهمة اما جريدتنا فيجب عليها اذ كانت اول من وجه التهم الى الانسة فرجوس ان تعلن الان على رؤوس الاشهاد براءتها وتهنئها بها وتقدم لها اخلص التعازى على مااصابها فى والدتها »

بيير مورتير

وكانت هذه المقالة كما يظهر للقراء املاها اوليفييه حرفيا على مورتير واوصاه بكتمان الحقيقة واعطاه مقابل ذلك عشرين الف فرنك من ميراث عمته

ودخل فيدلين صديق مورتير يبتسم ابتسام الظافر وقال له :

ـ ماقولك ياصاح . أما قلت لك ان سونيا فرجوس بريئة وان كولونا لم يقتل بل مات بعارض . هاانا قد كسبت الرهان : قال مورتير : قد صار حقاً لك ثم سلمه عشرة آلاف فرنك من العشرين الفاً وأبقى العشرة الاخرى لينفق

ملابس ... ه بلور لاريف الخياطة التى لدى فركين

أما النائب العمومى فاقتنع بأقوال أوليفييه التى رددتها الصحف . ورفضت المحكمة طلبات ليونا كوستامانيا المدعية المدنية

واستمرت جابى دوزون على ارتياد المراسح وهى تؤمل كل يوم ان تصادف عدوتها فيها . فلتنتظر ! .

وأراد أوليفييه ان يلقى اوجين تيتار الخادم ليشترى سكوته أيضاً فبلغه انه ورث ميراثا وسافر الى نيويورك ليفتح فيها نزلا

اما فرجوس فكان حزنه عظيما لوفاة زوجته . ولكنه اتفق مع اوليفييه على كتمان السر وافهما سونيا ان وفاة امها كانت قدراً مقدوراً ولم يشاءا ان يقولا لها انها انتحرت مضحية نفسها فى سبيل هنائها فلم تشك الفتاة فى صحة قولهما ولكن لم يخفف ذلك من حزنها على امها فبكتها طويلا

وعلم جان دى لورا ابو اوليفييه بالحقيقية من ولده فتكتمها ورضى بقرانه بسونيا فعقد له عليها كما تمنت واندا

واراد فرجوس ان يلتهى عن احزانه فعكف على تجاربه العلمية وكان كلما يفكر فيما مر به من الحوادث يقول فى نفسه

العلم . العلم . فيه سر الاكوان فهو سبب ثروتى وسعادتى وهو سبب همى وشقائى

وانت ايتها الكهرباء اعجوبة القرن العشرين انت آلة الخير وانت آلة الشر انت قاتلة عدوى ولكن : اه أنت القاضية ايضاً على حبيبتى

انت عبد للانسان تقربين له البعيد ويدرك بك المستحيل : ولكنك طالما تغدرين به وتقضين عليه :

ثم يعطف الرجل على عدده فيشتغل فيها ويرفع بصره بين اونة واخرى الى صورة زوجته فتغشى عينيه الدموع فيرد البصر حزيناً ويتسلى بمقدم المولود المنتظر من سونيا ويقول فى نفسه : يوم لمفقود ويوم لمولود

« تمت رواية ضحايا الاقدار »



تأليف

چون ستيوارت ميل

تعريب

طه اسباعى

خليل صادق

مؤسس مكتبة ومطبعة الشعب

ومنشىء مجلة مسامرات الشعب

وصاحب ومدير جريدة الحال

ثمن النسخة ثلاثين قرشاً صاغاً

ويطلب من مكتبة الشعب ومكتبة المؤيد بشارع محمد على بمصر

والمكتبة الاهلية بشارع عبدالعزيز ومكتبة الهلال بشارع الفجاله